دائرة المعارف الهندية

"١"

تحفة المجاهدين في احوال البرتغاليين

تأليف

الشيخ احمد زين الدين المعبري المليباري

المتوفى بعد سنة ٩٩١ هـ

قدم له وحققه وعلق عليه

محمد سعيد الطريحي

مؤسسة الوفاء

بيروت - لبنان

دائرة المعارف الهندية

سلسلة أبحاث ودراسات عن تأريخ شبه القارة الهندية

يصدرها

محمد سعيد الطريحي

الأمين العام للمركز الثقافي العربي الهندي

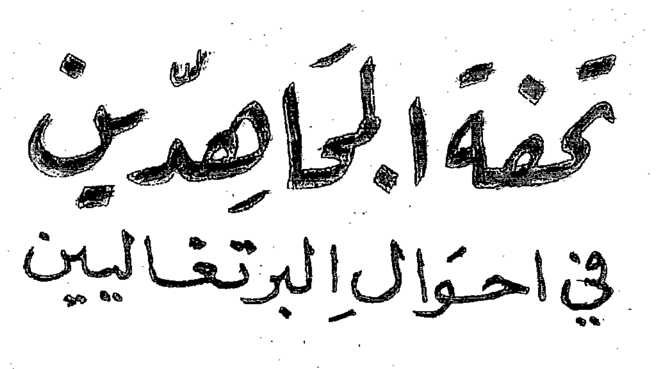
الهند ـ بومباي

المركز الثقافي العربي الهندي

NAJAFI House, 159, Nishan Pada Road,

Bombay — 400009, INDIA, Tel : 8720350

لبنان ـ شتورة ـ تعنايل ـ بناية رحّال ـ الطابق الثاني


تحفة المجاهدين
في احوال البرتغاليين

الطبعة الأولى
١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م

مقدمة

المؤلف ـ والده ـ جده ـ مؤلفاته ـ كتاب تحفة المجاهدين

* المؤلف :

هو الشيخ احمد زين الدين بن الشيخ عبد العزيز[1] بن الشيخ زين الدين ابي يحي بن علي بن احمد المعبري[2] المليباري الفناني الشافعي (توفي بعد سنة ٩٩١ هـ) وكانت ولادته في (فنّان Ponnani) ببلاد المليبار في اسرة العلم والادب والشرف وتربى بين ظهرانيها احسن تربية ، ودرس اغلب العلوم الشائعة في عصره وتميز ببراعته في علم الفقه واشتهر بذلك حتى اصبح اسم الفقيه يلازمه طيلة حياته وبعد وفاته ، وكان جدّه الشيخ زين الدين بن علي المعبري ، من كبار علماء عصره وقد انتقل من بلده

---

(١) في بعض المصادر ورد اسمه « الشيخ محمد الغزالي المعبري الفناني » .

(٢) المعْبري : نسبة الى المعبر ، عدّه في تقويم البلدان / ٣٥٤ الاقليم الثالث من الهند قال : واوله يقع شرقي الكولم بنحو ثلاثة او اربعة ايام وهو شرقي المليبار ، والنسبة في انساب السمعاني ١٢ / ٣٣٧ ، ومعجم البلدان ٥ / ١٥٤ الى غير هذا الموضع وان اتفقت بالرسم .

الاصلي (كش) الى (فنان) حين اصبح عمه الشيخ زين الدين بن احمد المعبري[1] قاضياً في (كش) . اما والده فهو الآخر كان من الاعيان والعلماء ، وبهذا فان مؤرخنا وفقيهنا العلامة الحافظ زين الدين صاحب (تحفة المجاهدين) هو سليل اسرة علمية ممتدة في التاريخ ، عريقة الاصول ، طيبة الفروع ، ومع ذلك فقد خفي ذكره علينا الاّ من النزر القليل من المعلومات ، اما اساتذته فاشهرهم واكثرهم ذكراً هو المحدث الحافظ شهاب الدين احمد بن حجر الهيتمي[2] ، والذي قدم الى الهند واقام في بلاد المليبار ودرّس فيها علم التفسير والحديث في جامع فنان الذي شيده

---

(١) وبهذا يصبح في هذه الاسرة (آل المعبري) ثلاثة اعلام من العلماء البارزين يُعرفون باسم زين الدين ، احدهم المؤلف صاحب تحفة المجاهدين ، ثم جدّه زين الدين بن علي ، ثم عم جدّه زين الدين بن احمد ، والثلاثة ايضاً يعرفون بالمخدومين وهو لقب اطلقه عليهم المسلمون المليباريون احتراماً واجلالاً وما يزال اللقب هذا جارياً على الالسنة في بلادهم بالنسبة لاحفادهم واعقابهم وبخاصة في بلدة (فنان) .

(٢) هو ابو العباس شهاب الدين احمد بن محمد بن علي بن حجر الهيثمي المكي السعدي الشافعي ، المحدث ، الفقيه ولد بمصر سنة ٨٩٩ هـ ودرس في الجامع الازهر ، واخذ العلم وروى عن مشاهير علماء عصره . انتقل سنة ٩٤٠ هـ الى مكة وكان فيها امام الحرمين ، الف الكثير من الكتب في الفقه والحديث توفي بمكة سنة ٩٧٤ هـ .

زين الدين بن علي جدّ المصنف وشيَّدَ بجانبه زاوية يأوي اليها العلماء والطلبة الذين يقصدون المليبار من الحجاز ومصر واندونيسيا وجنوب شرقي آسيا .

* والده :

اما والد المصنف فهو الفقيه العلامة المخدوم الشيخ عبد العزيز بن الشيخ زين الدين المعبري المليباري ، وهو فقيه ، متكلم ، واديب كبير ، وكان من مشائخ المليبار في الحديث والتفسير والكلام ، وكان والده زين الدين قد نظم قصيدة في الاخلاق اسماها « هداية الاذكياء الى طريق الاولياء » فاكبَّ عليها ولده عبد العزيز شارحاً وموضحاً واسمى شرحه « مسلك الاتقياء ومنهج الاصفياء » واوله بعد البسملة « الحمد لله الذي هدى من يشاء من عباده ، لامتثال مأموراته ، واجتناب منهياته . . » ثم ذكر السبب الداعي لشرحه للقصيدة ، فقال « ولما وجدت القصيدة المسماة بهداية الاذكياء الى طريق الأولياء لوالدي وشيخي وعمدتي الشيخ زين الدين المعبري . . من انفع كتب السالكين واقربها الى الراغبين والمسترشدين ، لكثرة فوائدها مع اختصارها وغزارة علمها مع قلة حجمها ، ورأيت جماعة من اصحابنا وفقهم الله للخيرات ، راغبين في الاشتغال بها ، ومتعطشين الى كشف فوائدها ،

اردت ان اكتب لها شرحاً يحلّ الفاظها ويكمل فوائدها فشرعت في جمعه مستعيناً بالله الوهّاب ، وملتمساً منه التوفيق للصواب . . . » ثم اشار الى منهجه في هذا الشرح فقال : « اعلم اني لما كتبت من هذا الشرح جانباً على سبيل الاختصار ظهر لي ان ادخل فيه جملا مما رأيت في كتب ائمة الدين من الفوائد المستحسنة والنفائس المستطرفة حتى يتزين بها الكتاب ، وتقر بها عيون اولي الالباب ، فترى فيه من احياء علوم الدين ، حدائق ذات بهجة ، ومن غيره فوائد مستنيرة تحصل بها الفوائد ، وتكثر بها العوائد ، ورأيت ان لا يخلى منها الكتاب ، ويتمتع بها الطلاب مع ما اوردت فيه من بعض تبيين لمشكلات الاعراب ، وتوضيح لمشكلات اللغات ، وكل ذلك لرجاء الانتفاع في مسلك الاعانة والارفاق . . » .

وقد أصبح هذا الشرح (مسلك الاتقياء) من كتب الاخلاق المهمة لا تخلو منه مدرسة من مدارس المليبار ، بل ولا يخلو منه بيت من بيوت طلبتها ، وكان اساتذة الشافعية يوصّون به ويحثون على دراسته حتى في مصر ، وقد انتهى المؤلف من شرحه هذا في سنة ٩٩٣ هـ والله اعلم بما عاش بعد هذه السنة ، رحمه الله واجزل مثوبته .

وطبع هذا الشرح وبهامشه القصيدة بمطبعة بولاق .

القاهرة في ١٦٥ ص سنة ١٢٩٢[1] هـ .

* جده :

أما جدّ المصنف فهو الفقيه العلامة المؤرخ الاديب الشاعر المنشيء الشيخ زين الدين بن علي بن احمد الشافعي المعبري المليباري ابو يحى ، في طليعة العلماء المجاهدين ضد الغزو البرتغالي للهند ، ولد في (كش) من مدن مليبار يوم الخميس الثاني عشر من شهر شعبان سنة ٨٧١ او ٨٧٢ هـ ونقله عمه القاضي العالم العامل الشيخ الصالح زين الدين بن احمد المعبري الى فنان وهو صغير لما ولي قضاءها ، وبها قرأ القرآن وحفظه واشتغل عليه في الصرف والنحو والفقه وغيرها ، ثم على مشائخ كبار منهم الشيخ احمد شهاب الدين بن عثمان بن ابي الحل اليمني ، اخذ عنه الحديث والفقه ، وقرأ عليه الكافي في علم الفرائض

---

(١) ورد في فهرست الكتب العربية المحفوظة بالكتبخانة المصرية (المطبعة العثمانية بمصر ١٣٠٥ هـ) ج ٢ / ١٦٨ ما يلي : « قامع الطغيان على منظومة شعب الايمان ، وهو شرح للشيخ محمد نووي ابن عمر الجاوي من علماء القرن الرابع عشر على المنظومة المذكورة للشيخ زين الدين بن علي بن احمد الشافعي الكوشني المليباري . طبع في المطبعة الوهبية سنة ١١٩٦ هـ وبهامشها هداية الأذكياء وتحفة الاحياء وهي منظومة للشيخ زين الدين المذكورة في الطريقة والشريعة والحقيقة .

للصردفي .

ومنهم امـام الديـار المليباريـة في وقتـه القـاضي ببنـدر كاليكوت«ابو بكر فخر الدين بن القـاضي رمضان الشالياتي» اشتغل عليه في الفقه واصوله .

واجـاز له جمـاعة منهم : القـاضي عبد الـرحمن الادمي المصري في رواية الحـديث والتفسير والفقـه ، ورواية سلسلة الفقـه المتصل سنـده الى رسول الله (ص) ، وهـو ممن اخذ عن الشيـخ شمس الـدين الجـوجـري ، والشيـخ زكـريـا الانصاري ، والشيخ كمال الدين محمد بن ابي شريف .

تـوفي في فنـان ليلة الجمعـة السـادسـة عشـرة من شهـر شعبان سنة ٩٢٨ هـ .

ولقد ترجم له نجله الشيخ عبد العزيز ، ومما قـاله فيـه « كـان من العلماء العـاملين ، والائمـة المحققـين جـامعـاً لاصناف العلوم ، حاوياً لمكارم الاخلاق مع دقائق الفهوم ، ذا الجـود العام ، والفضـل الفائض عـلى الخـاص والعـام ، مشفقاً على الـطلبة ، محسنـاً الى اهل الحـاجة ، محبـاً للفقراء والصلحـاء . والعباد ، كثـير الاذكاء والـدعوات والاوراد ، موزعاً اوقـاته في الخـير ، ناصحـاً للخلق ، ناشـراً للعلوم ، قائماً بدفع البـدعة والمنكـر ونصر المـظلوم ، كم من منكرات قد ازالها ، وسنن اظهـرها ، وانتفـع به خلق كثـير ، واسلم

على يده خلائق لا يحصون كثرة ، وكان يحترمهم ، ويُحسن اليهم كثيراً ، ويحض الناس على ذلك . كان جشتي[1] الطريقة ، اخذ الارادة عن الشيخ الجليل العارف بالله الشيخ قطب الملة والدين بن فريد الدين بن عز الدين الاجودهني ، والبسه شيخه المذكور الخرقة ولقّنه الذكر الجلي على الطريقة المنسوبة الى القادرية . . ثم اقامه مقامه في تربية المريدين وارشادهم ، وتلقين الذكر ، والباس الخرقة ، والاجازة لمن يجيز ، ولقّنه ايضاً الذكر الجلي وكذا الخفي على الطريقة الشطارية شيخ الطريقة الشيخ ثابت بن عين بن محمود الزاهدي واجاز في تلقينه . . . وله اشعار كثيرة ، ورسائل نافعة نظماً ونثراً الى الملوك والسلاطين ومن دونهم في الحث على الخيرات خصوصاً على جهاد البرتكاليين خذلهم الله ورماهم بشهابه الثاقب ، ومصنفاته كانت حسب حال المحتاج ، وعجالة وقت الاحتياج ، ولم يتجرد لتصحيحها وتنقيحها بعد الفراغ منها . . »[2] اهـ وهذا ما توفر لنا من ذكر آثاره :

---

(١) نسبة الى الطريقة الجشتية التي اسسها في الهند الصوفي الشهير العلاّمة السيد معين الدين الجشتي ، من اشهر اعلام الصوفية في الهند ، زرت قبره بمدينة (اجمير) في ولاية راجهستان الهندية ، ويعد من المزارات الكبرى .

(٢) مقدمة مسلك الاتقياء : ٤ وما بعدها .

١ ـ ارشاد القاصدين في اختصار منهاج العابدين (لحجة الإسلام الغزالي) طبع في فنان .

٢ ـ تحفة الاحباء وحرفة الألباء ـ في الاذكار والدعوات الواردة عن النبي (ص) ـ مختصرة بحذف الاسانيد .

٣ ـ تسهيل الكافية ـ في شرح الكافية لابن الحاجب .

٤ ـ حاشية وافية على الارشاد ـ لابن المقريء ـ في الفقه من الطهارة الى الحيض .

٥ ـ حاشيتانَ عَلى التحفة ـ لابن الوردي .

٦ ـ حاشية على الالفية لابن مالك ـ مختصرة لم يتمها ، وقد اتمها بعده ابنه عبد العزيز .

٧ ـ سراج القلوب وعلاج الذنوب ـ وهو في التصوف والمواعظ ـ طبع في فنّان .

٨ ـ سيرة النبي ـ لم يتمه .

٩ ـ شعب الايمان المعربة المختصرة من شعب الايمان الفارسية للسيد نور الدين الايجي وقد طبع في فنان وهو يدل على معرفة الشيخ زين الدين باللغة الفارسية .

١٠ ـ شمس الهدى ـ كتاب في المواعظ ـ غير تام .

١١ ـ الصفاء من الشفاء ـ مختصر الشفاء للقاضي

عياض المالكي ، وصل فيه الى الفصل الخامس من الباب الثالث ـ في تعظيم امر النبي (ص) ووجوب توقيره .

١٢ ـ كفاية الفرائض في اختصار الكافي في الفرائض للشيخ الصردفي .

١٣ ـ كفاية الطالب في حلّ كافية ابن الحاجب ـ غير تام ـ وقد مرّ تسهيل الكافية له .

١٤ ـ القصيدة الجهادية الموسومة بتحريض اهل الايمان على جهاد عبدة الاوثان ، كتبها لما احتل البرتغال الهند وتغلبوا وخربوا واحرقوا .

١٥ ـ قصيدة فيما يورث البركة وينفي الفقر مأخوذة من كتاب البركة للوصابي .

١٦ ـ مرشد الطلاب الى الكريم الوهّاب : وهو من انفع كتبه . طبع في إلمليبار .

١٧ ـ قصص الانبياء ـ وصل فيه الى قصة النبي داود (ع) .

١٨ ـ المسعد في ذكر الموت .

١٩ ـ هداية الاذكياء الى طريق الاولياء ـ وهي منظومة في الاخلاق ـ اشرنا لها سابقاً ـ وتقع في ١٨٩ بيتاً ، لدينا منها نسخة خطية جاء في اولها :

الحمد لله الموفق للعلا
حمداً يوافي برّه المتكاملا
ثم الصلاة على الرسول المصطفى
والآل مع صحب وتباع وا
ان الطريق شريعة وطريقة
وحقيقة فاسمع لها ما مثلا

ويحثّ فيها على الالتزام بالاخلاق الإسلامية ، ويوضّح ما يقتضيه المتصوف في عمله ، مع الوعظ والعرفان ، آخرها :

والحمد للباقي الرؤوف مصلياً
اعلى الصلاة على الرسول محوقلا

واعتمد في نظمها بمراجعة كتب الإمام الغزالي ، وعوارف المعارف للشيخ شهاب الدين السهروردي ، والتبيان في آداب حملة القرآن للشيخ محي الدين النووي ، والرسالة القدسية للشيخ زين الدين الخوافي ، والكبريت الاحمر للشيخ عبد الله العيدروس ابن ابي بكر بن عبد الرحمن باعلوي الحسني ، ومعارج الهداية لاخيه الشريف علي بن ابي بكر ، والقصيدة هذه مشهورة ومتداولة في الهند والملايو وبعض البلدان العربية .

* مؤلفاته :

١ ـ الاجوبة العجيبة عن الاسئلة الغريبة : مجموعة فتاوى في المسائل الفقهية .

٢ ـ إحكام احكام النساء .

٣ ـ تحفة المجاهدين في بعض احوال البرتغاليين ـ هذا الكتاب ـ .

٤ ـ الجواهر في عقوبة اهل الكبائر ـ نشرته المكتبة الادبية في حلب ـ سورية ـ سنة ١٩٦٧ م / ١٣٨٧ هـ . عن نسخة خطية كتبها في ٧محرم سنة ١٢٥٦ هـ احمد بن حسن مرتضى الحنفي الشاذلي الخلوتي .

٥ ـ ارشاد العباد الى سبيل الرشاد ـ في التصوف ـ .

٦ ـ شرح الصدور في احوال الموتى والقبور . اختصره من كتاب للسيوطي ـ.

٧ ـ الفتاوى الهندية .

٨ ـ قرة العين بمهمات الدين : متن في الفقه الشافعي ، وهو من اهم كتبه ، شاع وطار صيته في الامصار ، وخاصة في مصر حتى كان يُدرّس بها بالاضافة الى مدارس المليبار ، وطبع مراراً مع الشرح كما سيأتي ، وهو متداول في الهند وبعض البلدان العربية وجاوه

واندونيسيا والملايو وسنغافورة .

٩ ـ فتح المعين بشرح قرة العين : شرح فيه كتابه السابق (قرة العين) ، اوله بعد البسملة : « الحمد لله الفتّاح المعين على التفقه في الدين . . » وكتب على غلافه « تصنيف العالم العلامة الشيخ زين الدين بن عبد العزيز المليباري تلميذ ابن حجر الهيتمي الشافعي . . » .

وجاء في آخره (ص ١٤٢) : « فرغت من تبيض هذا الشرح ضحوة يوم الجمعة الرابع والعشرين من شهر رمضان المعظم قدره سنة اثنتين وثمانين وتسعمائة وارجو الله سبحانه وتعالى ان يقبله وان يعم النفع به ويرزقنا الاخلاص فيه . . . برحمتك يا ارحم الراحمين » .

وهذا الشرح انتخبه من الكتب المعتمدة للشيخ شهاب الدين ابن حجر وبقية المجتهدين مثل وجيه الدين عبد الرحمن بن زياد الزبيدي ، واستاذه المجدد زكريا الانصاري واحمد المزجد الزبيدي ، واعتمد فيه على ما جزم به شيخا المذهب النووي والرافعي فمحققوا المتأخرين الى عصره .

وللشيخ علي بن احمد بن سعيد باصبرين حاشية على فتح المعين ، نشر الشرح في الهند على الحجر سنة ١٢٨١ في ٥٧٦ ص . ثم في مطبعة شاهين بالقاهرة سنة ١٢٨٢ ، ٤٠٠ ص ، وفي بولاق ١٢٨٧ ، ٩٨ ص ،

وطبع نفس هذه السنـة في مطبعـة وادي النيل بمصـر ايضاً . وفي المطبعة الوهبية بـالقاهـرة سنة ١٢٩٦ هـ وبهـامشها قـرة العين في ٢٤٧ ص . وفي مصر سنة ١٣٠٤ وسنة ١٣٠٦ هـ وسنة ١٣٠٩ وبالمـطبعة العثمـانية ١٣١٢ وبـالمطبعـة الميمنية ١٣١٤ وبالمطبعة الخيرية ١٣٣٣ وبمطبعة دار الكتب العربيـة الكبرى ١٣٤٦ .

وممن كتب عليـه حاشيـة ايضاً السيـد ابي بكر المشهـور بـالسيد البكـري بن السيد محمـد شطا الـدمياطي الشـافعي نزيـل مكـة ، كتب حاشيـة على الشـرح اسماهـا « اعـانـة الطالبين على حل الفاظ فتح المعـين » فرغ منهـا يوم الاثنـين الثالث والعشرين من شوال سنة ١٣٠٠ هـ . وطبعت اعـانة الطالبين عدة طبعات بمصر سنة ١٣٠٠ و ١٣٠٦ و ١٣٠٧ و ١٣١٢. وعلى كل هذه الطبعـات نشر الشـرح (فتح المعـين) على الهامش .

وكتب السيـد عـلي بن احمـد بن عبـد الـرحمن السقّـاف حاشية على الشرح ايضاً اسماها « بغية المستفيـدين بتوشيـح فتح المعين » طبعت بمصر ١٣١١ وبهامشها « فتح المعين » .

وألّفَ الشيـخ محمد بن عمـر بن عربي بن عـلي النـووي الجـاوي كتاب « نهايـة الزين في ارشـاد المبتدئـين بشرح قـرة العين » طبع بمصر سنة ١٢٩٧ هـ .



* كتاب تحفة المجاهدين :

وبقدر ما تظهر براعة العلامة المليباري في علم الفقه ، تظهر براعته ايضا في تدوين التاريخ وكتابه « تحفة المجاهدين في بعض احوال البرتكاليين» شاهد على ذلك ، ومن ابرز العوامل التي دعته لتأليفه كان العامل الديني ، فقد وجد من واجبه كرجل دين وقائد روحي لعشرات الآلاف من المسلمين المليباريين ، ان لا يستكين لمواقف الغزاة الاعداء الذين اذاقوا المسلمين الويلات والمصائب ، بل واجبروهم في احايين اخرى على اعتناق النصرانية ، ونهبوا ممتلكاتهم ، واعتدوا على اعراضهم ، وسلبوا تجاراتهم ومجدهم الاجتماعي الكبير ، ولندع المصنف نفسه يصف لنا الحالة المأساوية التي وصل اليها المسلمون في ظل الغزو البرتغالي : « فظلموهم وافسدوا فيهم وفعلوا فعائل قبيحة شنيعة لا تحصى ، من ضربهم والاستهزاء بهم والضحك عليهم اذا مرّوا بهم استخفافاً وجعلهم مراكبهم في محال الماء والوحل ، والبصق في وجوههم وابدانهم وتعطيل اسفارهم خصوصاً

سفر الحج ، ونهب اموالهم ، واحراق بلادهم ومساجدهم ، واخذ مراكبهم ، ووطىء المصاحف والكتب بأرجلهم ، واحراقها بالنار ، وهتك حرمات المساجد ، وتحريضهم على قبول الردة والسجود لصليبهم وعرض الاموال لهم على ذلك وتزيين نسوانهم بالحلي والثياب النفيسة لتفتين نسوان المسلمين وقتل الحجاج وسائر المسلمين بانواع العذاب ، وسب رسول الله (ص) جهاراً ، واسرهم وتقييد اساريهم بالقيود الثقيلة ، وترديدهم في السوق لبيعهم كما يباع العبيد ، وتعذيبهم بانواع العذاب لزيادة العوض وجمعهم في بيت منتن مخطر ، وضربهم بالنعل اذا استنجوا بالماء وتعذيبهم بالنار . . وتعيين بعضهم في الاعمال الشاقة بلا شفقة . . . ثم ان بغيتهم العظمى ، وهمتهم الكبرى قديماً وحديثاً تغيير دين المسلمين ، وادخالهم في النصرانية نعوذ بالله من ذلك ، وانما صلحهم للمسلمين ضرورة العشرة معهم ، فان اكثر سكان البنادر التي في ساحل البحر المسلمون . . » ، ولما كان اقل هذه الاعمال تدعوا الى فتح باب الجهاد ومحاربة المعتدين الآثمين ، فكيف بكل هذه الفضائح والقبائح التي تكل الالسنة عن ذكرها ولذلك بادر العلّامة المليباري في الدعوة الى الجهاد ضد الغزاة ، وكتب كتابه (تحفة المجاهدين) ليكون تذكرة وعبرة لكل المسلمين وذكر في (القسم الاول) منه بعض احكام الجهاد وثوابه والتحريض عليه ، ثم (القسم الثاني) في بدء ظهور

الاسلام في مليبار ، و (القسم الثالث) في ذكر نبذة يسيرة من عادات كفرة مليبار الغريبة ، و (القسم الرابع) في ذكر وصول الافرنج الى مليبار وشيء من افعالهم القبيحة ، وهذا القسم الرابع والاخير جعله على اربعة عشر فصلاً (الاول) في ابتداء وصول الافرنج الى مليبار ووقوع الخلاف بينهم وبين السامري وبناء قلعتهم في كشي وكننور وكولم واخذهم بندر كووه وتملكهم اياه ، و (الثاني) في الاشارة الى شيء من قبائح افعالهم ، (والثالث) في مصالحة السامري الافرنج وبنائهم القلعة بكاليكوت ، و (الرابع) في سبب وقوع الخلاف بين السامري والافرنج وفتح قلعة كاليكوت ، (والخامس) في بناء الافرنج قلعتهم في شاليات وصلح السامري معهم مرّة ثانية ، و (السادس) في صلح السامري مع الافرنج مرة ثالثة ، (والسابع) في صلح السلطان بهادر شاه مع الافرنج واعطائه البنادر لهم و (الثامن) في وصول سليمان باشا الى ديو ونواحيها (والتاسع) في مصالحة السامري الافرنج مرّة رابعة (والعاشر) في وقوع الخلاف بين السامري والافرنج (والحادي عشر) في مصالحة السامري الافرنج مرة خامسة (والثاني عشر) في سبب الاختلاف بين السامري والافرنج وخروج الاغربة لمحاربتهم (والثالث عشر) في حرب قلعة شاليات وفتحها (والرابع عشر) في بعض احوال الافرنج بعد فتح شاليات .

ويدّون المؤلف الاحداث التي جرت في المليبار بدءاً من سنة ٩٠٤ هـ حتى سنة ٩٩١ هـ ، وهذه الفترة التاريخية صاخبة بالاحداث الجسام ، ففي بدايتها وقعت الكارثة الكبرى عندما رست سفن (فاسكو دا جاما) في مياه (كاليكوت) ، ومع ان ملك المليبار قد احسن وفادته وحمّله رسالة ودية لمليكه في البرتغال ، لكن ذلك الملك كان جوابه مطالبة الهند بمستعمرة لتجارته ونشر دينه ، عن طريق اسطول عقد لواءه لفاسكو دا جاما سنة ١٤٩٩ م فنال الامتيازات ، وثان لكبرال فاكتشف البرازيل في طريقه (١٥٠٠) وثبت اقدام البرتغاليين في كاليكوت ، وثالث عقده لدى المايدا (١٥٠٥) فانبثوا واستولوا على كوا (١٥١٠) ثم نالت فرنسا مثل امتيازاتهم (١٥٣٥) وانجلترا (١٥٨٠) وهولندا (١٦١٢) ثم غيرها من البلدان الاوروبية وعظمت تجارتهم من الهند فكانت الرحلة التي تتكلف ٤٠٠٠ جنيه بما فيها ثمن السفينة تباع حمولتها وحدها بمبلغ ١٥٠٠٠ جنيه ، ولكن البرتغاليين لم يقنعوا بهذا الثراء العريض ففتحوا مالقة وجزيرة هرمز على مدخل الخليج العربي ، وبسطوا نفوذهم على عدن ومصوع وقمران ، وجابوا البحر الاحمر ، واستولوا على سفن مصر والبندقية ، واستغاث ملك مليبار وتجار المسلمين باثنين من ملوك الهند وبمصر فانذر السلطان الغوري البابا بتخريب الاماكن النصرانية المقدسة ان لم يوقف البرتغاليين عند حدهم ، ثم جهز حملة بحرية بمعاونة

البنادقة فانتصرت على البرتغاليين ثم انهزمت امامهم في وقعة قرب ديو (١٥٠٩) فسيطروا على المحيط الهندي ومن بعد على بحر الصين حوالي قرن ونصف قرن يكسبون خلالها في كل سنة من الهند مليوناً ونصف مليون ديوك. ذهباً يبعثون بثلثها الى لشبونة فاثرت ثراءاً فاحشاً ، وازدهرت بلدان شواطىء المحيط الاطلسي والهندي ، في حين ركدت ثغور البحرين الابيض المتوسط والاحمر وكان لركودها اسوأ الاثر في حياة الشرق الادنى السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، واحسن اثر في النهضة الاوروبية ، حتى آثرها بعض المؤرخين على المخطوطات الاغريقية التي حملها البيزنطيون من القسطنطينية الى اوروبا الغربية .

ومهد الانقلاب التجاري في ايام كولمبس الى انقلاب صناعي يسر لاوروبا انتاج سلع اتقن وارخص واوفر ، ولما عجزت عن تصريفها جدّت في البحث عن اسواق لها في العالم ، وجابت بعثاتها الشرق لاستخراج كنوزه، وهكذا تأسست شركة الهند الشرقية في لندن ١٥٩٥ وشركة الهند الشرقية في هولندا ١٦٠٢ وتعاونتا فيما بينهما وحل الهولنديون الذين تحرروا من اسبانيا ، محل البرتغاليين في بومباي ١٦٦٥ وفي تلك السنة تأسست شركة الملاحة الشرقية في باريس وبسط الفرنسيون حمايتهم على الهند ١٧٤٠ ثم لحق الانجليز بهم اليها واجلوهم بعد معارك عنيفة ، فأثرت شركة الهند

الشرقية منها ، اذا صارت تبيع ما يكلفها مليوني ريال بعشرة ملايين حتى بلغ ثمن السهم فيها ٣٢ الف ريال ، ثم اقامت مستعمرة وحصنتها ووفرت لها جنداً خاضت بهم المعارك ورشت وارتشت حتى افقرت الهنود فثاروا (١٨٥٧) وللمسلمين في هذه الثورة الهندية نصيب كبير وبعد القضاء عليها حلت محل شركة الهند مستعمرة للتاج ، ثم حاربت في الهند مائة واحدى عشرة حرباً حتى تم لها فتحها واحتلالها ، ولعل في هذا الاستعراض التاريخي الموجز ما يدلل على اهمية الموضوع الذي طرقه المؤلف المليباري خاصة وانه عاصر الكثير من الاحداث التي جرت فيه ، ومع انه لا يتحرى الدقة في تفاصيل الاحداث ـ وفي اكثر الاحيان يمر ببعض الاحداث المهمة مروراً عابراً ـ الا انه يعتبر ثبتاً وصادقاً فيما يكتب ولعل مرد الملاحظة السابقة انه يعتمد فيما يكتبه على السماع من طبقات الناس المختلفة فجاءت بعض الاخبار على عواهنها هكذا دون تحليل او تفصيل مع انه بامكانه التوسع في موضوع السلطان الغوري ودخوله في حرب البرتغال ـ على سبيل المثال ـ وبسبب بعده عن كجرات ، فقد جاءت معلوماته عن النشاط العسكري والسياسي البرتغالي هناك ـ حيث مستعمرة (كووه) البرتغالية القوية ـ قليلة جداً ، ولكن هذه الملاحظات لا تبخس من اهمية هذا النص ، فهو بحث هام ونادر ، ولعله النص العربي الوحيد الذي كتب عن تلك الاحداث بقلم شاهد عيان من

المسلمين .

وقد اهدى المؤلف كتابه الى السلطان علي الأول بن ابراهيم عادل شاه ، خامس ملوك السلالة العادل شاهية ، احد سلالات المسلمين الخمس المستقلة في جنوب الهند ، قامت على انقاض الدولة البهمنية واسسها يوسف عادل شاه سنة (٨٩٥ هـ - ١٤٨٩ م) فلقبت عادل شاهي ، وكانت اقوى واشهر السلالات المتفرعة من الدولة البهمنية ، اشتهر ملوكها باخلاصهم لمذهبهم الامامي ، وتشجيعهم للعلوم والفنون ، وبراعتهم في البناء والعمارة ، حكم المملكة تسعة سلاطين كان آخرهم سكندر بن علي الذي عزل سنة ١٠٩٧ هـ وتوفي سنة ١١٠٠ هـ ، ثم ضمها اورنك زيب الى الامبراطورية المغولية ، والمؤسس يوسف عادل شاه دخل العاصمة البهمنية وافداً من ايران وهو شاب وكان من مخلصي السلطان حيدر الصفوي والدالشاه اسماعيل رأس الدولة الصفوية فتقرب بخدمته وحسن رأيه من الملك نظام شاه البهمني حتى قلده المناصب الرفيعة وزوجه احدى اميرات القصر ، وبعد توليه الملك بقيت علاقته بالصفويين طيبة وادرج اسماء الائمة الاثني عشر في خطبة الجمعة واعلى في الاذان الشهادة لعلي بالولاية .

وهذا السلطان الخامس علي الأول (المهدى له الكتاب) كان من الشجعان واهل الرأي والحزم تقلد الحكم

سنة ٩٦٥ هـ ربعد وفاة سلفه ابراهيم الاول بن اسماعيل عادل شاه ، وكان من المجاهدين المقاومين للغزو البرتغالي في الهند ، واشاد المؤلف المليباري بدوره في تلك الاحداث ، وقد استشهد السلطان علي عادل شاه في ٢٣ صفر ٩٨٨ وظلّت ارملته جاند بي بي وصيته على خليفته حتى كبر ، ويظهر ان المؤلف المليباري كان معجباً ببطولات هذا السلطان ، فهو يثني عليه اطيب الثناء ، ويطريه غاية الاطراء لمواقفه المشهودة من الغزاة البرتغاليين .

والامانة العلمية تقتضينا الاشارة الى اثنين من المستشرقين الذين اهتموا بأمر هذا الكتاب بعدما عرفوا اهميته وشأنه ، اولهما هو المستشرق الانجليزي رولندسون R. RowlandSon وقد طبعه مع ترجمة انجليزية ، ليدن ١٨٣٣ ص ١٦ و ١٨١ ، وجاء اسم الملف في هذه الطبعة (زين الدين بن علي المعبري) .

وثانيهما هو المستشرق البرتغالي دافيد لوبس David Lopes (١٨٦٧ - ١٩٤٢) وكان هذا من الباحثين المهتمين بامر الغزو البرتغالي الى الهند ، وقد نشر كتاب تحفة المجاهدين متناً وترجمة اسبانية ومقدمة وحواشي في ٣٣١ ص بعنوان : «Historia Dos Malabar Pop Zinadin Portugueses no وطبع بعناية جمعية لشبونة الجغرافية بداعي احتفال السنة الاربعمائة من

اكتشاف بلاد الهند ، لشبونة ، سنة ١٨٩٨ ، وفي هاتين الطبعتين ورد النص العربي مليئاً بالاغلاط كما ورد في غفل من التعاليق المفيدة التي تعين القاريء على تفسير الاحداث ومتابعة الوقائع لكنهما كتبا باللغات المذكورة بحثاً عن الغزو البرتغالي واثاره على العالم بيد انهما لم يشيرا الى سيرة المؤلف الا باشارات طفيفة .

ولما زرت المليبار سنة ١٩٨١ واقمت فيه عدة اشهر ، عرفت هذا الكتاب وادركت اهميته ، وشاء الحظ ان احصل على نسخة خطية قديمة منه ، تحتفظ بها عائلة المؤلف نفسه ، فعكفت على مقابلتها بالنسخ المذكورة ، وقدمت لها بما يناسب موضوعها وعلقت عليها بالتعاليق اللازمة ، ومن فضل الله تعالى ان ذلك تم في فترة وجيزة مع ان المراجع الخاصة بالموضوع غير متيسرة المنال ، ولهذا فانا ارجو ممن يجد فيه نقصاً او خللاً ينبهني اليه ويدلني عليه .

وعسى ان اكون بعملي هذا قد اسديت خيراً ، والعصمة لله وحده ، وله الحمد اولاً وآخراً .

بومباي في غرة شعبان ١٤٠٢ هـ — محمد سعيد الطريحي



تمهيد

تاريخ بلاد المليبار

الموقع الجغرافي ، التسمية ، بلاد الفلفل ، صلة المليبار بالامم القديمة : العرب ، الفرس اليونان والرومان ، ديانات المليبار ، الهندوسية ، البوذية ، الجينية ، اليهودية ، النصرانية ، الإسلام (تاريخ الإسلام واعلامه في المليبار) ، الادب المليالمي المليباري ، وصف ابن بطوطه للمليبار ، البرتغاليون في المليبار ، الاحتلال الانجليزي وعهد الاستقلال .



الموقع الجغرافي :

بلاد المليبار او كما تسمى اليوم كيرالا (KERALA) احدى ولايات الهند الاثنتين والعشرين ، وهي اصغرها مساحة ، تقع في الزاوية الغربية الجنوبية من شبه القارة الهندية ، وتشرف على ساحل بحر العرب وطول شاطئها يزيد عن ١٥٠ ميلاً ، ولهذا الموضع اثره الكبير في اهمية هذه البلاد وشهرتها التاريخية ، وتبلغ مساحتها (٣٨, ٨٩٣ كيلو متر مربع) وعدد نفوسها (حسب احصائية سنة ١٩٨١ - بلغوا ٢٥,٤٠٣,٢١٧ مليون نسمة) . ويحدها من الشمال ولاية كرناتكا (KARNATAKA) ومن الشرق ولاية تامل نادو (TAMIL NADU) ومن الغرب والجنوب البحر العربي . وتحتوي ولاية كيرالا على اثنتي عشرة محافظة من بينها ترافندروم (Trivandrum) العاصمة .

وقد اعلن الاستقلال الاداري للولاية في تشرين الثاني سنة ١٩٥٦ بعدما ضم اليها تراونكور ، وكوشين ، وتوابعهما ، وقبل ذلك كانت السلطة الادارية موزّعة على عدد من الحكام المحلّيين وكانت تابعة لولاية مدراس .

التسمية :

عرفت هذه البلاد بعدة اسماء قبل ان تشتهر بهذا الاسم « المليبار » والذي اشتهر بفضل مؤرخي العرب ، ويقال ايضا (الملابار) وهي مركبة من كلمتي (ملا) و (بار) وتستعمل كلمة (ملا) او (ملي) في لغات دراويداس للجبل ، وكذلك تعني في اللغة السنسكريتية ، و (بار) كلمة فارسية الاصل تعني (الكثير) فصار معنى المجموع(بلد الجبال) او (بلد كثير الجبال) ، واول مرة سمى تلك البلاد باسم (مليبار) او (ملابار) هم الملاحون الذين قدموا اليها من جزيرة العرب او من بلاد الفرس ، وكان ذلك في القرن الخامس الهجري او في القرن الذي سبقه ، وممن ذكر هذه التسمية الشريف الادريسي (٥٤٨ هـ - ١١٥٣م) ، وياقوت الحموي (٦٢٦ هـ - ١٢٢٨ م) وغيرهم من الجغرافين والمؤرخين العرب .

اما اسماؤها الواردة في الكتب القديمة في الادب

(التاملي) او (الكنـاري) فهي (كيرلـم)و (مليـالم) وان كلمـة (كيرلم) او (كيـرل) في اللغة الكنـاريـة هي صـوزة مشـوهة لكلمـة (شيرلم) او (شيـرل) في اللغة التـاميلية ، ومعناها سلسلة الجبال لأن كيرلا بلاد تحدها سلسلة جبال في الجهة الشرقية من اولها الى آخرها ، ومن اجـل ذلك عـرفت بـ (كيـرلم) او حيـرلم) وهي التسميـة التي تعـرف بهـا الآن فيقال (كيرالا) .

بلاد الفلفل

وتعرف هذه البلاد ايضاً ببلاد الفلفل ، نـظراً لشهرتهـا في انتاج الفلفل وذلك مما جذب اليها انظار التجار الاجـانب منـذ العصور الاولى للميـلاد ، ولاجل السيـطرة عـلى تجـارة الفلفل المليباري وقعت الكثير من الحروب والاحـداث فكان الفلفل من الاشياء العزيزة الغالية في عهود الامبراطور هرقل والملوك البطارسة في الروم ، وكان يستعمـل بكثرة ملحـوظة في الافـراح والاعيـاد ، وكـانـوا يحتفـظون بـه في المـطابـخ والمستشفيات والمصحات ، ويعين في القصور الملكيـة حارس خـاص لمخـزن الفـلافـل بـالنـظر الى نــدرتهـا واهميتهـا في العـلاجات الـطبية . وورد ذكـر الفلفل في كتب بقـراط وفي الوسائل الطبية القديمة ، وكان الفلفـل يقدم هـدية للفاتحيـن في عهد قدماء الرومان ، وله مكانة خاصة في كل المعاهدات والاحلاف التي كانت تعقد في تلك العهود ، وقيل ان الملك

(جوغارت) قد اعطى كمية من الفلفل بمبلغ مائة الف دينار الى قائد القوات الرومية على سبيل الرشوة في حرب وقعت بين (جوغارت) وبين امبراطور الروم سنة (١١٨ ق . م) وكان الملاّح « پليني Pliny » يستهزأ بطمع الروم وجشعهم في شأن الفلفل في مقالاته التاريخية ويقول : « ان الفلفل لا يحمل اية مزية حيث تجعله معدوداً ضمن الحبوب الغذائية ولا يحتوي على اية خصوصية تجعله من المحصولات الرئيسية ، ولكن له حراقة تساعد على فتح شهية الاكل الكاذبة ، وعلى كل اصبح الرومان الآن مستميتين في طعم الفلفل وحراقته ويضحون بكل رخيص وغال في سبيل الحصول عليه بقدر المستطاع » . وابدى كثير من المؤرخين دهشتهم البالغة عن تنافس الممالك العظمى وتقاتلها في سبيل السيطرة على اسواق الفلفل ومراكزه . وحازت مليبار كل شهرة وتقدير في آفاق الدنيا بفضل فلفلها وتوابلها الكثيرة . .

ولما مرّ الرحالة ابن بطوطة ببلاد المليبار ، قال انها بلاد الفلفل وذكر « ان شجرات الفلفل شبيهة بدوالي العنب ، وهم يغرسونها ازاء النارجيل ، فتصعد فيها كصعود الدوالي ، إلا انها ليس لها عسلوج وهو الغزل كما للدوالي ، واوراق شجره تشبه آذان الخيل ، وبعضها يشبه ورق العليق ، ويثمر عناقيداً صغاراًحبها كحب ابي قنينة اذا كانت خضراء، واذا كان اوان

الخريف قطفوه ، وفرشوه على الحصر في الشمس كما يصنع بالعنب عند تزبيبه ، ولا يزالون يقلبونه حتى يستحكم يبسه ويسود ، ثم يبيعونه من التجار ، والعامة ببلادنا يزعمون انهم يغلونه بالنار ، وبسبب ذلك يحدث فيه التكريش ، وليس كذلك وانما يحدث ذلك فيه بالشمس ، ولقد رأيته بمدينة قاليقوط يصب للكيل كالذرة ببلادنا » .

صلة المليبار بالامم القديمة :

العرب :

لعل صلة العرب ببلاد المليبار هي اقدم الصلات القائمة بين المليباريين وغيرهم من الامم والحضارات القديمة ، فقد كانت الهند والبلاد العربية على صلة تجارية مستمرة ، والملاحة العربية وفي المياه الهندية كانت معهودة قبل الاسلام بقرون عديدة ، حتى ان اللغة العربية قد وصلت الى شبه القارة الهندية قبل الاسلام بزمن بعيد على يد التجار والملاحين العرب ، حتى ورد ذكرها في الملحمة الهندية الشهيرة « المهابهاراتا » في انها كانت لغة التخاطب السري إثناء حرب كورو وباندو ينم[1] ، وقيل ان الكلدانيين

(١) اعتماداً على ما ذكره البانديت سوامي ديانندجي في كتابه المسمى « ستيارته بركاش » قال : « لما اراد « كورو » ان ينزلوا اعداءهم « باندو » في البيت المصنوع من الشمع اثناء حرب مهابهارت التي =

حاولوا توثيق الروابط التجارية مع مليبار قبل الفي عام للميلاد ، .

وكان العرب يفدون الى المليبار قبل عهد الاسكندر الاعظم بقرون عديدة ، وكانت محصولاتها تصدر الى سواحل جنوب جزيرة العرب عبر الخليج العربي ، ومن هناك كان التجار العرب ينقلونها الى « تدمر » بسوريا ، و« الاسكندرية » بمصر عن طريق الحجاز . واما التجار الغربيون فكانوا يشترون تلك البضائع من هذه المدن ثم يصدرونها الى اسواق بلادهم ، وكان العرب في الزمن القديم هم الوسطاء بين الهند وبين الروم واليونان في ميدان العلاقات التجارية ، وجاء في العهد القديم ان سكان فلسطين كانوا يتاجرون مع المليبار في عهد داود وسليمان (عليهما السلام) .

وتحمل لغات المقاطعات الساحلية في جنوب الهند وغربها طابع التأثر من العربية ، كما ان الخط البراهمي الذي طوره الهنود ليلائم مقتضيات لغاتهم ، انما دخل في الهند سنة ٨٠٠ قبل الميلاد على ما قاله بوهلر بواسطة التجار

= وقعت بين الطائفتين ، حينئذ كشف « دروجي » عن تلك المؤامرة باللغة العربية ، واجابه « بدهشتر » ايضاً بنفس اللغة » سليمان الندوي : عرب وهندكي تعلقات (باللغة الاوردية) : ١١ .

الفينقيين الذين هم من اصل سامي ، ومما يدلل على هذه الصلة ما وجد من نقوش دولة موريا (Mauryan) ودولة آندهرا (Andhra) التي هي مكتوبة بالحروف العربية ، وكذلك كتابات الامبراطور الهندي الشهير آشوكا التي هي مرسومة من الجهة اليمنى على نمط الخط العربي ، ولا يخفى ان الكتابة من الجهة اليمنى ميزة اللغات السامية .

وخلاصة القول فان صلة العرب ببلاد المليبار صلة قديمة عريقة منذ فجر التاريخ وقد توثقت وتأكدت بعد دخول الإسلام الى المليبار واستمرت مزدهرة طيبة حتى الغزو البرتغالي لهذه البلاد وما تلا ذلك من احداث جسام اوهنت تلك العلائق واضعفتها ، الا ان آثار ذلك الاتصال والترابط الطويل ما يزال واضحاً جلياً في البلاد المليبارية ولا ادل على ذلك مما ينتشر في المليبار من مئات المدارس والجامعات العربية الخالصة وغير ذلك مما سيأتي بيانه في كلامنا عن الإسلام في المليبار .

الفرس :

وصلتهم بالمليبار قديمة ايضاً فقد كانوا يتاجرون بالبضائع من والى المليبار ، وانشأوا جالية فارسية عند ساحل المليبار ، واسسوا عدة معابد خاصة بديانتهم كان احدها في ميناء مالي Male على ساحل المليبار ، والآخر على ميناء

كلينـــا Calliana[1] بـالقـــرب من بمبـاي ، وهنــاك بعض المؤثـرات من نـاحيـة اللغـة ايضـاً اذ انتقلت العـديــد من المفـردات الفارسيـة الى اللغة المليبـارية وقـد شاع ذلـك ايام الحكم المغولي للهند .

وقـد ذكر بعض المؤرخـين ان التجار الفـرس والعـرب استقروا في القرن السابع وما بعده بعدد كبير عـلى السواحـل الغـربية من الهنـد متفرقـين بأمـاكن مختلفة وتـزوجوا النسـاء الـوطنيـات ، وكـانت جـاليـاتهم في مليبـار خـاصـة كبيـرة هامة[2] .

اليونان والرومان :

تعود صلة البطالمـة والهند في النصف الأول من القـرن الثالث قبل الميـلاد استدلالا عـلى نقش تكريسي في الـرديسية لرجل يدعى سوفون الهندي يرجع الى القرن الثالث او الثاني قبل الميلاد ، وهما يذكران ما يراه من ان سوفون منقولـة عن الصيغـة السنسكـريتيـة سبهـانـــو Subbâanu وكـانت هنـاك رحلات منتظمة الى الهند وكان لملوك مصر بعض الاشـراف عليها ، ومما يدلل على ذلك اربعـة نقوش تكـريسية وجـدت

---

(١) تسمى اليوم كليان Kalyan على الشاطيء الشرقي من ميناء بمباي .

(٢) تاراتشند نقلاً عن كتابه South Kanara, madras district manuals ص ١٨٠ .

في مصر وهي ترجع الى ما بين ١١٠ و ٥١ ق . م وفيها ذكر لموظفين بطالمة « مسؤولين عن البحرين الاحمر والهندي » ، وبعد ذلك قام رحالة يوناني يدعى هبالوس Hippalus بتعلم فن الملاحة المباشرة في المحيط من بلاد العرب الى الهند بمساعدة الرياح الموسمية الجنوبية الغربية التي تهب في فصل الصيف فكانت البواخر تبحر من مصر وتصل الساحل الغربي للهند خلال اربعين يوماً وقيل اكثر من ذلك ، بمساعدة تلك الرياح ، وفي اول الامر لم ينتفع احد بهذه المعرفة الجديدة الا في قطع المياه الشمالية من البحر العربي بين ساحل مهرة ودلتا السند مباشرة ولكن ربابنة السفن اخذوا يزدادون جرأة واقداماً حتى رأيناهم يقصدون من الطرف الجنوبي للبحر الاحمر الى ساحل المليبار ، ولا يرد ذكر هذه الاحداث في اي مرجع متقدم على ما كتبه (بريبلوس) و (پليني)، وكان الرأي السائد ان هبالوس وفق الى اكتشافه في عهد كلاوديوس (٤١ ـ ٥٤) ولكن مال الباحثون اخيراً الى نسبته الى العصر البطلمي المتأخر ، ومن الممكن ان هبالوس كان الملاح الذي صحب يودوكسوس واذا كان كذلك فلا بد انه سبقت يودكسوس فترة كان اليونان يقومون فيها برحلات ساحلية الى الهند فان (بريبلوس) يوحي بأن هبالوس لم يكن اول من ابحر اليها وقد يكون يودوكسوس اول يوناني قام برحلة ساحلية من هذا القبيل ، ثم جاء هبالوس فيما بعد . ومهما يكن من

شيء فانه لا يكاد يمكن نسبة اكتشافه الى ما بعد (٩٠ ق.م) فان الزمن لا يتسع للمراحل اللاحقة التي تطور خلالها الطريق الذي يذكره (بليني) الا اذا كان الاكتشاف قبل ذلك التاريخ .

ومن الجلي ان العرب واليونان معاً كانوا يستطيعون القيام بهذه الرحلات في جميع الفصول مستعينين في فصل الشتاء بالرياح الموسمية الشمالية الشرقية التي تتيح اطيب الظروف الممكنة للملاحة غرباً ، فما اكتشفه (هبالوس) هو كما يقول (بريبلوس) في جلاء ووضوح ، كيفية الافادة من الرياح الموسمية في رحلة الذهاب الى الهند هذا الى ان الرياح الموسمية الجنوبية الغربية التي تهب في الصيف هي ولا ريب الرياح التي ينتفع بها في هذا السبيل .

اما كيف كانوا يذهبون الى الهند ؟ فهناك طريقان فاما ان العرب كانوا يقطعون الرحلة كلها محتذين سواحل بلاد العرب وايران ، وقد فعل اليونان ذلك قبل هبالوس ويحتمل كثيراً انهم كانوا في هذا ينسجون على منوال العرب . واما ان العرب كانوا يفيدون من الرياح الموسمية الشمالية الشرقية ومن المحتمل ان العرب كانوا يسلكون الطريقين معاً .

وبينما كانت السفن اليونانية تبنى بناءاً قوياً بالمسامير ، كانت سفن العرب تشد الواحها بألياف جوز الهند ، فكانت

لا تصلح الا للجو المعتدل ، وتتصدع في البحار الصاخبة فلا يحتمل غالباً انها سارت مرة مع الرياح الموسمية الجنوبية الغربية[1] .

وقد اصبحت مدينة الاسكندرية منذ القرن الاول للميلاد ، مدينة عالمية ثانية بعد فينيس Venice ، وازداد تردد القوافل التجارية بين الاسكندرية وجنوب الهند من ميناء مليبار وكانت الفلافل الهندية وتوابلهاوالعاج والاحجار الثمينة وغيرها من البضائع تحمل الى الاسكندرية ، وكانت موزيرس Muziris في كرانغانور Cranganore في ساحل مليبار اهم ميناء حيث كانت ترسوا فيه السفن العالمية باعداد ضخمة جداً ، وبسبب توفير الاسباب وتيسير السبل والسيطرة على الرياح الموسمية فكانت التجارة مزدهرة بين المليبار والدول الاخرى في ذلك الحين ، وتشير وثائق الهند الجنوبية المكتوبة بلغة التاميل Tamil المسجلة في ذلك العصر ان الرومان قد انشأوا مستعمرات عديدة لهم في انحاء سواحل الهند الغربية الممتدة من مليبار الى كراتشي (Karachi) وقد وجدت مستعمرات رومانية كثيرة في ميناء

(١) ولكن لم يكد يمضي عام ١٥٠٠ م حتى كانت سفن المليبار تبنى بكثير من مسامير الحديد كما يقول الرحالة الاوروبيون وقد يكون هذا راجعاً الى محاولة مستميتة لتقليد البرتغاليين ، الاعداء الجدد او رغبة الى احتذاء السفن الصينية التي كانت تزور كاليكوت منذ زمن طويل .

كرانغلور في مليبار ومدورا في مدراس وبوكار على نهر الكاويري في مدراس ايضاً ، ويعتقد ان هذه المستعمرات كانت شبيهة بالمستعمرات التي انشأها البرتغاليون في القرن الثامن عشر الميلادي لنفس الاسباب على طول الساحل الغربي الممتد من مليبار الى سورت .

ويستدل من بعض الوثائق التاريخية على وصول تجار الروم الى المليبار في القرن الرابع قبل الميلاد فلما اغار الجنود الجالون على الروم سنة (٣٩٠ ق.م) استولوا على اشياء ثمينة وبضائع قيمة ، ومن ضمنها الفلفل وكان يعتبر الفلفل والحديد من اهم البضائع المستوردة عند الروم .

ونجحت تجارتهم نجاحاً باهراً بفضل التبادل التجاري مع البلاد الشرقية وفي عهد استيلاء الملك اوغسطين على مصر وقع البحر الاحمر تحت امرة البحرية الرومانية ، فبدأت هذه البحرية ترسل قواتها الاستطلاعية الى شتى بقاع العالم .

وبنى الرومان سفينة كبيرة للتجارة مع بلاد المليبار وسموها باسم (هبالوموسري) تخليداً لذكرى بطل القوات البحرية (الرومية هبالوس) ، وبني معبد كبير في عاصمة المليبار تذكاراً للفاتح (اوغسطس) ، ويعرف باسم معبد موزيريس ، وكتب اسطرابون يقول ان ما لا يقل عن ١٢٠ سفينة كانت تبحر في العام الواحد من ميوس هورموس Myus Hormus الى الهند ، وقد وجدت في الهند كثير من

النقود الرومانية فقد عثر بعضهم في نيلور وكـو يمبتور وسيلم ومدورا ومليبار وغيرها من البلاد عند مدراس على نقود فضة ونحاس وذهب عليها صور ملوك رومانيين من اوغسطس الى هدريان . ففي ايار سنة ١٨٤٢ م وجد اناء بقرب مدينة كـويمبتور فيه ٥٢٢ قطعة من الفضة ، ١٣٥ منها تخص اوغسطس و ٣٧٨ تخص طيباريوس ، وذكر المؤرخ پليني المولود سنة ٢٣ م ان ملك سيلان في القرن الاول بعث وفداً الى طيباريوس قيصر ، كما اننا نرى في هذا القرن نفسه فرقة من الجيش الروماني تقطن في مدينة كودنكلور لمساعدة التجار من اليونانيين والرومان وكانت بضائعهم تنقل على النيل من الاسكندرية الى قفط ومنها براً الى ميوس هورموس او بيرينيكي ، وكان يركب من هذين الميناءين في سفن كبيرة فاذا كانت بلاد العرب الجنوبية مقصدها سارت الى موزا Muza وهي سوق للبان وغيره من العطور السبئية ، ولكن السفن الذاهبة الى الهند لم تكن ترسو فيها ، وانما كانت تتزود بالماء في اوكيليس اوكاني ـ على مسيرة ثلاثين يوماً في البحر من بيرينيكي فاذا كانت قاصدة الى ساحل المليبار ـ موزيرس (ميزور Mysore) او غيرها سارت عبر المحيط مباشرة ، ويقدّر (پليني) اربعين يوماً للرحلة من اوكيليس الى موزيريس ، ويقول ان السفن كانت تحمل معها رماة للسهام لدفع عادية القراصنة ، ولكن اذا كانت الغاية بريجازا (بروتش) او اي ميناء في الشمال الغربي من الهند ،

سارت السفن على طول الساحل حتى رأس سياجروس Capesyagrus قبل ان تأخذ في عبور المحيط ، وكان ثمة طريق آخر هو السير في محاذاة الساحل الافريقي حتى رأس التوابل ، وربما الوقوف ايضاً عند سوقطرة قبل بدء الرحلة الى الهند ، وكانت تشحن في شمال الهند سلع الحرير والقطن وغيرها من الاقمشة الرقيقة ، وفي الجنوب الجواهر والفلفل ، وكانت سيلان معروفة وان لم تعقد معها صلات منتظمة بعد .

وكان الرومان يتولون زمام التجارة في مليبار الى سنة (٢٣٠ م) حيث انهارت زعامتهم في التجارة العالمية بسقوط مدينة الاسكندرية .

ديانات المليبار :

الهندوكية Hindusm

يعتبر الدين الهندوكي ، من اقدم الاديان العالمية ، ويعود تاريخ ظهوره الى الفي سنة قبل الميلاد والآريون هم الذين وضعوا اسس الديانة الهندوكية ، بعد ان دخلوا الى الهند وفتحوها حوالي سنة (١٥٠٠ ق.م) ، وقبل الفتح الآري كانت هناك ايضاً الكثير من حضارات الهند العريقة ، منهاحضارة (مو هنجو ـ دارو) وكانت ذات تطور من حيث التنظيم ، والشوارع والعمارات ، وعثر ضمن بقاياها على ادوات مختلفة ، وزخارف ، واوان ، وملابس ، ومعادن ، ونقوش .

وكان الدرافيديون Dravidiens اصحاب حضارة عريقة ، وقد قاموا على انقاض الحضارة السابقة ، وحافظوا على معظم الآلهة التي كان الناس في (موهنجو - دارو) يؤمنون بها ولا سيما الآله شيفا Shiva واضافوا اليها المؤلهة كالي وهي الاهة سوداء ، طويلة الشعر ، حمراء العينين ، ذات اربع ايدٍ تحمل السيف بواحدة وبالثانية رأس العفاريت ، وهي بالثالثة والرابعة تشجع المؤمنين ، وفي عنقها قلادة من الجماجم الى غير ذلك .

ولما استولى الاريون[1] على الهند كان لا بد للدارفيديين ان يتراجعوا ويفرّوا منهم الى الجنوب ، وبعد ان استتب الامر للآريين وضعوا تشريعاً لملكهم فكتبوا اول كتبهم الدينية الذي يعرف باسم (ركويد) اي العالم الاقدس وقد كتب على مراحل ويضم بين دفتيه مجموعة شعرية تضم مئة الف بيت فيها قصص وتشريع لكل ما كانوا بحاجة اليه في ذاك الزمن ، وكان هذا التشريع يحتوي على اسماء الكثير من الآلهة منهم من يهب الخير ومنهم من يدفع الضر ومنهم من هو شر كله ، وجاءت فيه اسماء بعض آلهة الركويد كأسماء

---

(١)في السنسكريتية آريا معناها شريف ، مع ملاحظة حرف سِ في اللغة السنسكريتية يقابل حرف الهاء في الفارسية كما اصبحت (السندو) الى (هندو) عند الفارسيين ، ويقال ان لفظ آري مشتق من اصل سنسكريتي معناه يحرث وبالتالي فانها تعني فلّاح !

بعض آلهة الفرس مما يدل على تأثير دين الفرس في الهندوكية ، وكان الفرس قد احتلوا قسماً من الهند ايام كوروش (٥٥٠ ـ ٥٢٨) .

ثم جاء بعده داريوش فثبت ثم وسَّع المساحة المحتلة ، ومن الثابت ان الفرس اثروا في الحضارة الهندية بعيداً ، وبدرجة اعمق مما كان للتأثيرات اليونانية ـ وقد دخل الاسكندر المقدوني الهند بجيشه في ربيع ٣٢٦ ـ .

وبعد فترة من الزمن كتبت الاسفار المقدسة لدى الهنادكة وهي المسماة (الفيدا) اي الحكمة ، او المعرفة ، وهذه الاسفار بمثابة سجل فكري ، وتاريخي ، وحضاري ، للآريين في الهند ، واسفار الفيدا اربعة هي ١ ـ الرغ ـ فيدا وتحتوي على اناشيد مدحية مرفوعة للآلهة التي جلبها الآريون معهم ، ويحتوي كذلك على قواعد الطقوس الدينية وبعض تقاليد السكان الاصليين .

٢ ـ ياچور ـ فيدا ـ وهي اصغرها وتضم مجموعة من الادعية ، والتلاوات الصلاتية والصيغ الخاصة بالقرابين .

٣ ـ اتاراڤا ـ فيدا ـ فيها حوالي ٨٠٠ ترنيمة يختلط السحر فيها بالحكم والمناقبيات ، مع مجموعة من التعاويذ والطلاسم والتمائم .

٤ ـ ساما ـ فيدا ـ وتتألف من ٥٨٥ فقرة وهي صلوات

شعرية تغنى وترانيم دينية .

ومن الكتب المقدسة الاخرى ، كتاب (منوسمرتي) الذي كتب ـ على الغالب ـ في نحو المئة السادسة قبل الميلاد وان كاتبه او واضعه هو الاله برهما ، وانه علمه الاله (منو) وهذا بدوره علمه الحبر (بهركو) ، ولا يزال هذا الكتاب مرجعاً للقانون العام المعمول به في الهند ، واثبت العالم الفرنسي لويس جاكويو في كتابه توراة الهند (ص ٢٢ ـ ٢٧) بمقارنة نصوص متماثلة ان قانون جوستنيان الروماني نسج على منوال قوانين (مانو) .

وجاء في تشريع (منو سمرتي) تحديد الطوائف في الحياة الهندوسية الاجتماعية هكذا :

١ ـ طائفة البراهمة Brahman وهم الكهان ورجال الدين .

٢ ـ طائفة الاكشترية Kashadri وهي الطائفة المحاربة .

٣ ـ طائفة الفيشيه Weish وهي طائفة الزراع والتجار التي توفر مسائل العيش للكهان والمحاربين .

٤ ـ طائفة الشودرا Shoudre وهي اسفل الطبقات وليس لها مهنة خاصة ولم يعترف لها بعمل الا خدمة

الطوائف السابقة في احسن حاجاتها وتعرف بطائفـة المنبوذين ايضاً .

ويعتقد الهنادكـة بالـوحدة في التثليث فهم يعتقدون بأن (برماتما) هو رب الارباب وله ثلاثة اعوان يديرون ملكوتـه وهم : بـرهمـا ، وشنـو ، ومهيش ولكـل واحـد منهم عمـل خـاص ، بيد ان هـذا الثالـوث لا يحدُّ من عـدد الآلهـة بـل عندهم آلهة غـير هؤلاء كثيرة هي دون هؤلاء الثـلاثة مـرتبة بالاضافة الى كثرة ما عندهم آلهة غير هؤلاء كثيـرة هي دون هؤلاء الثلاثة مرتبة بالاضافـة الى كثرة مـا عندهم من ارواح خبيثة ضارة ، وتقديسهـم البقر وكثيراً من الحيوانات كالقـردة والـطواويس والببغـاوات والحيـات . . وغيـرهـا ، وهم لا يعبدون الحيوانات بل يرمزون الى بعض آلهتهم .

ويصعب وضع تعريف شامل للديانة الهندوكية ، وهناك تعريف سلبي قيـل في مطلع هذا القرن ، ربما يكون الاقرب الى الـواقع ، وهـو ان كل من يسكن الهنـد وليس من اهـل الاديـان الاربعة : الاسـلام والمسيحية واليهـوديـة والبـوذيـة ويخدم البقر فهو هندوكي ، وذلـك لأن بعض الفرق تخـالف بعضها الآخر في اعتقادات رئيسية ثم انها لا تخرج عن محيط الهندوكية وقد ينضم الى الهندوكية من الطوائف ما هو قـريب منها من غير ان يكون هندوكياً .

الجينية او الجينز Jainism :

انشأ هذه العقيدة او الديانة فر دهمانا (Vardhamana) وهو من بلدة فيسالا ، آري من طبقة القواد والعساكر ، ومن أب كان رئيساً في قومه فيما بين ٥٤٠ ـ ٤٦٨ ق . م تقريباً ، نال لقب جائينا او جينا (اي الظافر) ، كما لقب ايضا بـ : مهافيرا (Mahaavira) اي (البطل الكبير) ، وقد ولد فردهمانا في عام ٥٩٩ ق.م في شمال الهند وهي نفس المنطقة التي ولد بها (بوذا) قبل جيل من فردهمانا ، والحقيقة ان اوجه الشبه في حياة الرجلين مدهشة حقاً ، اذ كان فردهمانا الابن الاصغر لاحد الزعماء وقد ربي في احضان الترف والسعادة مثل (بوذا) وقد هجر حياة الترف والثروة وهو في الثلاثين وهجر عائلته (زوجته وابنه) وقرر ان يفتش عن الحق والصدق وتحقيقهما .

اصبح فرد همانا راهباً في اخوية دينية صغيرة وتدعى بارسفاناثا وقد ظل مدة اثني عشر عاماً مشغولاً بالتفكير العميق والتأمل وهو يخضع نفسه للزهد والتقشف وكان كثير الصيام ولم يحتفظ لنفسه بأية املاك من أي نوع حتى ولو كوباً صغيراً لشرب الماء او لجمع الصدقات ، ومع انه احتفظ برداء واحد كان يلبسه دوماً ولكن بعد مدة نبذ هذا الرداء وصار يمشي عارياً تماماً وكان يسمح للحشرات ان تدب على جسمه وجلده العاري دون ان يزيلها حتى ولو

عضته وذلك امعاناً في تعذيب جسده حتى تسمو روحه .

وعندما اصبح في الثانية والاربعين قرر انه وصل الى غاية التنور الروحاني ، فبدأ يبشر بتعاليمه وبنفاذ البصيرة التي قد نالها وعندما توفي في عام ٥٢٧ ق . م كان قد اصبح له عدة تلاميذ وانصار[١] .

ويختص الجينيون بنظريات في الفيزياء ، وعلم النفس ، وعلم الفلك ، والمنطق ، كما ان لهم اساطيرهم الغزيرة الخاصة بهم ، وشعائرهم ، وعلى الاخص عقيدة في الاخلاق تقوم على صرامة عنيفة وتشدد بالغ ، وكثيرة هي النظريات الجينوية ، ومن اشهر كتبها نذكر تلك التي وضعها كُنْدَ كُنْدا (Kunda Kunda) ثم تلك التي وضعها اما سفاتي (Umasvati) في حوالي القرن الاول الميلادي .

تقول هذه العقيدة انه كان لـ : ما هافيرا اربع وعشرون سلفاً من العابرين (ترتهانكارا Tirihankara) اي الذين عبروا ممرات التناسخ او اجتازوا محيط التقمص وهجرة النفوس وانتقالاتها ، بذلك تبدو الجينية رفضاً

(١) كان ماهافيرا قد كون حوله رهباناً عزّاباً وراهبات عانسات وترك وراءه اربعة عشر الفاً من اشياع مذهبه ، وبمرور الزمن انقسمت الجينية سنة ٧٩ م الى قسمين رئيسيين ١ ـ شويتامبارا وتضم ٨٤ فرعاً . ٢ ـ ديجامبارا وتضم اربعة فروع .

للتناسخ وما ينتج عنه من التفرقة الطبقية او بين الاعراق المتعددة داخل الهند[1] .

وتتميز الجينية بعقيدة اللاعنف (أهمسا ahimsa) واحترام كل حي ، وهو المبدأ الذي تبناه الزعيم غاندي ـ الذي ينتمي الى هذه الطائفة ايضاً ـ واستطاع ان يحقق من خلاله اماني الامة الهندية ، ويشمل هذا المبدأ عدم استعمال العنف مع الحيوانات فضلاً عن الانسان ، وكنتيجة لهذا المعتقد فاننا نجد (الجينيين) نباتيين لا يأكلون لحم الحيوانات ، واما المتعصبون منهم فلا يقتلون ذبابة ولا يأكلون في الظلام لانه من المحتمل ان يبتلع حشرة وهو لا يراها ، ويسبب بذلك موتها وكان الجينيون المتطرفون

(١) قالوا ان الحقيقة المطلقة لا تتسنى للناس العاديين بل للبشر الغير العاديين المخلصين الذين يظهرون في فترات منتظمة وان بقية البشر مثل العميان الستة الذين وضعوا ايديهم على اجزاء مختلفة من الفيل فمن وضع يده على اذنه ظنه مروحة ضخمة لذرّ الغلال ، ومن وضع يده على ساقه قال ان الفيل عمود مستدير كبير ، وهكذا فالاحكام كلها اذن محدودة بحدود ومشروطة بشروط ، واما الحقيقة المطلقة فلا تتكشف الا للبشر المخلصين ولم يعتقدوا بوجود اله وان الكون كان موجوداً منذ الازل وان تغيراته واطواره التي لا نهاية لها ترجع الى قوى كامنة في الطبيعة .

واما الاصنام عندهم فانها ظهرت فيها بعد لتناسب العقلية او الحياة الهندية وهي تمثل قديسهم المخلصين .

يستأجرون اشخاصاً لكنس الشارع امامهم كيلا يظل هنالك بعض الحشرات التي من المحتمل ان يدوسوها عن غير قصد ، ولم يشتغل الجينيون بالزراعة لأن العمل اليدوي كان ممنوعاً حسب ديانتهم ومع ان بلادهم زراعية الا انهم عزفوا عنها واشتغلوا بالتجارة والاعمال الحكومية ، وحظرت الجينية تقديم الاضاحي بذبائح ، وحاربت الطبقاتية وساوت المرأة والرجل ، يبلغ اتباعها اكثر من مليونين ونصف المليون (٢,٦٠٤,٦٤٦ نسمة ـ حسب احصائية سنة ١٩٧١) ولا يوجد لها اتباع خارج الهند ، فكل اتباعها في الهند وخاصة في ولايات (مهاراشترا Maharashtra وراجهستان Rajasthan وكجرات Gujarat) . وفي كيرالا منهم نسبة قليلة بالنسبة الى الهندوس والمسلمين ، ولهم فيها معابدهم ومؤسساتهم الخاصة .

البوذية Buddhists

بوذا Buddha (٨٤٣ ق.م ـ ٥٦٣ ق.م) هو مؤسس الديانة البوذية وهي احدى الديانات العالمية ، و(بودا) هو لقب له ومعناه (العارف المستنير) او (الحكيم) واسمه الحقيقي Gawtama كوتاما او Siddhartha سدهارتا ، وهو ابن ملك كان يحكم مدينة في شمال الهند قرب حدود (النيبال) ، وقد تزوج من ابنة عم له وهو في السادسة عشرة وتربى الامير في قصر كله رفاهية ولكنه لم يكن راضياً

عن وضعه المترف لانه لاحظ ان معظم البشر كانوا من الفقراء الذين يقاسون مرارة العيش والفاقة ، ولاحظ ان السعادة لم تكن من نصيب الاغنياء ايضاً اذ كان الفشل يحوطهم وان المرض يصيب الانسان ومن ثم لا بد لنا من الاستسلام صاغرين للموت ، وفكّر بانه يجب ان يكون هنالك في الحياة شيء آخر غير الملذات الزائلة التي كانت سرعان ما يمحوها الالم والموت .

ولما بلغ التاسعة والعشرين وعند ولادة ابنه الاول قرر ان ينبذ الحياة التي يعيشها ويكرس نفسه بكل جوارحه للبحث عن الحقيقة فرحل عن قصره تاركاً كل شيء من حطام الدنيا ، وانقطع للدراسة عند بعض الرجال الصالحين في المدينة ولكنه وجد بعد حين ان تعاليمهم وحلولهم لمشاكل الاوضاع الانسانية كانت حلولاً غير مرضية ، وقد كان الاعتقاد السائد في عصره ان الزهد والتقشف هما الطريق الوحيد للحكمة الحقّة ، ولذلك حاول ان يصبح زاهداً واشغل نفسه لعدة سنوات في الصيام القاسي واماتة الجسم بكبح الشهوات او بالتعذيب الذاتي ، ولكنه ادرك بالتالي ان تعذيب الجسم ما هو الا قتل واضعاف للعقل دون ان يقرّبه ولو حثيثا الى الحقيقة والحكمة ولذلك عاود الاكل الطبيعي ونبذ الزهد والتقشف .

وبينما كان في وحدته يحاول النفوذ الى الوجود

الانساني ، وهو جالس تحت شجرة تين فارعة فاذا ببصيرته تنفذ الى اعماق اللغز المحير وقد قضى الليل بطوله في تأمل عميق وعندما بزغ الفجر عرف انه قد وجد الحل وانه قد اصبح الرجل المستنير ، الحكيم بين قومه، وكان معاصروه على استعداد لقبوله اذ عرفوه من خلال تعاليمه الروحية ، ومن زهده في الجاه ، واصراره على كلمة الحق ، ومن السيرة المستقيمة التي تميز بها طوال اعوام دعوته ، وشاهدوا في النور الذي اشرق على سلوكه واخلاقياته حقيقة ما بشرت به اسفار الفيدا المقدسة التي بشرت من قبل بحكيم يجدد ما طمسه الزمن من معالم الدين البرهمي ، وينقي ما علق به بتوالي الاجيال .

وتتلخص تعاليم (بودا) بما يدعوه (البوديون) - الحقائق النبيلة الأربع - وهي اولاً : ان الحياة الانسانية خالية من السعادة فعلاً . ثانياً : وان السبب لعدم السعادة هو الانانية الانسانية والشهوات . ثالثا : ان هذه الانانية والشهوات يمكن ان تبطل عندما تتخلص من الشهوات وكبح جماحها بالوصول الى حالة (النرفانا) وتعني السيطرة على النفس والبحث عن الحقيقة والنشاط والهدوء والغبطة والتركيز وعلو النفس وانها حالة من السعادة يبلغها الانسان في هذه الدنيا باقتلاعه عن كل الشهوات الجسدية اقتلاعاً تاماً ، وتحرير الفرد من عودته الى الحياة (الانعدام

الخلقي ـ انعدام شعور الفرد بفرديته) ورابعا : ان طريق الخلاص هو ما يدعى بـ (الطريق ذو الثماني شعب) وهذه الثماني شعب هي : النظر الصحيح ، التفكير الصحيح ، الكلام الصحيح ، العمل الصحيح ، المعيشة الصحيحة ، الجهد الصحيح ، الوعي الصحيح ، التأمل الصحيح) .

وهناك ايضا القواعد الخلقية او الوصايا الخمس التي بشر بها (بودا) وهي :

١ ـ لا يقتلن احد كائناً حياً .

٢ ـ لا يأخذن احد ما لم يعطه .

٣ ـ لا يقول احد كذباً .

٤ ـ لا يشربن احد مسكراً .

٥ ـ لا يقمن احد على دنس .

ومن المبادىء البوذية ايضا (الحقائق المستقيمة) وهي :

١ ـ الايمان بالقلب ، والمحافظة على الاسس الروحية .

٢ ـ النظر الذي يبدد الاوهام والشكوك .

٣ ـ السعي لغايات نبيلة .

٤ ـ طلب العيش من طريق شريف .

٥ ـ حفظ اعمال الناس الجيدة وتناسي اخطائهم .

٦ ـ مزج الحياة بالحياء والعفة .

و(الصفات الست) وهي : الصدق ، وطهارة النفس ، والعلم اللامحدود ، والقوة ، والصبر، ومحبة الجميع .

وهكذا فشريعة بودا تأمل ، واعتبار ، وتربية ضمير ، وصولة على الانانية والذات بسلاح الوجدان والاحاسيس النبيلة الخيرة ، انها تبقى ـ رغم بعض سلبياتها ـ ارتفاع بالانسان وعمل على رفعه صوب الغير لا الانقفال المجرد للذات على الذات .

وقد انتشرت الديانة البوذية في الهند وما حولها بفضل الامبراطور (اشوكا) امبراطور الهند الشمالية في القرن الثالث قبل الميلاد بعد ان خاض حروباً قاسية رأى فيها من العنف والفظاظة ما جعل نفسه تتوق الى حياة الرحمة والمحبة ، فوجد في دعوة (بوذا) ما يشقي نفسه من سقمها ، فاعتنقها ودعا اليها في حماس واخذ يشكل حياته على اساس مبادئها ويرسل رسله الى الممالك المختلفة يبشرون بها ، وكان عمله واندفاعه نحو تحقيق مبادىء الحب والعطف والتسامح في رعيته ، بل وفي الحيوانات ايضاً لافتاً لنظر الكثيرين ، وداعياً عملياً للبوذية ، حتى انتشرت واكتسحت في طريقها الديانة الهندوسية القديمة وظل الامر

بها كذلك عدة قرون حتى اخذت تضعف شيئاً فشيئاً ، بينما كانت الهندوسية تسترد مكانتها الضائعة ، حتى انحسرت البوذية عن موطنها الاصلي في الهند ، واسترجعت الهندوسية سيطرتها على الشعب ولم يعد للبوذية في موطنها الا قليل من الاتباع ـ حسب احصائية ١٩٧١ في الهند من البوذيين قريب من اربعة ملايين (٣,٨١٢,٢١٥ نسمة) . اكثرهم في ولاية اورنچل براديش (Arunachal Pradesh) وازدهرت البوذية خارج الهند بشكل كبير جداً يجعلها من اكبر الديانات العالمية بالنسبة الى عدد معتنقيها ومن تلك البلاد سريلانكا وبورما والنيبال والهند الصينية واليابان وغيرها من البلدان .

وتاريخ البوذية في المليبار يعود الى ايام الامبراطور (اشوكا) ، ويظهر من الوثائق التاريخية من ايام حكم ملوك (چولا) ان الدين البوذي كان قد انتشر انتشاراً واسعاً في سواحل الهند الغربية ، ويقول المؤرخ (ك . أ . ن . شاستري K. A. N. Shastri ان مدينة (ناكپتانم) شرقاً ، ومدينة (سري مولولاسم) غرباً مركزاً للثقافة البوذية في عهود ملوك (چولا) في جنوب الهند ، وكانت الاصول البوذية متأصلة في قلوب الناس ، ويدل على ذلك ايضاً ما عثر عليه من التماثيل والمنحوتات الاثرية البوذية في نواحي المليبار مثل (كوتلاويدي) و (بالي پاليم) و (ناكپتانم) ،

ونظراً لأهمية الموانيء المليبارية واتصالها بالجزر الشرقية وجنوب شرقي آسيا فكانت المليبار - في هذا - حلقة الوصل - لانتشار البوذية الى تلك الانحاء فقد وجد المبشرون البوذيون فرصة مؤاتية للتبشير بدينهم هناك .

وهناك اساطير وحكايات عديدة عن انتشار البوذية في المليبار ، ومن ذلك : ان سيدة جميلة تعرف بـ (مالي) اعتنقت البوذية ، فقابلت يوماً ناسكاً بوذياً حسن الصورة ، فولد ولد ذكي ، وفي نفس اليوم ولد طفل آخر في العائلة الملكية المشهورة بـ (كولاتري) واستطاعت (مالي) بدهائها ان تحصل على ذلك الطفل الامير وتتولى تربيته ، وتمكنت في الوقت نفسه من ابقاء طفلها من (الناسك البوذي) عند العائلة الملكية ، فبدأ هذا بالدعوة الى الدين البوذي وقام بتبشيره للبوذية في انحاء البلاد !

ويزعم بعض الباحثين ان عائلة (پيرمال) اعتنقت الدين البوذي ، وفي مقدمة من اعتنقه من من رجالها (بالي بانا پيرمال) الذي عرف في بعض الروايات باسم (ولا ربان الاول) ، كان عهده في ٦٥٧ م بينما ابتدأ حكم عائلته منذ عام ٤٤٤ م . انتقل هذا الشخص من مدينة تروانجي كولم الى نلنبور في ايام فتوحات البراهمة وسيطرتهم على المليبار واقام بصفة مؤقتة على مرتفعات (اونترت) قرب (وينباناد) وابدى نشاطاً كبيراً من اجل الدعوة البوذية

واسس عشرات المعابد والمدارس والمستشفيات ، وقد تآمر عليه فيما بعد البراهمة وقطعوا لسانه ونفوه من البلاد .

واثر الملك (پالي) ما يزال الى الآن اذ تعرف المساجد الاسلامية والكنائس النصرانية باسم (پالي) ويعلل ذلك بانها شيدت على انقاض المعابد البوذية التي تهدمت من قبل البراهمة وكانت تلك المعابد تعرف باسم (بيت پالي بانا) .

واختلف المؤرخون في تعيين القبيلة الاولى التي اعتنقت (البوذية) ، ويقول البعض ان اول من اعتنقها هو الحاكم ايشانان الاول ، وعند الآخر هي قبيلة (الانكوودي) ، ويقول آخر ، انها قبيلة (اتشكهاياباترم) في مدينة مهود پيرم .

والآثار البوذية في (كيرالا) اليوم كثيرة ومن ذلك كهوف جبل مرتوا ونقوش معبد چترال في مدينة نيمت ، وتحتوي معابد الهنادكة ايضاً على عدة اصنام للبوذية او الجينية ومن ذلك تماثيل لبوذا تمثل شتى مراحل حياته ، فهناك تماثيل لبوذا الامير ، ولبوذا المتعبد في الغابات ، ولبوذا المستنير ، ويدعو الناس هذه التماثيل باسماء مختلفة مثل (وشنو) و (شاستاو) (مندن) ويتعبدونها بطرق مختلفة ، كما توجد شجرة (آل) التي تدل على بدء الالهام لبوذا امام المعابد الهندوسية المليبارية .

ومن تلك الآثار ، التماثيل المنحوتة في صخرة كبيرة في بلدة ايرملا المليبارية ، وفي معبد (تريكود ي) بمدينة ترولا التي كانت تابعة لامارة ترافنكور ، والتماثيل الموجودة على ساحل (چيروا) قرب المسجد المعروف بـ (صاحب پالي) وفي معبد (كلرور) في منطقة كوتايام . وفي التماثيل الموجودة على جبل (ديوكري) بـ (ترافنكور) وفي شبارى ملا ، وكولا تپوژا ، ومانيازاترا ، واتشان كوول ، وما ويلي كر ، وكورتي ، وانجي يزا ، وكورجي ، وكدمالور ، وجيرتلا ، ويلورتي وغيرها . وممن اشتهر في فن النحت وفن البناء والعمارة ، عائلة (ليجها) التي قدمت من (النيبال) وعائلة (آسارا) في (كاندي كوت) واليهما تنسب الكثير من الاعمال الفنية البوذية في (كيرالا) .

وكان البوذيون قد اسسوا بجانب معابدهم المستشفيات التي كانت تجري العلاج المجاني لجميع الناس وكانت هذه المستشفيات تعرف باسم (شالا) ، كما اسسوا المدارس للطلبة مع توفير امكنة لاقامتهم ومعيشتهم ، وكان ينفق على هذه المؤسسات من اوقاف الامراء والاغنياء ، وفي المليبار الآن معابد مثل معبد (كروايور) و (آدتي پرم) و (تروتغادي) و (تكازي) ويمارس رهبانه العلاج الطبي المجاني .

وقد انهارت الديانة البوذية على يد البراهمة الذين

خططوا ونفذوا خـططهم تلك لأجل القضـاء عليهم ، وبثوا في نفوس اتباعها الفرقـة والشقاق ، كـما اظهروا الـدعايـات المنـاهضة للبـوذية ، ولا تـزال بعض الاشعـار التي تنـاهض البـوذية ، تتـلى في بعض المعابـد الهندوسيـة كما في احتـفـال (بهرني) الذي يجري امام معبـد كدنغلور، واحتـفـال (پورم) بمدينة چيرتالا ، ونتيجة لذلك تغيرت تعـاليم بوذا في البقيـة من اتباعه حتى دخلت فيهم العقائد الهندوسية الوثنية ، وبدأ القـوم يؤلهون (بـوذا) بعـد ان كـان (بـوذا) نفسـه يقـاوم الوثنية وينكر عبادة الاشخـاص ، وانتشرت بينهم الخـرافات والخزعبلات حتى عادوا لا يختلفون عن الهنادكة الا في بعض المظاهر والعادات .

اشرم الهندو ـ اوربيين

قبـل أن نأتي عـلى نهاية هـذا الفصل ، رأينـا ان نثبت بعض ما وقع لنا في بلاد المليبار من غرائب المعتقدات ، فقد كنت في احد الايام في زيارة لاحد الامكنة السياحيـة وكانت تعرف بالجبال السبعة ، وتُعرف عند الاهالي ـ باللغة المليالمية (EZHIMALA) وهي حقـاً جبـال سبعـة جميلة جـداً ، وعلى واحد منهـا قلعة ضخمـة بنـاهـا السلطان تيبـو ، زعيم (ميسور) وبطلها المقدام . ويروى الاهالي اسطورة عن هذه الجبال ، يقولون : ان احد الآلهة كان يحمل جبلاً ضخـماً في يده وعندمـا طار الى السـماء سقطت من يـده قطع من ذلـك

الجبل فكانت هذه الجبال السبعة منها .

ولما اقتربنا من السهل على مسافة يسيرة من (تريكابور) وهي قرية ساحلية غنية باشجار النارجيل والموز - مررنا على موضع (ييجي ملا) وهو من اجمل المواضع السياحية على البحر العربي ، وهناك قصدنا (الاشرم) والاشرم بلغة الهنود يشابه وظيفة الدير لدى النصارى ، وحاولنا الدخول اليه ، فسحبنا الحبل المعلق بالباب بقوة عدة مرات وكان يدق على صفيحة حديدية بطريقة لطيفة ، وبعد دقائق جاءنا رجل من اهل الاشرم ، قسماته الأوروبية واضحة عليه ، وشعره الطويل المتدلي على كتفيه لا يخفي صفات (الهيبيز) ، إلا انه كان يرتدي الثوب الوردي اللون الخاص بكهنة الهندوس ، وابتدرناه بالسؤال عن رئيس الأشرم فغاب عنا مدة ، ثم جاء ، وفتح الباب واذن لنا بالدخول ، واجتزنا سلماً طبيعياً من الصخور في وسط الاحراش الى المرتفع الذي يقع عليه ذلك الاشرم ، وخلال الصعود لاحت منا التفاتة الى يافطة علقت بين الاشجار وقد كتب عليها باللغة المليبارية ما ترجمته (انسان واحد - دين واحد - اله واحد) ، ولما وصلنا كان رئيس الاشرم (الكرو الفريدي) في استقبالنا ، وهو من اصل بلجيكي قدم مع من قدم من الاوروبيين الى الهند ، وآمن بالهندوسية كطريق لخلاصه من الضياع الفكري والروحي الذي تعرض له في اوروبا .

لم يكن هـذا (الاشرم) الـوحيد للغـربيـين في الهنـد ، فهنـاك عشـرات من أمثـالـه ، ولكن تختلف في الـطرق والعادات والطقوس التي يمارسونها ، واعتقد ان هذا الاشرم افضل حالاً من غيره بطريقة حياة افراده ، فقد رأينا من قبل في (پـونـا Poona) بـولايـة (مهـاراشتـرا) المئـات من الاوروبيين يعيشون كالبهائم ، يعبـدون الجنس ، ويطلقـون له العنان ، ولا يعرفون غير ذلك ، وهم عراة حفاة يعتاشون على الصدقـات او ثمار الاشجـار التي تظللهم وعـلى اوراقها ان اقتضى الحـال ، وهنـاك المئـات مثلهم عنـد جبـال الهمـالايـا ، وربمـا أتعَس حـالاً منهم ، فلسفتهم في ذلـك الـرجـوع الى حيـاة البشـريـة الاولى ، بمـا يصـح ان يسمى عندهم (Free - live) فذلـك عندهـم افضـل من الحياة التي كـانوا يعيشـونها في امريكـا واوروبا وقـد عاشـوا هناك حيـاة التسكع والبطالة وملّوا من متاعب الحياة وهمومها الاقتصاديـة والاجتماعية .

وازدياد ضحايا الفساد الاخلاقي والروحي في الغرب ، واقبالهم على الهند ، شجّع احد كهنة الهندوس وهو (باكوان رجنيش) ويعتبر نفسه الآن إلاهاً معاصراً ، في الذهـاب الى امـريكـا واسس في ولايـة كـاليفـورنيـا معبـداً ضخماً مـع ملحقـاته، عـلى مسـاحـة من الأرض تبلغ آلاف الهكتـارات بفضل تبرعات اتباعه المخلصين !!

ونعود الى الكرو الفريدي ، لنحاوره ونستفسر منه ، والحق انه يتمتع بخلق وطبع لطيف لم يمل حتى من الاستفسارات الحرجة ، الا انه غالباً ما كان يتهرب عن الاجوبة الصحيحة ، والذي عرفناه عنه وعن جماعته انهم اتباع لمرتاضين هنود ، اولهم (ناريانا كرو Naryana Guro) والثاني (ناتارجا كرو Natraja Guro) وهو مؤسس هذا الاشرم ، وجميع من في الاشرم الآن من الاوروبيين ، وهناك جماعات مثلهم في امكنة اخرى ، كما ان هنالك اشرم خاص بالنساء وراء المرتفع الذي يقيمون فيه ، وهم يقدسون (شنكرا جاريا) ويعتبرونه الاهاً ، ويدرسون الدين والعقيدة التي جاء بها (شنكرا چاريا) على اساتذة هندوس ، وطفقت اسأل الكرو :

ـ انتم نبذتم المسيحية ، واعتنقتم الهندوكية اذن ؟

ـ كلا ـ اننا نعتقد ان شنكرا جاريا هو مخلصنا الحقيقي لأنه عن طريقه عرفنا الحقيقة !

ـ والمسيح الم يكن مخلصاً حقيقياً ؟

ـ نعم ، كان في زمانه ،. اما في زماننا فهو شنكرا جاريا !

ـ وتعبدون شنكرا جاريا ؟

ـ ابداً ، لسنا هنادكة ـ وبدا الحرج على وجهه ـ ولكنه

قال ان العلم وحده هو الطريق الى الكمال وبه نعتقد ، ليس عندنا دين معين ، فنحن ندرس جميع الديانات ولسنا اهل ديانة لكننا اصحاب طريقة في الحياة ! ولا نعادي الاديان ، قال لنا نارپاناكرو : اي دين يسعد الانسان باعتناقه هو دين محترم .

ـ ولكني ارى امامي ثمة معبداً هندوسياً ، واصناماً ، واشكال آلهة ، وورود، وبخور . . الخ .

ـ نعم اقمناه تخليداً لذكرى اساتذتنا ومن ارشدنا الى الحقيقة !

ـ وتصلون فيه ؟

ـ اجل ، ثلاث مرات في اليوم .

ـ وهذا التمثال الضخم ، لمن ؟

ـ لاستاذنا (نتراجا كرو) حصل على الدكتوراه من باريس في بحث قارن فيه بين الفلسفتين الشرقية والغربية ، واصبح رئيس الاشرم وتوفي سنة ١٩٧٣ .

ـ وعندما مات احرقتموه[١] ؟

(١) تقضي العادات الجنائزية في الهند بحرق اجسام ارباب العائلات ، اما السواميون والرهبان من الطوائف الاخرى فان اجسادهم تدفن ولا تحرق ـ باستثناء بعض الحالات ـ وتعتبر اجساد الرهبان انها تطهرت =

ـ بالطبع هنا في الاشرم .

ـ لم لا تعترفوا اذن بانكم هنادكة ، مع ان كل شيء واضح .

ـ (سكوت) .

وسألت (سوامي كي) وهو نائب الكرو الحالي ، واصله فرنسي :

ـ كيف تشعرون بالسعادة ، وانتم في معزل عن العالم ؟

ـ ان عين السعادة الانقطاع عن العالم ، ان العزلة طريق السعادة الحقيقية .

وماذا بشأن الزواج ؟

لسنا ضد الزواج ، الا اننا لا نتزوج ولا نمارس الجنس ولا نريد ايّ شيء في العالم يشغلنا عن دراستنا وتوصلنا الى الحقيقة .

ـ واليوكا ؟

نمارسها احيانا .

ـ وطعامكم نباتي بالتأكيد ؟

= مجازاً من نيران الحكمة حين قطع النذور النسكية .

ـ اجل ، الرز والنارجيل Cocunot والموز وبعض الثمار .

ـ والمورد المالي ؟

ـ نستفيد من بيع الحليب ، لدينا الآن عدة ابقار وموردها كافٍ لمعيشتنا .

ـ واوقات الفراغ بماذا تقضونها ؟

ـ بعد الدراسة اليومية ، او العبادة ، نتفرع للقيام باعمال كثيرة ، فمنا من يعتني بالابقار ، او الازهار ، او جلب الماء والامور التي نحتاجها في المعيشة ، ونحن نعيش حياة تعاونية ، وهناك ورشة فنية كاملة ، ومكتبة تضم امهات المراجع في الاديان ، والّا فنجلس للتأمل ، امام البحر العربي في منظره المهيب الرائع .

وقاطعنا احدهم بكؤوس من اللبن الزبادي ، بينما جلب الآخر مجلات كانوا قد اصدروها للتعريف بطريقتهم ! ثم صعدنا للطابق الثاني ورأينا المكتبة ، وصعدنا الى السطح ، حيث كان احدهم يضع (التمر الهندي) لتيبسه الشمس ، وكان آخر يغسل ملابسه .

وهناك استوقفنا البحر العربي بشموخه وهيبته ، لقد ملك البابنا باامواجه الهادرة ، ومنظره الخلّاب ، وبقينا

هنالك حتى كاد الظلام يخيم علينا ، فاستدعيت صديقي الكيرالي ، وودعنا ذلك الاشرم بمن فيه ، ولله في خلقه شؤون .

اليهودية :

اختلف المؤرخون في اصل الاقلية اليهودية في بلاد المليبار ، فمنهم من يقول انهم جاؤوا الى سواحل الملبار في عهد النبي سليمان (ع) واول بقعة وصلوها من المليبار هي مدينة كدنغلور عاصمة مملكة چيرمان پرمان ، وعند المؤرخين التونسيين ان يهود مليبار هم من نسل اليهود المطرودين من تونس في القرن الخامس ، بينما يقول المؤرخون الاسبان انهم من اولاد اليهود الذين اخذوا الى بابل في العراق ، اما يهود المليبار انفسهم فانهم يزعمون ان قدومهم الى المليبار قبل وقوع الغارات على اورشليم عام ٧٠ م وتحدث بذلك عدد من شعرائهم مثل ابراهيم بن إسرا ، والشاعر هلوي .

وكان جوزف ربان من اعظم زعمائهم في المليبار حتى ورد ذكره في الاغاني الشعبية اليهودية وفي ادعية اليهود الخاصة ، وكان لليهود مستعمرات خاصة في عدة امكنة مثل چينمنغلم وكدنغلور وكوشين وشري كنتاپرم .

وبدأ الضعف والوهن يتفشى في كيانهم هناك حينما بدأ

الخلاف بينهم على الوراثة ، وتبعه تدفق البرتغاليين الى المليبار فتقلص عند ذلك نفوذهم التجاري ، وفي الفترة الاخيرة تأثروا بالدعاوي الصهيونية فهاجر اكثرهم الى فلسطين بعد ان لازموا ارض الهند مئات السنين .

النصرانية

يرتقي تاريخ النصرانية في الهند الى اواسط المئة الاولى للميلاد ، ويعزى تأسيسها الى القديس توما الرسول ، وحسب التقليد المليباري فان القديس توما الرسول نادى بالبشارة الانجيلية في مليبار ، في السنة الثانية والخمسين للميلاد فنزل اولاً في كدنكلور ، وبشر اليهود القاطنين فيها ثم الوثنيين ، ومكث في مليبار نحو ثلاث سنوات ، واسس سبع كنائس في سبع اماكن هي مليانكرا بقرب كودنكلور ، كولم ، تيرنم ، جايل (نيلّيكل) ، كوكمنكلم ، پرور (كوطاكاو) وپالور لم تزل اربع منها باقية .

ويقال ان التبشير كان ايام الملك كوندفر ، وكانت مملكته البرنية مسيطرة على البلاد الهندية من البنجاب الى شواطىء بحر الهندوس وغيرها من شمال الهند ، وبعض المؤرخين يجعلون مملكته في جنوبي الهند فقط .

وبعد ان بشر توما الرسول بالمسيحية في المليبار ، غادر الى ملقا والصين ، وبينما كان راجعاً من هناك الى بلاد

باندي وبلغ مدينة ميلاپور القريبة من مدراس هجم عليه كهّان الوثنية وطعنوه بالرماح في ١٨ كانون الاول ودفن في ميلايور (يسمى الآن جبل القديس توما وباللغة التاملية ـ جنّملاـ يعني ـ تل صغير)[١] . وفي سنة ٣٩٤ م نقلت رفاته الى مدينة الرها .

وقد توالى على المليبار الكثير من مسيحيي الشرق ، فمن الرها جاءت جالية مؤلفة من ٤٠٠ نفس تنتمي الى سبع قبائل وتؤلف ٧٢ عائلة مع الكهنة. فحطّوا رحالهم في كدنكلور وذلك في سنة ٣٤٥ على عهد چيرمان پيرومان ملك كدنكلور (٣٤١ ـ ٣٧٨) واسسوا ابرشية الكناعنة . كما قدمت جالية عراقية نسطورية من العراق الى مليبار برئاسة اسقفين هما سابور وفيروز وتاجر اسمه سبر يشوع حوالي سنة ٨٢٥ م فسكنت مدينة كولم فمنحهم ملك كولم « ستانوروي كوپتا » ارضاً باسم كنيسة تريصا الارثوذكسية في كوركيني كولم .

وعندما عاد فاسكو دا جاما الى المليبار ثانية سنة ١٥٠٢

(١) وتدعى طائفة اخرى ان هذه المقبرة لداعية اسلامي معروف باسم تمام ، وكلا الفريقين المسلمين والمسيحيين يحترم ويزور هذه المقبرة بدون تفريق حتى يومنا هذا . ويذكر الرحالة الايطالي ماركو بولو (في القرن ١٣) ان المسيحيين وغيرهم كانوا يحجون الى ضريح مار توما في ميلاپور .

ووصل الى كاليكوت اطلق عليها القنابل وبطش باهلها ، ثم سار من كاليكوت الى كوشين فزاره وفد من السريان واهدوه قضيب ملكهم وكانوا قد اقاموا قبلاً مملكة صغيرة في نواحي كوشين في القرن العاشر ، وطلبوا اليه ان ينقذهم من جور اعدائهم ، والواقع ان الكنيسة السريانية الهندية كانت تجهل كل شيء عن الغربيين وقد ذهلت لدى علمها ان البرتغاليين شعب مسيحي ، كما دهش البرتغاليون ايضاً لدى معرفتهم ان اولئك المسيحيين المرتدين عن الوثنية كانوا ولا يزالون يكملون طقوس وتعاليم كنيسة اسقفية منظمة ، وكان لهم بلا انقطاع مطارنة يرسلهم البطريرك الانطاكي كما يشهد الدكتور كلوديوس بوكانان الذي زار الكنيسة المليبارية في اوائل المئة التاسعة عشرة ، في المحاورة التي دارت بين الطرفين من جهة المعتقد ورئاسة الكنيسة.

ولما رأى البرتغاليون اكثر من مئة كنيسة في المليبار ، قالوا : ان هذه الكنائس ملك للبابا ! فسألهم السريان : من هو البابا ؟ نحن لم نسمع به قط ! ثم استطردوا قائلين : مهما كان مذهبكم فليكن ، فنحن مسيحيون حقيقيون ، لأننا قدمنا من الموضع الذي دعي فيه اولاً تابعوا المسيح مسيحيين .

ويؤيد العلاقة الجيدة بين مسيحيي المليبار والغزاة البرتغاليين ما ورد في الرسالة التي بعثها الإساقفة النساطرة

الى جاثليقهم ايليا الخامس سنة ١٥٠٤ او ١٥٠٥ وبالطبع فان البرتغاليين بعد ان تأصلت جذورهم في الهند شرعوا في بذر المذهب الروماني في التربة الهندية ، فسرعان ما اوفد البابا اقليميس الثامن سنة ١٥٩٤ الكسيس دي منيسيس الاوغسطيني رئيس اساقفة لابرشية كوا وزوده بالوسائل الكافية لاكراه السريان على اعتناق المذهب الروماني ، فمنع هذا مجيء الاساقفة السريان الى الهند ، ثم قصد المليبار بنفسه ورشى ملكها بالاموال ، واشاع الخلاف والفرقة بين نصارى السريان واخذ يغريهم بالاموال لكي يعدلوا عن مذهبهم ، واستطاع ان ينجح بعض الشيء .

وذكر ماراثناسيوس نوري المطران العراقي في رحلته الى الهند (اواخر ق ١٩ م) « ان النساطرة قد تكثلكوا وتركوا طقس اجدادهم ، على انهم حافظوا على لغتهم الطقسية القديمة اي السريانية الشرقية وقد ترجموا طقس الكنيسة اللاتينية الى لغتهم السريانية ، وكان يسوسهم من عهد مديد اساقفة غربيّون من اللاتين اما في هذه الايام فقد امر البابا لاون الثالث عشر ان يقام لهم اساقفة هنود وطنيون يقضون فروضهم بالسريانية » .

وسريان المليبار اليوم اقدم الطوائف المسيحية واعرقها واكثرهم يتبعون الكرسي الانطاكي بدمشق إلّا الذين انشقوا عنهم بفعل الخلافات التي سببها اعدائهم من الفرق

الاخرى[1] ، ولهم الكثير من الابـرشيات منهـا : انكمالي ، كندناط ، كـوشين ، كـوطيم ، نيرنم ، طـومبون ، كـولم ، الكناعنة ، سيـلان ، كوا ، جنـوبي كنرا ، كنـائس الكرسي الرسولي ، وتتبـع لها مئـات الكنائس والمـدارس والجامعـات ودور الايتـام والعجـزة والمستشفيـات والمستـوصفـات ، والمؤسسـات والنـوادي والصحف والمـطابـع والمـدارس الاكليـريكية وغيـرها . ومن مؤسساتهم : رسالـة الشرق ، ورسـالة مـار اغناطيـوس ، ورسالـة خـدّام الصليب . ومن جمعيـاتهم : مؤتمر الاكليـروس السنـوي ، ومؤتمـر الـطلاب السنوي باسم مـارغريغـوريوس، ومؤتمـر الشبان السـريان ، وجميعية المدارس الاحدية ، واخوية العذراء للنساء .

ويتلون الصلاة بلغة المليالم في كتب نقلها عن السريانيـة الخـوري متى كونـاط ملفان المليبـار اما الاكليـروس فيصلّون بالسريانية التي تدرس ايضا في المدارس الاكليريكيـة ، ولقد اثر جوارهم للوثنيين على اكتسـاب بعض العادات والتقـاليد

---

(١) بدأت بوادر الانفصال بالمطالبة بالمفريانية (الجثلقة) عام ١٨٨٩ ـ وهذه الرتبة كانت خاصة بالعراق ، وقد الغاها البطريرك يعقوب الثاني بقـرار مجمعي عام ١٨٦٠ بعد وفـاة آخر مفـريان مـار باسيليـوس بهنام الـرابع الموصلي بمكـة عام ١٨٥٩ ـ وانقسمت الكنيسـة عام ١٩١٢ واستمـرت الخلافات قائمة وقد تحسنت الامور سنة ١٩٨٠ بعد تولي البطريرك الاكبـر الاول عيواص الكرسي الانطاكي .

الوثنية :(١)

وابرشيات السريان الحالية هي :

مفريانية المشرق : مركزها : مواتورا - رئيسها مار باسيليوس بولس الثاني مفريان المشرق . . هو الرئيس الحالي للكنيسة في الهند .

---

(١) يراجع بشأن المسيحية في الهند ، والسريان بصورة خاصة كل من :

١ - رحلة المفريان شكر الله الحلبي الى مليبار السريانية ، ونبذة عربية بقلمه في كنيسة مليبار .

٢ - النصرانية في الهند تاليف هوي (بالانجليزية) Hough, christian-ity in india .

٣ - باكورة النصرانية في بلاد الهند وآسيا الوسطى والشرق الاقصى - جزآن - بالانجليزية تأليف منغانة .

٤ - كنيسة القديس توما الهندية لفيلبس ايدوديكل E.M.Philip بالمليالم - .

٥ - تاريخ الكنيسة الهندية - تاليف بلاسيد الكاثوليكي - بالانجليزية - .

٦ - الكنيسة السريانية المليبارية - لتوماس ماثيو - بالانجليزية .

٧ - الكنيسة السريانية المليبارية - للقس دانيال - بالانجليزية .

٨ - نبذة في اسقفية مسيحي القديس توما في مليبار بقلم كاتب كاثوليكي - سنة ١٩٤١ - بالانجليزية .

٩ - تاريخ الكنيسة السريانية تاليف اوجين « سرياني مخطوط » .

١٠ - السريان المليباريون والرسالة البروتستانتية - تأليف P. C. CHERIYAN بالانجليزية - سنة ١٩٣٥ .

=

ابرشية الكناعنة : مطرانها : مارقليمس ابراهام .

ابرشية كوطيم : مطرانها : مار غريغوريوس كوركيس.

ابرشية كوجين : مطرانها : مار اوسطاثيوس توما .

ابرشية انكمالي : مطرانها مار ديونيسيوس توما .

ابرشية كندناط : المفريان المذكور ويعاونه مار ايوانيس فيلبس .

ابرشية كويلون ونيرنم وطومبون : مطرانها : مار قوريلوس قرياقس .

ابرشية الملبار : مطرانها : مار فيلكسينوس صموئيل .

= ١١ - رسالة المطران ايليا الكلداني في الهند - مخطوط بمكتبة جامعة بغداد - كلية الآداب برقم ٩٩١ / ١٥٣ يقع في ٤٠ ص.

١٢ - مراحل مار توما الرسول في بلاد الهند - ترجمة عزيز بطريس (٩٧) ص بخط المترجم من السريانية سنة ١٩٦١ بمكتبة جامعة بغداد . رقم ٢٠٥٨ / ٣٢٧ .

١٣ -. ومن اهم ما كتب بالعربية عن هذا الموضوع (تاريخ الكنيسة السريانية الهندية) لمار سويريوس يعقوب توما (البطريرك يعقوب فيما بعد) بيروت ١٩٥١ وكان قد اقام في الهند بين السريان اكثر من اثنتي عشرة سنة ، وقد اعتمد فيه ايضاً على اكثر المراجع السابقة .

١٤ - جوهرة انطاكية ، للمطران الاصيل ثاوفيليوس جورج صليبا . دمشق ١٩٨٢ .

ابرشية كنائس الكرسي : مطرانها : ماريوليوس يعقوب .

الكلية اللاهوتية : مطرانها : مار طيمثاوس يعقوب .

الرسالة التبشيرية رئيسها المطران مار اثناسيوس فولوس .

تضم هذه الابرشيات حوالي ١٣٠٠ كنيسة و ٧٢٠ مدرسة من الروضة حتى الثانوية .. وجامعتين تضم عدداً من الكليات لمختلف العلوم والمعارف و ١٥٠٠ مدرسة احدية .

واربعة اديرة ، وعدداً كبيراً من الجمعيات والمؤسسات الاجتماعية والثقافية والمياتم .

وقد زرنا الكثير من هذه المعالم واطلعنا عليها بنفسنا خلال الذكرى المئوية للبطريرك مار اغناطيوس الياس الثالث شاكر بطريرك انطاكية الراقد بتاريخ ١٣ شباط ١٩٣٢ في كنيسة دير مار اغناطيوس في (اومللور) ، وكانت الزيارة خلال الفترة ٢ شباط / ٢٤ آذار عام ١٩٨٢ ، وكان على رأس الزوار راعي الكرسي الانطاكي في العالم البطريرك ماراغناطيوس زكا الاول عيواص ، وقد كتب العلامة المطران ثاوفيلوس جورج صليبا كتاباً قيماً عن هذه المناسبة ضمنه المعلومات الوصفية والتاريخية الدقيقة ، وهو بلا شك

يعد من المراجع الهامة عن الموضوع .

الإسلام :

لقد مرّ فيما سبق بيان العلاقة الوثيقة بين المليباريين والعرب منذ اقدم العصور ، ولما جاء الاسلام ودان به العرب ، نقلوه في عهد النبي عليه الصلاة والسلام الى ارجاء المعمورة ، ولما كان طريق التجارة لا ينقطع بين بلاد العرب والمليبار ، فقد انتشر الاسلام سريعاً وباكراً في البلاد المليبارية بفضل التجار العرب .

وان اكثر المؤرخين ينسبون دخول الاسلام المليبار الى عهد رسول الله (ص) ، ومنهم المؤرخ الشهير فرشته[1] ، ويذكر صاحب تحفة المجاهدين[2] القصة المشتهرة على السنة المليباريين من ان جماعة من المسلمين مرّوا بالمليبار في طريقهم الى زيارة قدم آدم عليه السلام في سيلان ، وكان

(١) هو الحكيم محمد قاسم البيجابوري الشيعي الاسترابادي المشهور بهندو شاه الّف كتاب كلزار ابراهيمي وهو المشهور بتاريخ فرشته وبه عرف اسم المؤلف ايضاً ، الفه الى ابراهيم عادل شاه سنة ٩٩٨ هـ واكمله سنة ١٠١٥ هـ . ورتبه على مقدمة وخاتمة واثني عشر مقالة ، والمقالة الحادية عشرة خاصة ببلاد المليبار .

(٢) انظر القسم الثاني (في بدء ظهور الاسلام في مليبار) وفيه تفصيل هذه القصة ورأي المؤلف زين الدين المليباري فيها .

ذلـك على عهـد رسول الله (ص) ولمـا سمع مـلك المليبـار (السامري) بذلك استدعاهم ولما اجتمع بهم آمن بالاسلام وقرر ان يترك مملكته ويذهب لمقابلة رسول الله (ص) عـلى ان يبقى ذلك سراً على اهل مملكته حتى يرجـع ـ لكنه تـوفي في الطريق ـ ومنهم من يذكر انه قابله ومات بعد رجوعـه من الحجـاز ، اما الـذين صحبوه من المسلمـين ، والغالب انهم من التجار العرب ، فهم شرف بن مالـك ، واخوه من الام مـالك بن دينـار ، وابن اخيـه مـالـك بن حبيب بن مـالـك وزوجتـه قمـرية وغيـرهم ، وان هؤلاء الأعـلام كـان لهم الفضـل الكبير في انتشـار الاسلام هنـاك وعمارة المسـاجد ، وبعد ان يفصل صاحب تحفة المجاهدين هذه القصة يستطرد قائلاً : « هذا اول ظهور دين الإسلام في بلاد مليبـار ، واما تاريخه فلم يتحقق عنـدنا ، وغـالب الظن انـه انما كـان بعد المـائتين من الهجـرة النبويـة . . واما مـا اشهر عنـد مسلمي مليبار ان اسلام الملك المذكور كان في زمان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) برؤ ية انشقاق القمر ليلة ، وانه سافـر الى النبي (ص) وتشرف بلقياه ورجع الى شحر قـاصد المليبـار مـع الجماعـة المذكـورين وتوفي فيهـا فلا يكـاد يصـح شيء منها » .

والـواقع ان الكشف الاثـري وآراء الباحثـين تفند هـذا

الرأي[1] الذي ذهب اليـه زين الدين المليبـاري ، فقد ثبت ان النقود الاسلامية المدفونة التي اخـرجت في مليبار منقـوشة عليها سنة ٧١ هـ ، والقبر الموجود بكولم المكتـوب عليه اسم صاحبه علي وتاريخ وفاته ١٦٦ هـ ، وان ذكرى الملك الذي اعتنق الاسـلام اولاً وسمي عبد الـرحمن السامـري ، يحتفل بها اهل مليبار من الكفرة والمسلمين الى الآن ، وان زامورين Zamorin راجـا كاليكـوت حـين يتـوج يلبس لبـاس المسلم بايدي المسلمين ويعتقد انه خليفة السـامري ويحكم من قبله الى حين رجوعه من جزيرة العرب وان راجـا تراونكـور حين يتوج ويأخذ السيف بيده يقول :

« ان هذا كله عنده الى ان يـرجع عمـه الذي غـادر الى مكة »[2] .

ويقول الباحث تارا تشند في مقدمته للطبعة الانجليزيـة

---

(١) وكـان ممن اعتمد عـلى هذا الـرأي في ان الاسلام جـاء الى مليبـار بعـد القرن الثاني للهجرة كل من : رولنسمان ، و (دطبلو) إناس، و « ك . ب . بهلينا بهـ مينون » .

(٢) ويـوجد في المكتب الهنـدي India Office مخـطوطتـان منـظومتـان بـاللغـة العـربية وفيهـا شرح لحـوادث اعتناق الملك للدين الاسـلامي ، وقدوم المسلمـين الى مليبار ، وفي واحـدة منهـا كتب اسم الملك (شكـروتي) وفي الاخرى (شكرورتي) وتنطق (جكرورتي) ومعنى الكلمة الملك او الامبراطور .

من تحفة المجاهدين (سنة ١٨٣٣) : « واتخذ المسلمون ثلاثة مقرات على ساحل الهند الجنوبي وفي سيلان : يقول رولندسن Rowlandson ـ ان المسلمين العرب ، باديء بدء استقروا بساحل مليبار في اواخر القرن السابع ـ وكذلك يدعمه ستورك Sturrock فيما كتبه عن موبلا Moplahs قائلاً ـ مما هو معلوم ان التجار الفرس والعرب استقروا في القرن السابع وبعده بعدد كبير على السواحل الغربية من الهند متفرقين باماكن مختلفة وتزوجوا النساء الوطنيات ، وكانت جالياتهم في مليبار خاصة كبيرة وهامة ـ » .

ويذكر باحث هندي معاصر هو بالاكريشناپلاي بان النبي (ص) بعث الرسائل يدعو فيها الى الاسلام الى ملوك افريقيا والى ملك مليبار وان اول خطاب من الرسول العربي قد وصل الى ملك مليبار في عام ٦٢٨ م في السابع والخمسين من عمر النبي (ص) وان مالك بن دينار وجماعته وصلوا المليبار منذ ذلك الحين وبعدهم وصلت جماعة اخرى الى ميناء كدنغلور تحتوي على عشرة اشخاص منهم « اسود » و «مرجان » وذلك سنة ٧٠١ م .

وهناك من يقول ان المساجد القديمة الموجودة في مدن چاليم وكدنغلور وكويلاندي يرجع تاريخ بنائها الى سنة ١٢٠ هـ ، وبعض الروايات التاريخية تشير الى ان اسرة مسلمة كانت تحكم كننور بشمال المليبار وتعرف باسم « اركل

راجاومشم » اي الاسرة المالكة بأركل ، ويرجع تاريخها الى زمن قدم مالك بن دينار وجماعته الى المليبار، ويقال ان اصل الاسرة يرجع الى (چيرمان بيرمان) وان مؤسس الاسرة المالكة محمد علي بن السيدة (سري ديوي) اخت چيرمان پيرمان ، وكان اسمه الاصلي (مهابالي) قبل اعتناقه الاسلام ، ويظهر من محفوظات قصر اركل ان ابن سري ديوي اعتنق الاسلام سنة ٦٤ هـ ، وكانت عاصمتها الاولى في مدينة دهر مدم .

وتوجد في قصر علي راجا الحالي في كننور وثائق تاريخية عديدة عن هذه الاسرة من ضمنها النقود القديمة ، ووثائق المعاهدات والاحلاف ، باللغة العربية او الخط العربي المليباري .

وكان يدعى كل واحد من ملوك الاسرة المالكة بلقب « آدي راجا » اي الملك الاول او « آزي راجا » اي ملك البحار . ولقبوا بألقاب السلاطين منذ القرن الثالث عشر للميلاد . .

واتصلت اسرة اركل الملكية ببلاد العالم عن طريق التجارة ، وبنى ملوكها قصوراً وقلاعاً في كننور بعد ان نقلوا عاصمتهم اليها من دهر مدم ، وكان الملك يتولى بنفسه مهمة تصدير المنتجات الهامة الى الخارج مثل الفلفل ،

والقـرنفل وغيـرهما وذاع صيتـه في الاسواق التجـارية بمصـر وافـريقيا ولبنـان وجـزيـرة العـرب ، واشتهـر بـاسم « الملك التاجر » ، وقـام هذا الملك ببنـاء العمارات وتشييـد المدن ، وتدريب الجيوش على طراز البلاد الاجنبية وكان يشرف ايضاً على جزر (محلديب) و (لكتشهاديب) و (اندروت ديب) ، وقد تدهورت سلطة هذه الاسـرة على عهـد البرتغـاليين كـما اشرنا الى ذلك في كلامنا عن الاحتلال البرتغالي للمليبار .

ويـذكـر بعض المؤرخـين : ان اسـرة ملكيـة اخـرى اعتنقت الاسلام في كننور وهي اسرة كولتري ، وكان ملكها معاصراً للسامري واقـامته الـدائمة في كننـور وكذلـك اعتنق الاسلام حاشيته وقواده وكان احد ملوكها يدعى باسم (علي راجا) ويسمونه (سلطان البحر) .

وتقـول اسطورة اخـرى بأن فتـاة من الاسرة المـالكة في كولتري ، تزوجت من مسلم انقذها مرّة من حادثة خطيرة ، فعزلوهما في قصر خـاص بعيد عن القصـر الملكي ، فتكونت اسرة مستقلة من هذين الزوجين ، ويقول المؤرخ القصصي شنكوني ناير « هذه الاسـرة اصبحت تعرف فيـما بعد بـاسرة اركل ، ثم صار اليها حكم البلاد حتى اصبحت اسرة مالكة في طول البلاد وعرضها » . الا ان المشهور ان اسرة كولتري غير اسرة اركل .

ومن مظاهر العلاقات الطيبة بين العرب واهل مليبار ان العديد من الاسر العربية المسلمة اتخـذت المليبار وطنـاً لها ،

وبعض هـذه الاسر العـربية المستـوطنة لا تـزال بقايـاهـا الى الآن ، منهـا الاسرة البـافقيهيـة بكـويـلانـدي (Quilandy) والاسـرة المخدوميـة بفنـان Ponnani ويـدلـل عـلى المكـانـة الـرفيعـة للعـرب في كيـرالا القـديمة تلك الصفيحـة النحـاسيـة التي تسمى بـالصفيحـة النحـاسيـة بتـرسفـلي (Tarisappalli Copper Plade) التي اصدرها ملك كيـرالا ستهـانروي (Sthanuravi) في سنـة ٨٤٩ م وهي تتعلق بهبة قـطعة من الأرض لتـرسفلّي ، اي كنيسـة تَـريسّـا (Teresa Quilon church) ، بكولم وهذه الصفيحة تشتمل على اسماء احد عشر رجلاً عربيا وتوقيعاتهم بالخط العربي الكوفي كـانوا شهوداً على هذه الهبة ، وهذا هو احـد الكشوف العـربية من كيـرالا وبالاضـافة الى انـه يدل عـل مكانـة العرب في تلك الازمنة ، فانه يثبت وجودهم في القرن التاسع الميلادي .

وكـان من نتيجة وجـود هؤلاء العـرب المستـوطنـين في كيـرالا واختـلاطهم بـالسكـان المحليـين ان انتشـرت اللغـة العـربية انتشـاراً واسعاً في انحـاء كيـرالا وتغلغلت في حيـاة اهلهـا الثقافيـة والاجتماعيـة ، ومما يـذكر ان الـرسالـة التي ارسلهـا ملك البرتغـال الى السامـري ملك المليبار بـواسـطة فاسكو دا جاما كانت مكتوبة باللغة العربية .

ونتيجـة للاحتكـاك بين العـرب والهنود فقـد تسرب الى اللغة العربية عدد كبير من مفردات اللغات الهندية من اسماء

العقاقير والاطياب الزكية والاحجار الثمينة والاخشاب النفيسة والتوابل الحارة والابزار والسيوف ومصطلحات التجارة والملاحة وما الى ذلك ، وهذه بعض الكلمات الهندية الاصل التي جرت على لسان الملاحين العرب حتى عربت وشقت طريقها الى الشعر الجاهلي :

الصندل (السنسكريتية) chandan ـ الفلفل (التاملية) Pipalli ـ المسك (الهندية) Muska ـ القرنفل (الهندية) Karanphul, Kanakphal ـ الكافور (الهندية) Kapur ـ البارجة (الهندية) Bera ، ومن الكلمات الهندية الاصل التي وردت في القرآن الشريف : كافور ، وزنجبيل ، ومسك .

واسهم العرب الذين نزلوا بمليبار ونشروا الاسلام بين اهلها في شتى مرافق حياتها فروجوا تداول النقود العربية الى جانب النقود اليونانية والصينية والتونسية والفارسية واخترعوا حروفاً خاصة لنطق بعض الالفاظ العربية نطقاً صحيحاً منها : الرحمن والقرآن ومحمد والصلاة والصوم وغيرها اذ خلت اللغة المليبارية من حروف ح ، ص ، ق ، ض الخ خلو العربية من بعض الحروف المليبارية وادخلوا مفردات عربية وفيرة في اللغة المليبارية ، كمنسب ـ المنصف ، وكرار ـ القرار ، وجكتان ـ الشيطان وكستي ـ القسط ، ورسيد ـ الرصيد ، واعترف الدستور الهندي باربع عشرة

لغة هندية محلية احداها المليبارية ، واحتفظوا بالعربية لغة بينهم ومن اغانيهم الشعبية في الزواج :

الله حسبي ، وهو نعم الوكيل ، الله
آمنة الزهرية ام خير عروس ، محمد

واخرى مطلعها :

طه طه طه رسول الله　　سموات بعلاها

فاه فاه فاه بوحي الله　　شافعنا محمد

وشاهدت بعض المليباريين ينشدون اماديح في رسول الله (ص) لو سمعها ايّ عربي لما شك في انها تصدر من فم عربي قح ، وذلك بسبب ضبطهم للغة العربية ، ولا ضير فقد اخترع المليباريون حروفاً خاصة للغة المحلية المليبارية التي تسمى ايضاً (مليالم) ويقال اي اصل الكلمة الاخيرة هي (ما لا يعلم) وصحفت الى (مليالم) وذلك ان هذه اللغة لصعوبتها اطلق عليها العرب هذا الاسم - حسب بعض الروايات - وهذه الحروف تكتب في شكل الحروف العربية بتصرف بسيط في بعض منها ، واشتهرت فيما بعد باسم الحروف العربية لمليالم واصبحت منذ ذلك الحين لغة محلية لطائفة المسلمين (المشهورة باسم - مابلا -) ومن اهم العوامل التي دعتهم الى اختراع هذه الحروف هو حرصهم على الاحتفاظ بالنطق الصحيح وبالهيئة الاصلية لبعض

الكلمات العربية ، والمصطلحات الشرعية ، بدون تحريف ولا تبديل ، والباعث ايضاً هو التسهيل للعرب الوافدين الى كيرالا على تعلم لغتها بواسطة الحروف المألوفة لديهم ، لأنه يصعب عليهم الالمام بلغة غريبة عنهم كتابة وتحدثاً في آن واحد .

ولطائفة مابلا المسلمة في كيرالا آداب خاصة كما ان لهم حروفاً خاصة ومنها الاغاني الشعبية المعروفة باسم (مابلا بات) اي اغاني مابلا وهي تمثل الحياة الاجتماعية والفكرية والدينية لهذه الطائفة وتتميز بانها تحتوي على كلمات عربية وفارسية واوردية وتاملية وسنسكريتية ولها اوزان وبحور خاصة ، وكان رجال الدين من المسلمين يشدون الرحال الى الامصار الاسلامية لطلب العلم ، ومن هؤلاء عبد الله بن عبد الرحمن المليباري المعروف بالسندي ، الذي ذهب الى دمشق وحدث بعذنون ـ مدينة من أعمال صيداء على ساحل دمشق ـ عن احمد بن عبد الواحد بن احمد الخشاب الشيرازي ، روى عنه ابو عبد الصوري(١) ، وذلك في القرن السادس للهجرة .

ووصل عبد الكريم بن ابراهيم الجيلي الى كوشين سنة ٧٩٠ هـ ، ورحل عبد الله بن احمد الكاليكوتي مع اخويه

---

(١) الانساب للسمعاني ٢ / ٤٢٩ (الهامش) طبعة حيدر آباد .

القاسم وابي بكر الى مكة المكرمة سنة ٨٧٩ هـ ، واخذوا
الحديث عن السخاوي الحافظ ، واجازهم في الرواية عنه ،
وخلال القرون الماضية برز الكثير من العلماء الاعلام ومن
المدن المليبارية المشهورة بعلمائها ، كاسركود ، والهيلي
الماداواي ، وبالافتن ، وكننور ، ودرمافتن ، وجومبال ،
والفندرين ، وكاليكوت (قاليقوط) ، وكدنغلور وغيرها إلاّ
ان كاليكوت وفنان اشهر تلك المدن فكانتا معهدي
العلم والثقافة الاسلامية في مليبار ، ومن ابرز علماء
المسلمين في المليبار ، الشيخ المخدوم الكبير ابو يحيي زين
الدين وولده الشيخ المخدوم عبد العزيز ثم حفيده زين
الدين صاحب تحفة المجاهدين وقد مرّت ترجمتهم جميعاً .
ومنهم الشيخ عثمان بن جمال الدين المعبري الفناني المعاصر
للشيخ عبد العزيز المذكور ومن مؤلفاته شرح قطر الندى
لابن هشام ، والقاضي الشيخ فخر الدين ابو بكر بن
رمضان الشالياتي قاضي كاليكوت المتوفى ٨٨٥ هـ مؤلف
(تخميس البردة) و (تخميس بانت سعاد) ، والفقيه الشيخ
حسين بن احمد الدهفتني ، الذي التقاه الرحالة ابن
بطوطة في المليبار ببلدة دهفتن ، وينسب له كتاب (القيد
الجامع) في احكام النكاح وهو مطبوع متداول في المليبار
وهو باللغة العربية ، والشيخ عبد الرحمن تانوري
والقاضي عبد الرحمن المصري ، وكان هذا محدثاً جليلا
درس على الشيخ شمس الدين الجوجري ، ومنهم الشيخ



(المسلك السوي من المشرع الروي) اختصره من كتاب لمحمد بن ابي بكر الشبلي ومن مطارحاته الشعرية ما ارسله الى العلامة الشيخ محمد بن عيثان من علماء الامامية في الاحساء . قال :

سلبت والمسلوب قلبي وبي
من قمر اهواه صوب غبي
قد حل والله وطه النبي
من بعد بطن الحوت والعقرب

فاجابه :

تيمني حب فتى مغربي
كنت به مغراً كما كان بي
لله دهراً قد تقضى به
في خفض عيش مخضل مخصب
قد كان والواشون في غفلة
عنا يحار بني على مذهبي
لج به الواشون حتى غدا
يشرب في الحب سوى مشرب
فعدت ان اساله قبلة
اطفى بها ما كان من حر بي

يستر عني صفحة خده
في أنه بالقلب للعقرب

وكانت ولادة شيخ الجفري سنة ١١٣٧ هـ ووفاته سنة ١٢٢٢ هـ .

ومن علماء المليبار ايضاً العلامة القاضي سعيد بن القاضي احمد ، ولد في قرية كنجار (كاسركود) في اسرة علمية واشتهر اجداده بتولي القضاء واصبح هو من علماء منطقته وكان معاصراً للفقيه الشيخ القاضي عمر الوضينكودي ، ودعاه الحاج حسن كتي الكيوري ، ليلقي الدروس الدينية في (كيور) وفي مسجد القلعة القديمة ـ وذلك قبل قرنين من الزمان ـ ونبغ من تلامذته الشيخ الحاج ابراهيم المسليار الكيوري ، والشيخ عبد الله الكوينكري القاضي بكاسركود ، ثم ان الشيخ سعيد تولى القضاء بمدينة منغلور بالاضافة الى كيور وتوفي يوم السبت تاسع عشر من شهر تلام سنة ١٠٤٢ (من سني كلم المليالمية) واشتهر من بعده ابنه القاضي محمد ، والمسليار الكيوري ، المدرس في مسجد خضر بورنكرا في كيور (المولد سنة ١٢٤٨ هـ) في كاسركود ومن تلامذة الاخير سيد حامد الساحلي شيخ الطريقة القادرية ، وعبد الله مسليار الشمبركوي ، واحمد مسليار ، والقاضي محمد الجمهري الشمبركوي (١٣١٦ هـ ـ ١٣٩٣ هـ) والاخير

اسس مع بعض الوجهاء جامعة عربية دينية باسم (الجامعة السعدية) في بلدة (كيور) ، بقرية (ديلي) المسماة حاليا (بكلناد) على اسم القاضي سعيد المذكور وتكريما لذكراه وجهاده العلمي .

اما في العصر الحديث فان النشاط الثقافي الاسلامي تتولاه المنظمات التالية :

١ ـ جمعية العلماء لعموم كيرالا ، وتسمى (سمست كيرله جمعية العلماء) : «Samastha Kerala jamiyyathul ulama»

اسست سنة ١٩٢٠ عقب اجتماع في مسجد كاليكوت ضم العديد من علماء ومشايخ المليبار ، وكانت في البداية جمعية صغيرة برئاسة الشيخ ب . ك ـ محمد المليباري . وزاد نشاطها فتوسعت كثيراً منذ سنة ١٩٢٦ حيث عقد مؤتمر عام حضرته الشخصيات الاسلامية هناك وعُيّن السيد عبد الرحمن الباعلوي الملاكويا رئيساً لها ، وبعده الشيخ احمد الملّوي ، ثم الشيخ محي الدين كتي المسليار ، ثم الشيخ كبنيت احمد المسليار ناظر مدرسة دار العلوم سابقا وما يزال الرئيس الحالي ، اما الامين العام فهو اي . ك . ابو بكر المسليار عميد الجامعة النورية بفيض آباد ، وتتركز اهداف الجمعية ـ كما هو مذكور في برنامجها ـ في نشر اعتقادات اهل السنة والجماعة وتثقيف الامة الاسلامية دينياً

ودنيوياً ، والعمل لصالح المسلمين العامة ، ومقاومة الفوضى والانحراف والعمل بالطريقة السلمية والقانون المعهود ! ولهذه الجمعية مجلس اعلى مشكل من اربعين من اهل الشورى من خيرة علمائهم المتأهلين للفتوى والتدريس ونظموا تحتها ادارة للتربية والتعليم S. K. I. M. V. Bourd تشرف حالياً على اكثر من اربعة آلاف من المدارس الدينية ومن بينها العديد من الكليات العربية ، تأسست هذه الادارة سنة ١٩٥١ وامتد نشاطها الى خارج ولاية كيرالا ايضاً فهناك مدارس تابعة لها في ولاية تامل ناد Tamil Nad وكرناتكا Karnataka ، وجزر اندمان ولكشاديب ، وتتميز ادارة التعليم هذه بانها منظمة ومرتبة فان آلاف المدارس التي تشرف عليها لها مناهج موحدة تربو على العشرين ، تشمل علوم الفقه والقرآن والعربية والعقائد والتصوف والاخلاق والتاريخ والتجويد .. الخ . ولجميع المراحل المختلفة ، ولها مفتشون INSPECTORS كثيرون يزورون المدارس ويسجلون ملاحظاتهم وينظمون عمليات الدراسة ويقدمون مقترحاتهم الى الادارة العليا ، ونتيجة لجهود هؤلاء المفتشين تجمعت لديهم العديد من الملاحظات صدرت في كتاب باللغة المليبارية باسم (ملاحظات التدريس) Training Notis وهناك جمعية المعلمين المركزية التي تتبع الادارة ، وهي جمعية نشطة ، عقدت العديد من اللقاءات والمؤتمرات عن اللغة العربية وسبل تدريسها دعت اليها العديد من

الشخصيات العربية والوزراء من خارج الهند .

اما امتحانات الطلبة فهناك ايضاً لجنة خاصة تشرف عليها واسمها(مجمع الامتحان العام Examination Board) للاشراف على وضع الاسئلة وتنظيم الامتحانات بشكل دقيق واعطاء الشهادات المناسبة والجوائز للمتفوقين ، وكل عام تجري امتحانات لجميع المدارس التي يقدر طلابها بخمسمائة الف طالب وطالبة ، فيما يزيد عدد المدرسين على خمسة عشر الف مدرس .

اما الكتب الشائعة التي تدرس في تلك المدارس فهي : في الفقه ، عمدة السالك ، وفتح المعين ، وشرح المنهاج ، والتحفة ، وشرح المحلي . وفي النحو والصرف : زنجان وتقويم اللسان ، والتحفة مع التمارين ، والفية ابن مالك . وفي الاخلاق : هداية الاذكياء وفي الحديث : الصحاح الستة والموطأ ، ومشكوة المصابيح ، وفي مصطلح الحديث : نخبة الفكر والرشيدية. وفي البلاغة والمنطق : نفائس الارتضية وتصريح المنطق والبلاغة الواضحة وشرح التهذيب لابن نزار ومختصر المعاني وشرح الشمسية مع المير وملا حسن وشرح التصريح وقاضي مبارك وحمد الله .

وفي التفسير : تفسير الجلالين ، وتفسير البيضاوي وتفسير النسفي ، وفي تزكية النفس : احياء علوم الدين للغزالي .

وفي العقائد : شرح العقائد مع الخيالي . وفي الهيئة والهندسة : ميبندي وخلاصة الحساب واقليدس وشرح جغميني ورسالة الماrديني . وفي اصول الفقه : جمع الجوامع ومسلم الثبوت والتوضيح على التلويح ، وفي التاريخ : سيرة الرسول وهناك بعض المناهج الاخرى كالطب وعلم النجوم ، والفلسفة ، لا يدرسها الا القلة ، وتدرس اللغات الانكليزية والعربية والاوردية في اكثر المدارس وهناك مناهج مبسطة للمدارس الابتدائية غير المناهج المذكورة وفيما يلي قائمة باهم المدارس الدينية الكبيرة التي تشرف عليها جمعية العلماء :

١ ـ الكلية السعدية ، وقد تقدم الحديث عنها .

٢ ـ الجامعة النورية : في (فيض آباد) بمحافظة (مالا بورم) Malappuram ، بدأ الدرس فيها مولانا محمد القطبي منذ سنة ١٣٨٢ وكان طلبة كيرالا قبل ذلك يذهبون الى مدارس خارج الهند ، كالديوبند شمال الهند ، وكلية الباقيات الصالحات في ويلور Vellur جنوب الهند .

ويصدر عن هذه الجامعة مجلة (السعادة) باللغة المليبارية والعربية ، يطبع القسم العربي منها في مطبعة البيانية في برينكادي ، وهي مجلة سنوية .

وتخرج من هذه الكلية الكثير من العلماء والادباء

والوعاظ .

٣ ـ كلية معونة الاسلام بفنان .

٤ ـ كلية جنات العلوم ببالكات Palghat .

٥ ـ كليـة الانوريـة العربيـة بفطشـرا Pattachira ، في معين آباد ـ اقليم فالكات ـ .

٦ ـ الكلية الرحمانية العربية بكدميري Kadamery .

٧ ـ كلية دار السلام العربية ببلدة تندي ـ كاليكوت .

٨ ـ كلية دار النجاة .

٩ ـ كلية منبع العلوم .

١٠ ـ كلية السيد المدني .

ولجمعيـة العلماء فـروع في جميـع انحـاء كيرالا ، ومـن انشط هذه الفروع ، كاليكوت ، ويصدر مجلة اسبوعية باسم (صوت السني) واخرى شهرية باسم (السنة) ، ونشـرات اخـرى تابعـة لها مثـل (مجلة المـعلم التي تصدر بـالمليبـاريـة والعربية ، والمبارك الاسبوعية وغيرها .

ويشـرف الفرع عـلى دور ايتام كثيـرة في كارنتـور قـرب كـاليكوت ، وفي بلدة وليـوزا قريب جاربفـى شيـري ، وفي ماركات ، وفي ولونور ومكم وكاسركود وغيرها . كما تعطي

التعليمات الدينية وتنظم الفتاوى ، وتبعث الائمة والوعاظ الى مساجد كيرالا التي يبلغ عددها ٥٥ الف مسجد ما بين جامع كبير ومصلى للجماعة، وترسل الوعاظ الى خارج الهند ايضاً حيث يقيم الآلاف من الكيراليين المسلمين في السعودية وقطر والامارات العربية المتحدة والبحرين وافريقيا وغيرها ، وعلى ذكر هؤلاء الرعايا يحسن ان نذكر بأن لهم الفضل الكبير في النهضة الاقتصادية لكيرالا عامة ، كما انهم ساهموا مساهمة كبيرة في دعم المؤسسات الاسلامية في كيرالا وشيدوا باموالهم الكثير من المدارس والجوامع ويعتبر هذا الدعم الآن المورد الأول للنشاط الاسلامي في كيرالا : بينما نرى ان المسيحيين بالاضافة الى التسهيلات الحكومية يحصلون على الدعم المالي المستمر من الدول الغربية والمؤسسات التبشيرية العالمية ، ويجدر بالحكومات الاسلامية وبخاصة العربية مساعدة الجالية الاسلامية فتلك هي مسؤوليتها لا في كيرالا خاصة بل في البلاد الهندية قاطبة .

ولنتكلم الآن على بعض المؤسسات الدينية التي زرناها وهي تتبع (جمعية العلماء) ، ففي (ادي نور UDINUR) زرنا مدرسة منبع العلوم ، وتقع في الطابق العلوي من المسجد الادنوي ، وفيها (٣٠٠) طالب و (١١) مدرس ، وساعات الدرس اليومية خمس ساعات ، واستقبلنا فيها

مديرها «الشيخ ابوبكر فيضي» والمدرس محمد الدين نائب القاضي ، وفيها مكتبة صغيرة تحتوي على بعض المخطوطات الشافعية ، واخذونا بعد ذلك الى بناية قريبة من المسجد هي (جمعية الشبان المسلمين) ومن اهتماماتها : تدريب الفتيات على الاعمال الفنية كالخياطة ، ورعاية اليتامى ، وتزويج الفقيرات ، ورعاية المرضى وتيسير الادوية لهم مجاناً . .

وفي هذه القرية بالاضافة الى المسجد الادنوي ، مسجد البدر ، ومسجد الجمالي ، والمسجد الجامع والاخير اكبرها ، وقرب المدرسة المذكورة جمعية لتنظيم الشؤون الدينية اسمها (جماعت خادم الاسلام) .

وقرب قرية (تريكاربور Trikarpur) مدرسة دينية اخرى اسمها (منور الاسلام Madrasa Munavvirul Islam) وفيها الف طالب ضمن مرحلتين ـ ابتدائية وثانوية ـ وقليل من طلبة الدراسة المتقدمة ، وعدد المدرسين (٣٠) ويتبع المدرسة ثلاثة فروع من المدارس الابتدائية

تأسست المدرسة في ١١ شعبان ١٣٦٧ هـ ، وتعتمد المدرسة في مصروفاتها على تبرعات الاهالي ، وهناك قسم من الطلبة يقيمون في المدرسة وهم من اهل القرى البعيدة ، ويتكفل الاهالي باطعامهم حسب الامكانية فمنهم من يطعم ثلاثة طلبة ومنهم من يزيد او يقل عن ذلك ، والتعطيل في

كل جمعة وطيلة شهـر رمضان ، وهنـاك مكتبة صغيـرة تضم ٣٧٩ كتاباً بالعربية والاوردية ارانا اياها مدير المدرسة مولانـا احمد بن عبد الله الذي هو خريج مدرسة الديوبند .

ومررنا بقـرية (اداشـاكي Edachakai) وفيها مـدرسة ابتدائية باسم (مدرسـة ارشاد الاسـلام) اسست منذ (٥٠) سنـة ، فيها (١٩٢) طـالب وطـالبـة : و(٥) من المـدرسـين يعملون لـوجه الله من دون اجـر كأكـثر المـدرسـين في تلك المدارس ، والمناهج مقررة من جمعية العلماء تتضمن (القرآن الكريم ، الفقه الشافعي ، العربية ، العقائـد ، الاخلاق ، سيرة الرسـول والخلفاء) وهي بـاللغة العـربية ولكن بـالخط العربي المليباري .

وفي قرية (فدنا Padne) الاسـلامية الخـالصة مـدرسة ابتدائية هي (المدرسة الرحمانيـة) وفيها قسم داخـلي لاقامـة الطلبة ، اسست حديثاً ، وفيها (٨٠) طالب و(٦) مـدرسين وهذه المدرسة لابناء الاغنيـاء ، ولهذا فـان حالهـا افضل من بقية المدارس وتتقاضى ادارتها (٢٠٠) روبية شهريـاً عن كل طالب ، وفي هذه القرية اكثر من خمسة عشر مسجد للصلاة وفيها ما يزيد عـلى عشرة آلاف نسمـة من المسلمين مـع قلة من الفلاحين الهنادكة .

وفي قرية تـريكاربـور ميتم باسم (الامـين يتيم خانـة)

اسس سنة ١٩٧٧ من قبل صديقنا الحاج رمضان وبعض المحسنين ويضم حالياً (٦٠) يتيماً مع وسائل الراحة الكافية ، ويجري العمل لتوسيعه الآن ، وقرب الميتم مسجد صغير هو (مسجد الرفاعي) امينه (عبد القادر عبد الله) ، وفي هذه القرية مجموعة جيدة من المسلمين ، ويبني حالياً في الجهة المتحضرة من القرية جامع ضخم باسم (Town Mosiq) .

ومن قرى محافظة كننور ، قرية (جنديرا chandera) وهي اسلامية خالصة وبها مسجد كبير ومدرسة عزة الاسلام الدينية ، وقرية (نيلشور Nalshwar) قرب كاسركود وبها مسجد جميل العمارة ، وعدد كبير من المسلمين ، ومنطقة شيتاري ، تقع على الطريق الى كاسركود ايضاً ، وبها مدرسة العزيزية الدينية من المدارس الكبيرة شيدت حديثاً من قبل المحسنين الهنود في الخليج العربي .

وفي (فدنا Padne) مؤسسة باسم امانة المركز الاسلامي (The Islamic Centre Trust) ويشرف عليها الشباب النشط من (جماعت اسلامي) و (مسلم ليك) تأسست سنة ١٩٧١ ويحتوي الآن على مركز مهني للتدريب ، وروضة للاطفال وهناك مشاريع يعتزم القيام بها مثل دار الايتام ، المستشفى الخيري ، البنك اللاربوي .

وفرع جمعية العلماء في كننور من الفروع النشطة ،

ويرأسه (عبد الرحمن تنكل) عميد كلية السيد مدني الواقعة في الآل قرب منغلور ، وانشأ الفرع مدارس للطلبة الغرباء منها مدرسة القادرية في (وينغاد) ، السمرقندية في (كانجعاد) .

٢ ـ الحركة السلفية :

ظهرت بوادر التأثر بحركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب في كيرالا اواخر العقد الاول من القرن العشرين ومن رجال الحركة آنذاك مولانا الحاج الشيخ كنج احمد الشاللكتي (ت ١٩١٩ م) ، والشيخ محمد عبد القادر الوكمي (ت ١٩٣٠م) والشيخ الشاعر سعيد علي كتي ـ اوكوتي (ت ١٩١٩ م) ، والشيخ محمد ماحين همداني الكاتب ، والشيخ عبد الرحمن الحيدروس والسيد ثناء الله المقدي (ت ١٩١٢م) ، وكان اولهم ـ الشاللكتي ـ ابرزهم نشاطاً وكان رئيس المعلمين في (مدرسة تنمية العلوم) بوازكاد Vazhakkad منذ سنة (١٩٠٩م) واستطاع ان يدخل بعض التحسينات على المنهج الدراسي ، وتنظيم التدريس ، وادارة المدرسة ، وان يخلق ثلة من الطلبة تأثروا بافكاره السلفية ، وفي مقدمتهم تلميذه (الشيخ كي . ا ، م المولوي K. M. Moulavi) الذي كان من اكابر ورواد الحركة تلك في كيرالا .

وقد بدأ العمل المنظم منذ سنة ١٩٢٢ عندما اسسوا جمعية الاتحاد الاسلامي بكيرالا (KERALA MUSLIM AIKYA SANGHAM) ولم يكن من السهل انتشار الحركة السلفية في كيرالا وفي الهند عامة وبخاصة لدى العوام اخذاً بنظر الاعتبار العقلية الهندية المحافظة على كثير من الاشياء والعادات التي تعتبرها السلفية خروجاً عن الدين ، ومنذ اليوم الاول لتأسيس الحركة قامت الخلافات بينهم وبين المنظمات الاخرى ، وما زالت الى الآن والذي يؤسف له ان بعضهم يتهجم على البعض الآخر ويكيل له التهم بلا وازع من الضمير او رادع من الدين والانسانية ، فهذا واحد من رجال السلفية في كيرالا الشيخ محمد احمد ، يقول في كتابه (مؤتمر المنظمات السلفية ص ٢٦) : « هاتان الفرقتان ـ جمعية العلماء سمست كيرالا وجماعت اسلامي ـ انعزلتا عن جمعية العلماء ، وعن الحركة السلفية فالسلفيون يقاومون كلتيهما كما تقاوم غيرها من الفرق الزائغة عن الحق كالقاديانية والفرق المنكرة لدليلية السنة النبوية للاحكام الشرعية والفرقة التي تدعي ان الاحكام الشرعية تقبل التبديل والتغيير الى غير ذلك من الفرق الكثيرة الزائغة عن الحق . ا . هـ » . ولا ادري كيف يسوغ عند هؤلاء مثل هذه الاتهامات واللفظ الجارح ، مع ان ذلك لا يمكن ان يستقيم لمن يقرأ في صحيح مسلم انه قيل للنبي (ص) يا رسول الله : « ادع على المشركين » فقال (ص) : « اني لم

ابعث لعاناً وانما بعثت رحمة »[1] او من يقرأ في صحيح البخاري انه (ص) قال: « سباب المسلم فسوق وقتاله كفر »[2]، فضلاً عن ان يستقيم شيء من ذلك لمن يقرأ قوله تعالى: ﴿ ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ﴾.

واعجب من ذلك ان احدهم وهو الدكتور احمد اوتي في كتابه (المنظمات السلفية في كيرالا ص ١٩) يعيب على المشتغلين بالدين التدخل بالسياسة يقول: « ومن اشد اضرارهم على الدين الحنيف هو جعل المقصد الاهم من العبادات مثل الصلاة والصوم والحج ونحوها اغراضاً سياسية من تنشئة جيل مدرب واعداد طائفة كفيلة بادارة الحكومة في الأرض فاذا تولى المتدرب المهذب بمقاليد الحكومة حكم بالعدل فهناك المساواة والاخوة والتحابي مثل المدينة الفاضلة التي حلم بها الفلاسفة اليونان ليفتروا على الله الكذب . . . » . ولم يدرك هذا الكاتب ان اقامة الحكم الصالح جزء من رسالة الإسلام والسياسية الشرعية قسم من اقسام شريعته ، والنبي (ص) كان رسولاً وكان ـ ابتداء من الهجرة ـ حاكماً ورئيساً . ونحن نهيب بهؤلاء الاخوة ان يتناسوا خلافات الماضي ، ويعملوا على انتهاج سبيل الاخوة

(١) اخرجه مسلم من حديث ابي هريرة .

(٢) اخرجه البخاري عن عبد الله بن مسعود من كتاب « الايمان » .

والمحبة الاسلامية فانها هي الطريق الوحيد نحو وحدة المسلمين وانقاذهم مما هم فيه من الانحطاط والتأخر .

وللسلفين مشاركتهم المشهودة في النشاط الاسلامي ، ولهم في كيرالا نحو ٥٠٠ مدرسة سلفية ، وعدد من الكليات العربية ومنها ما ينتسب الى جامعة كيرالا University Of Kerala ـ التي تأسست سنة ١٩٣٧ وعرفت حتى عام ١٩٥٧ باسم جامعة ترافنكور ـ مثل كلية (مدينة العلوم) ببُلكّل (Pulikkal) وكلية (روضة العلوم) بفروق (Feroke) أُسست سنة ١٩٤٢ والحقت بجامعة مدراس ـ وتقع في بقعة جميلة قرب كاليكوت وعميدها الحالي (ابو الصباح احمد علي) من خريجي الازهر ، و (كلية سُلَّم السَّلام) بأريكوت (Areacode) التي تهتم بتعليم البنات ومنها تحصل البنت على شهادة (افضل العلماء) ، وكلية (انصار الإسلام) بولونور (Valavannur) وما هو مستقل غير منتسب الى الجامعة ، كالجامعة الندوية بأدونا (Edavanna) و (بستان العلوم) في كايامانغالم ، و (الكلية الانوارية) او (كلية انوار الاسلام العربية) وهي خاصة بالبنات وتقع في مونغم على بعد عشرة كيلو مترات من بوليكل ، و(كلية المجاهدين) في (بالاكات) ،

وهناك ايضاً العديد من دور الايتام والمؤسسات الخيرية والثقافية التي تشرف عليها مثل منظمة (ندوة المجاهدين)

التي اسست سنة ١٩٥٢ بسعي محمد الكاتب وهي تضم السلفيين على مختلف طبقاتهم واعمارهم ، ومنظمة (اتحاد الشبان المجاهدين) وهي مقصورة على الشباب ، ثم (حركة الطلبة المجاهدين) خاصة بالطلبة ، وجميع برامج هذه المنظمات باشراف رابطة العالم الاسلامي في مكة المكرمة .

وحسبما ذكر لنا الشيخ عمر بن احمد المليباري ، وهو من الاعضاء الافاضل وترجم القرآن الكريم الى اللغة المليبارية ، والشيخ محمد بن احمد الامين العام لندوة المجاهدين ، والشيخ عبد الحميد احد الاعضاء ايضاً وغيرهم ، ذكروا لنا ان نشاطات الحركة السلفية في كيرالا تتركز في مجال الدعوة باقامة المعسكرات والمخيمات والمواسم الثقافية وعقد الامسيات الدينية والاحتفالات بين غير المسلمين والقاء دروس في تفسير القرآن والحديث وبيان العقائد السلفية وتدريب الخطباء وعقد مؤتمر العلماء لادارة البحوث العلمية ، وفي مجال التعليم : انشاء منهج الدراسة الدينية العربية وتعديلها حسب الظروف ، وتأليف الكتب الدراسية لكافة المراحل ومراقبة اوضاع المدارس وعقد حفلات اولياء امور الطلبة وحفلات المدرسين والسعي لبناء المدارس وادارتها ، وفي مجال الاعلام تهتم الحركة بنشر الكتب والمجلات ومن ذلك مجلة المنار الشهرية (باللغة

المليبارية) ومن بين الكتب المطبوعة التي رأيتها :

١ ـ التوحيد لعبد القادر الكنانوري . ٢ ـ ترجمان القرآن ـ ترجمة القرآن للمليبارية ـ ترجمة الشيخ عمر . ٣ ـ ترجمة القرآن الكريم الى المليبارية ـ للشيخ محمد اماني ٤ ـ التقرير لمحمد بن احمد وعبد القادر بن زين الدين ٥ ـ القرآن الكريم والعلوم العصرية لاحمد كوتي ٦ ـ السنة ومكانتها في التشريع الاسلامي لمصطفى السباعي ٧ ـ العبادة والاطاعة لمحمد بن احمد . ٨ ـ المنظمات السلفية في كيرالا ـ لاحمد اوتي. ٩ ـ الاجر للعامل ـ لكنيد مدني. ١٠ ـ صلاة التراويح للشيخ محمد مولوي . ١١ ـ علم الغيب للدكتور عثمان . ١٢ ـ اولياء الله ـ لكنيد احمد . ١٣ ـ مقدمة لتاريخ الحركة الاصلاحية ـ لمحمد كتشري . ١٤ ـ خطبة الجمعة ـ لمحمد جمال الدين ١٥ ـ الشيخ محمد بن عبد الوهاب (ترجمته وحياته) . ١٦ ـ كيف نثق بالاناجيل . ١٧ ـ التفسير السياسي للاسلام ـ للسيد ابي الحسن الندوي . ١٨ ـ الدين والالحاد ـ لعدد من المؤلفين وكتب اخرى غيرها .

وتهتم المملكة العربية السعودية بشؤون المنظمات السلفية في الهند وتدعمها مالياً ، وتعقد بين فترة واخرى مؤتمرات كبيرة يحضرها وفود من مختلف البلدان وقد عقد اكبرها في خلال الفترة (١ ـ ٤ جمادى الاول

١٤٠٢ / ٢٥ ـ ٢٨ فبراير ١٩٨٢) بمدينة فاروق قرب كاليكوت وهو المؤتمر الثاني للمنظمات السلفية ، وقد حضرته وفود من القاهرة والسعودية والامارات العربية المتحدة والكويت وقطر والاردن ، بالاضافة الى مشايخ العلماء من الهند .

٣ ـ جماعت اسلامي :

Jamaat — Eislami of Kerala

بسبب الاحتلال الانجليزي للهند ، وازدياد الظلم والاضطهاد للمسلمين من قبل المحتلين الانجليز ثار المسلمون والهندوس ثورة عظيمة سنة ١٨٥٧ ولو قدر لهذه الثورة النجاح لانمحت آثار الانجليز من الهند منذ ذلك الزمن ، ولكن الانجليز توصلوا الى القضاء عليها ومتابعة آثارها ورأوا ان افضل شيء للتخلص منها زرع بذور التفرقة بين المواطنين واثارة النعرات الدينية والطائفية ، وبالفعل فقد برزت مثل هذه الامور بصورة جلية حتى اصبحت كل فرقة وكل طائفة تنادي بالحقوق والمسؤوليات ، وكادت الفتنة تقضي على البلاد بعد ان افلح الانجليز في اثارة الخلافات بين المسلمين والهندوس بعدما كانوا يحيون طوال مئات السنين بمشاعر من الود والمحبة والوئام ، فاسست منذ ذلك الحين الجمعيات والنوادي لكل منها فظهرت اول حركة وطنية في ثوب اسلامي محض في مدينة دهاكه سنة ١٩٠٦ م

تحت رئاسة نواب دهاكه سليم الله ، وقد سميت هذه الحركة باسم « المؤتمر الاسلامي » .

وكان سيد احمد خان قد وضع سنة ١٨٧٥ الحجر الاساسي للمؤسسة العلمية التي اصبحت بعد ذلك جامعة عليكره ومفخرة من مفاخر الهند المسلمة ، واسس غاندي ورفاقه حزب المؤتمر الهندي وكان قد بدأ التفكير به منذ سنة ١٨٨٥ . وفي سنة ١٩٠٦ تأسس حزب الجامعة الاسلامية Muslim Leage بزعامة محمد علي جناح ، وتأسست حركة (الخلافة الاسلامية) التي تزعمها الاخوان مولانا شوكة علي ومولانا محمد علي بتأثير افكار السيد جمال الدين الافغاني ثم جرت احداث واحداث انتهت بقرار تقسيم الهند والباكستان وذلك يوم ١٤ آب ١٩٤٧ .

وفي الأربعينات من هذا القرن قام (ابو الاعلى المودودي) وهو من كبار العلماء والمفكرين في باكستان ، بتأسيس حركة (الجماعة الاسلامية) ومقرها (لاهور) وكتب من اجلها عشرات الكتب والمؤلفات التي توضح افكار وآراء هذه الحركة ، ولسنا بصدد استعراض تأريخها او تقييم افكارها فذلك حديث يطول وخلاصة القول انها دعوة خالصة لأجل النهوض بمسلمي العالم ، وان المسلمين في الهند انشأوا (جماعة اسلامية) على غرارها مستوحية افكار مولانا المودودي ، لكنها استقلت فيما بعد واصبح لها

الـزعـماء من مسلمي الهنـد نفسهـا ، وكـذلـك استقلت (الجماعة الاسـلامية) في بنغـلادش وسيلان ، وكشمـير ، حيث لا يربط فيما بينهـا غير الاسم مـع ان جميعها تستـوحي من مباديء المودودي نفسه .

والجماعة الاسلامية الهندية ، مـركزهـا الآن في دلهي ، واهدافها الحالية المعلنة :

١ ـ تـربية المنتمـين للجمـاعـة انفسهم واهليهم وذويهم تربية اسلامية موسعة .

٢ ـ بذل الجهود لابراز مسلمي الهند نموذجاً حيـاً عملياً للاسلام ليلعبوا دورهم في بناء البلاد والملة دوراً بناءاً مؤثـراً ويؤدوا شهادة قولية وعملية للدين .

٣ ـ السعي لانهاء الصـراع الطبقي والعـدائي والتنـافـر الـطائفي والقضـاء عـلى عـدم الثقـة ، والـظنـون في روابط المـواطنين ، ولايجـاد جو التعـاون والمسـاهمـة والثقـة وحسن الجوار .

٤ ـ تثقيف وتوعية المسلمين بنشر القرآن الكريم وعلومه والحـديث الشريف والكتب الاسـلامية الهـامة وتـرجمتهـا الى اللغات الاردوية والهندية والانكليزية .

٥ ـ التقـريب بـين المنـظمـات الاسـلاميـة من اجـل الوحدة .

٦ ـ القضاء على الفقر والجوع والمرض والامية والتمييز العنصري وما اليها ، وتقديم المساعدات للفقراء والمساكين والمحتاجين بدون فرق او تمييز بين ديانة واخرى وبين امه دون امه ، ورفع مستوى الطبقات والفئات المتخلفة (اقتصادياً وثقافياً) .

وتضم الجماعة الاسلامية الهندية ١٣ وحدة تنظيمية وثلاث مناطق تابعة للمركز ، اما الوحدات التنظيمية فهي (آسام ، بنغال الغربية ، بيهار ، اترا براديش ، بنجاب ، راجستهان ، مدهيه براديش ، كجرات ، مهاراشترا ، آندهرا براديش ، بنجاب ، كرناتكا ، تاملنادو ، كيرالا) .

اما اسماء المناطق فهي (دلهي ، واريسه ، واندمان) .

وفيما يخص حلقة كيرالا ، فالمسؤول عنها (امير) في المصطلح التنظيمي للجماعة يساعده امين عام وامين للمكتب . وهناك اربعة مدراء للاقاليم ، وست عشرة مديرية لدوائر السيدات وفي الحلقة كلها ٤٥٠ عضواً و ٧٨ فرعاً للجماعة ، والمكتب الرئيسي في مدينة كاليكوت ، وللحلقة مجلة اسبوعية واخرى شهرية باسم « بربودهنم » باللغة المليالمية . ونشرت الحلقة ترجمة تفهيم القرآن بجزئيه الاول والثاني الى سورة بني اسرائيل ، وتراجم سور النور والكهف ويس من هذا التفسير ، و١٣٠ كتاباً وكتيباً حول الاحاديث المختارة والموضوعات الاسلامية وكلها بلغة الولاية

ـ المليالمية ـ. والواقع ان دور الجماعة الاسلامية الهندية ، شريف ومتميز من اجل رفع المستوى العام لمسلمي الهند ، ومن اهم وانشط فروعه (فرع ولاية كيرالا) الذي لا يألوا جهداً من اجل تحقيق اهداف الجماعة .

خاتمة في واقع اللغة العربية وكتابها في المليبار

هذه اذن هي المنظمات الرئيسية في كيرالا ، وهناك منظمات ، او جمعيات اخرى مستقلة كثيرة ولكنها صغيرة وتهتم ـ على الاغلب ـ بالجانب الخيري للمسلمين ، وهناك ايضاً بعض التكتلات السياسية والاجتماعية حول عدد من الشخصيات من المسلمين ، فالسيد محمد كويا مثلاً له جماعة كبيرة من المؤيدين والانصار ، وهو في نفس الوقت رئيس حزب مسلم ليك Muslim Leage وترأس حكومة كيرالا غير مرة ، وهناك الجماعة التبليغية وغيرها .

وقبل ان نأتي على نهاية هذا الفصل نذكر هذه اللمحة عن دراسة اللغة العربية في المدارس الرسمية الحكومية ، فقد كانت الحكومة البريطانية تجيز التعليم الديني في المدارس العامة في مليبار التي كانت حينئذ جزءاً من ولاية (مدراس Madras) وعينت المعلمين لذلك في بعض مدارسها العامة من سنة ١٩٠٤ م ، وهؤلاء المعلمون كانوا يعرفون بمعلمي القرآن Quran teachers وعينت الحكومة في ترافكنور

Travancore معلمي اللغة العربية من سنة ١٩١٤ وعينت ايضاً مفتشاً للاشراف على تدريسها باسم « المفتش المحمدي Mohameden inspector -، وبدأ تعليم العربية رسمياً في Cochin سنة ١٩٣٠ ، وبعد أن جمعت الوحدات الثلاث المذكورة وكونت ولاية كيرالا سنة ١٩٥٦ تطورت دراسة اللغة العربية بشكل كبير وتوسعت دراستها فشملت الآلاف من المدارس الابتدائية والثانوية الرسمية وغير الرسمية كما اخذت تدرس في الكليات الحكومية ومن اوائل هذه الكليات كلية الفاروق Farouk college بفروق Feroke وهي تابعة لجامعة كاليكوت University of calicut منذ سنة ١٩٧٤ وتدرس فيها العربية في مستوى الماجستير والدكتوراه ، والكلية تقع في منطقة جميلة جداً على طريق كاليكوت ـ مالابورم .

ومن الكليات الحكومية التي تعنى بتدريس العربية في كيرالا ، كلية مهاراجا بأونا كلم في كوشين «Mahrajas University College. Trivadrum» وكلية الجامعة بترافندرم trivandrum -universtiycdlege وكلية بريمن ، بتلشيري' Bremen College, Tellicheery - وغيرها من الكليات الرسمية وغير الرسمية التي قد تتجاوز الآن نيفاً واربعين ، تدرس فيها العربية وعلومها وآدابها .

اما شعراء كيرالا وكتابها باللغة العربية فهناك الكثير منهم ، ويستحسن الرجوع بشأنها الى ابحاث مؤتمر « مساهمة الهند الجنوبية في الادب العربي » الذي عقد في جامعة كاليكوت في يناير ١٩٧٧ .

الأدب المليالمي

مـرت الاشارة الى ان لغـة الميلبار هي اللغـة المليـالميـة Malayalam Languages وتنتمي هــذه اللغـة الى العــائلة الـدراڤيـديـة Dravidian family ، وبدأت آداب هذه اللغـة بـالظهـور منذ القـرن الرابـع عشر الميـلادي ، ولكن الآثـار المتبقيـة لآدابها قليلة ، اما في العصـر الحـديث فيبـدأ بـروز الأدب المليـالمي الى القـرن التـاسـع عشــر وذلـك بــظهـور التـرجمـات من اللغـة السنسكـريتيـة الى المليـالميـة في مختلف المواضيع والمضامين ، واثـرت الترجمـة من السنسكريتيـة لغة المليــالم بكثـير من المصــطلحــات والكلمــات ، واكتسب الملياريون طـريقة النـظم السنسكريتيـة في اشعارهم ، ومن اكبر ادباء المليبار تأثراً بالسنسكريتية القـديمة وآدابهـا « كيرلـه ورما » المتوفي سنة ١٩١٥ وصاحب الـديوان المعـروف باسم « مـايـورا سنـديشم » ، ومنهم « كنجي كتـان تمبــوران » في كـدنغلور ، و « جنـدومينـون » صـاحب قصـة « إنـدولكـا » و « ا . ر . راجا راجا ورما » وكان نـحوياً معـروفاً حجـة في

النحو المليالي ، كما كان شاعراً كبيراً وناقداً حراً ، كتب كتابه « كيرلاباندينام » .

وفي اوائل القرن العشرين بدأت الترجمة من اللغة الانكليزية ايضاً فترجمت الكثير من الكتب الانكليزية الكلاسيكية ومن بينها الكثير من المسرحيات والتمثيليات ، ومن اعلام الكتاب والشعراء في المليبار ، « كما ران آشان » صاحب قصة « ناليني » ، والشاعر (ولتول) ، و (اوللور) و (السردار ك . م . پانيكار) ، و (شنكرا كروب) ومن الكاتبات « اكاواما » صاحبة رواية « سبها درا رجنم » ومن الشواعر (بال مني أما) و (ميري جون) و (بال مني اما) .

وظهرت في الثلاثينات الحركة التقدمية وتسمى « بروجمنا وادم » وكان روادها من الادباء اليساريين ومنهم (جوزف مندشيري) و (ايم بي پول) و (ا . بال كريشنا بلاى) واشتهروا بالقصص القصيرة والروايات ، وفي مجال الشعر برز كل من (شري دهرا مينون) و (جوبال كروب) و (بالاى ناراين ناير) .

ومن كتّاب وادباء كيرالا محمد بشير صاحب رواية « باليا كاليا سكهي » اي صديق الطفولة ، ومنهم (تكاسي) وله رواية (شمين) ، ومنهم (س . ك . بتكات) و (ك ـ ت . محمد) و (وركي) ، و (سي .

وي . رامن بـلاي) وله تمثيليـة (روبلاكلري) اي مـدرسة بدون معلم يتناول فيهـا الحياة الاجتمـاعية لـطائفة النـاير في كيرالا ، وقد ساهمت الصحافـة في كيرالا مسـاهمة كبيـرة في نهضة ادب المليالم وتشجيع الادباء والكتاب .

وصـدرت الكثـير من الكتب بـاللغـة المليـاليـة ، والانجليزية ، عن تاريخ آداب مليالم منذ عصوره الاولى الى الآن ومن ذلك كتاب للمؤرخ (ب . كـوبند بـلاي) الذي صدر اواخر القرن التاسع عشر ، ومن المعـاصرين (نـاراين بـانيكار) الـذي الف (تـاريـخ الادب المليـالمي) في سبعـة اجزاء ، ومنهم (ألور برميشور أيار) ، و (الدكتور ك . م . جورج) وهولغوي مختص بالمليـالمية ، وهنـاك فصول طـويلة عن ادب المليـالم في كتاب (تـاريخ كـوشين) لمؤلفـه (ك . ب . بدمنابها مينون) .



مشاهدات ابن بطوطه في بلاد المليبار

ابن بطوطة هو محمد بن عبد الله اللواتي ، ويكنى بأبي عبد الله ، وابن بطوطة ، شهرة اشتهر بها هو وعائلته ، ولد يوم الاثنين ١٧ رجب عام ٧٠٣ هـ (٢٥ شباط ١٣٠٤ م) في مدينة طنجة على مضيق جبل طارق بشمال المغرب ، وفي عائلة اشتهرت بالقضاء ، سليلة قبيلة لواته البربرية ، وعندما نشأ (ابن بطوطة) وتعلم مبادىء العلوم ولم يصل عمره الواحد والعشرين حتى عزم على السفر الى الشرق بغية حج بيت الله الحرام والرواية عن علماء المشرق المشهورين ، والاستفادة من علمهم وورعهم ، ففارق وطنه منذ يوم الخميس ، ٢ رجب ٧٢٥ هـ وبعد أن زار بعض البلدان وصل الى المدينة المنورة ثم مكة المكرمة حيث وقف بعرفات لأول مرة عام ٧٢٦ ، وبعد هذه الحجة الاولى قامت نفسه للسياحة في الأرض وزيارة الاقطار والامصار ، واستطاع ان يكسب رضا الناس واحترامهم بحسن تدبيره وحنكته في شتى اسفاره ، وقد زار العديد من البلدان الآسيوية

والافـريقيـة حتى عــام ٧٣٢ حيث زار مكـة وحــج للمـرة الخامسة !

وحينئذ اخذ ابن بـطوطة يفكـر بزيـارة الهند التي سمـع بشهرتها وغرائبها ، ولم يزل تفكيره يزداد بذلـك حتى وفق له بعـد زيارتـه لكابـل وغزنـه ، اذ قصد دهـلي وهي يـومـذاك عاصمة من اكبر عواصم الاسلام ، فاقام سنين عند سلطانها محمـد بن تغلق فـاعتنى بـه السلطان وعينـه قـاضي المـذهب المـالكي الى ان غضب عليـه في احـدى المـراتِ ، وكــاد ان يقتله ، لكنـه رضى عنه فيـما بعـد وارسله الى ملك الصـين سنة ٧٤٣ في سفارة له .

وفي طــريقـه الى الصـــين زار اواسط الهنـد وســاحـل المليبار ، ثم ذهب الى جزر ذيبة المهل (جزر مالديف) حين عـين بها قـاضياً مـدة سنـة ونصف ومنهـا ذهب الى جـزيـرة (سرنديب) ـ سيلان ـ ثم زار ثانيـة سواحـل المعبر والمليبـار بـالهند ، ثم رحـل الى جزر ذيبـة المهل ، ومنهـا الى البنغـال وآسام ، ومن هناك ركب البحر الى جزيرة سومطرة ومنها الى مدينة بكين بالصين .

واخيراً قرر الرجوع الى بلاده المغرب سنـة ٧٤٦ ، فمر عـلى سـومـطرة والمليبـار والخليـــج العـربي وبغــداد ودمشق ومصـر ، ثم حج بيت الله للمـرة السـادسـة والاخيـرة سنـة ٧٢٩ ، ورجع الى القاهـرة فالاسكنـدرية ، فتـونس ، ومنها

الى جزيرة سردينيا (بايطاليا) فمدينة تنس فالجزائر ، ثم سافر براً الى مدينة فاس عاصمة المغرب ، بعد ان غاب عن وطنه المغرب خمساً وعشرين سنة وما لبث ان عاد لاسفاره كرة اخرى فزار الاندلس ودولة مالي وغيرها ،

وفي سنة ٧٥٤ امر السلطان ابي عنان المريني لابن بطوطة بالعودة الى فاس وامر السلطان بكتابة رحلته الاديب الفقيه محمد بن محمد بن جزي الكلبي (٧٢٠ - ٧٥٦) . ومما دونه مشاهدات ابن بطوطة عن بلاد المليبار ، تلك المشاهدات التي تعطينا صورة واضحة المعالم عما كانت عليه هذه البلاد خلال القرن الثامن الهجري ،والمعلومات التاريخية والجغرافية المذكورة عن المليبار لا تتوفر في غير هذا المرجع ، وتجمع الى اهميتها متعة السرد القصصي وطرافة التقاليد والعادات والتي يذكرها ابن بطوطة ، وليس ذلك وحسب ، فان هذا الرحالة سرد وقائع كثيرة خلالها حتى ذكر مساجد المليباريين ومعابدهم ، والبستهم واطعمتهم ، واعلام القضاة والعلماء والخطباء ، وذكر الاشجار والمراكب والصناعات ، واحوال بعض المسافرين من بلاد العرب وغيرها .

والمتفحص لكلام ابن بطوطه يجده الرحالة الامين الصادق في كل ما قاله ، ولقد جاءت معلوماته عن عادات ملوك مليبار وعدلهم مطابقة تماماً مع ما يذكره عنهم المؤرخ

زين الدين المليباري في اول كتابه (تحفة المجاهدين) ، وكذلك اخباره عن بلاد الهند وملوكها واناسها تبدو للمطلعين امينة للغاية مما لا يدع الفرصة للمتشككين في تلك المعلومات ، سواء من اولئك الذين عاصروه - الذين شككوا خاصة فيما حكاه عن الهند - فاتهموه بالكذب والمبالغة ، او الذين جاؤ وا من بعدهم .

وكل ما قاله ابن بطوطة عن بلاد المليبار اقتطفناه واثبتناه هنا مبوباً على اسماء المدن التي زارها ، وهو ينطق عن ذاته بذاته ، ونبدأ بكلامه عن تنِدابور[1] :

جزيرة تندابور[2] :

وهي جزيرة في وسطها ست وثلاثون قرية ، ويدور بها خور ، واذا كان الجزر فماؤ ها عذب طيب ، واذا كان المد فهو ملح اجاج ، وفي وسطها مدينتان ، احداهما قديمة من

---

(١) تحفة المنظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار (٦٣٢ - ٦٥٢) تحقيق د. علي المنتصر الكتاني . بيروت - مؤسسة الرسالة ١٩٧٥ .

(٢) هي جزيرة كووه GOA الحالية ، تكلمنا عنها مفصلاً خلال تعليقاتنا على التحفة ، وفي تقويم البلدان :

تندبور : بالتاء المثناة الفوقية المفتوحة وسكون النون ثم دال مهملة وياء آخر الحروف مضمومة وواو وراء مهملة وهي بليدة شرقي رأس هيلي ولها بساتين كثيرة .

بناء الكفار ، والثانية بناها المسلمون عند استفتاحهم لهذه الجزيرة الفتح الاول ، وفيها مسجد جامع عظيم يشبه مساجد بغداد ، عمره الناخوذه حسن والد السلطان جمال الدين محمد الهنوري .

قصة ابن بطوطة مع احد المرتاضين :

وتجاوزنا هذه الجزيرة لما مررنا بها ، ورسينا على جزيرة صغيرة قريبة من البر ، فيها كنيسة وبستان وحوض ماء ، ووجدنا فيها احد الجوكية ، ولما نزلنا بهذه الجزيرة الصغيرة وجدنا بها جوكياً مستنداً الى حائط بدخانة ، وهي بيت الاصنام ، وهو فيها بين صنمين منها ، وعليه آثار المجاهدة ، فكلمناه فلم يتكلم ، ونظرنا هل معه طعام فلم نر معه طعاماً ، وفي حين نظرنا صاح صيحة عظيمة ، فسقطت عند صياحه جوزة من جوز النارجيل بين يديه ، ودفعها لنا فعجبنا من ذلك . ودفعنا له دنانير ودراهم فلم يقبلها ، واتيناه بزاد فردّه ، وكانت بين يديه عباءة من صوف الجمال مطروحة ، فقلبتها بيدي فدفعها لي . وكانت بيدي سبحة زيلع، فقلبها في يدي فاعطيته إياها ، ففركها بيده وشمها وقبلها ، واشار الى السماء ثم الى سمت القبلة . فلم يفهم اصحابي اشارته ، وفهمت انا عنه انه اشار انه مسلم ، يخفي اسلامه من اهل تلك الجزيرة ويتعيش من تلك الجوز .

ولما وادعناه قبلت يده ، فانكر اصحابي ذلك ، ففهم انكارهم ، فاخذ يدي وقبلها وتبسم ، واشار لنا بالانصراف فانصرفنا ، وكنت آخر اصحابي خروجاً فجذب ثوبي ، فرددت رأسي اليه فاعطاني عشرة دنانير ، فلما خرجنا عنه قال لي اصحابي : « لم جذبك ؟ » ، فقلت لهم « اعطاني هذه الدنانير » . واعطيت لظهير الدين ثلاثة منها ولسنبل ثلاثة ، وقلت لهما « الرجل مسلم . ألا ترون كيف اشار الى السماء ؟ يشير الى انه يعرف الله تعالى ، واشار الى القبلة ، يشير الى معرفة الرسول عليه السلام ، واخذه السبحة يصدق ذلك » فرجعا لما قلت لهما ذلك اليه فلم يجداه ، وسافرنا تلك الساعة .

مدينة هنّور[1] :

وبالغد وصلنا الى مدينة هنور ، وهي على خور كبير تدخله المراكب الكبار ، والمدينة على نصف ميل من البحر ، وفي ايام البشكال ، وهو المطر ، يشتد هيجان هذا البحر وطغيانه ، فيبقى مدة اربعة اشهر لا يستطيع احد ركوبه الا

(١) هنور : بفتح الهاء والنون المشددة والواو وراء مهملة وهي بليدة حسنة ولها بساتين كثيرة وجميع بلاد المليبار مخضرة بكثرة المياه والاشجار الملتفة من هنور الى باسرور بالسين والرائين المهملات وهي بلدة صغيرة . تقويم البلدان / ٢٥٢ .

للتصيد فيه وفي يوم وصلنا اليها جاءني احد الجوكية من الهنود في خلو ، واعطاني ستة دنانير وقال لي : « البرهمن بعثها اليك » يعني الجوكي الذي اعطيته السبحة واعطاني الدنانير فاخذتها منه واعطيته ديناراً منها ، فلم يقبله وانصرف . واخبرت اصحابي بالقضية وقلت لهما : « ان شئتما فخذا نصيبكما منها » فأبيا وجعلا يعجبان من شأنه ، وقالا لي : « ان الدنانير الستة التي اعطيتنا اياها جعلنا معها مثلها ، وتركناها بين الصنمين حيث وجدناه » فطال عجبي من امره ، واحتفظت بتلك الدنانير التي اعطانيها .

وصف اهل هنور :

واهل مدينة هنور شافعية المذهب ، لهم صلاح ودين ، وجهاد في البحر وقوة ، وبذلك عرفوا حتى اذلهم الزمان بعد فتحهم لسندابور ، وسنذكر ذلك ، ولقيت من المتعبدين بهذه المدينة الشيخ محمد الناقوري ، اضافني بزاويته ، وكان يطبخ الطعام بيده استقذاراً للجارية والغلام ، ولقيت بها الفقيه اسماعيل معلم كتاب الله تعالى ، وهو ورع حسن الخلق كريم النفس ، اضافني بزاويته والقاضي بها نور الدين علياً والخطيب لا اذكر اسمه ، ونساء هذه المدينة وجميع هذه البلاد الساحلية لا يلبسن المخيط ، وانما يلبسن ثياباً غير مخيطة ، تحتزم

احداهن بأحد طرفي الثوب ، وتجعل باقيه على رأسها وصدرها ، ولهن جمال وعفاف ، وتجعل احداهن خرص ذهب في انفها، ومن خصائصهن انهن جميعاً يحفظن القرآن الكريم ، ورأيت بالمدينة ثلاثة عشر مكتباً لتعليم البنات ، وثلاثة وعشرين لتعليم الاولاد ، ولم ار ذلك في سواها ومعاش اهلها من التجارة في البحر ، ولا زرع لهم ، واهل بلاد المليبار يعطون للسلطان جمال الدين في كل عام شيئاً معلوماً ، خوفاً منه لقوته في البحر ، وعسكره نحو ستة آلاف بين فرسان ورجّالة .

سلطان هنور :

وسلطان هنور هو السلطان جمال الدين محمد بن حسن ، من خيار السلاطين وكبارهم وهو تحت حكم سلطان كافر يسمى هريب سنذكره ، والسلطان جمال الدين مواظب للصلاة في الجماعة . وعادته ان يأتي الى المسجد قبل الصبح ، فيتلو في المصحف حتى يطلع الفجر فيصلي اول الوقت ، ثم يركب الى خارج المدينة ويأتي عند الضحى ، فيبدأ بالمسجد فيركع فيه ثم يدخل الى قصره ، وهو يصوم الايام البيض ، وكان ايام اقامتي عنده يدعوني للافطار معه ، فاحضر لذلك ويحضر الفقيه علي والفقيه اسماعيل ، فتوضع اربع كراسي صغار على الأرض ،

فيقعد على احداها ، ويقعد كل واحد منّا على كرسي ، وترتيبه ان يؤتى بمائدة نحاس يسمونها خونجة ، ويجعل عليها طبق نحاس يسمونه الطالم ، وتأتي جارية حسنة ملتحفة بثوب حرير ، فتقدم قدور الطعام بين يديه ، ومعها مغرفة نحاس كبيرة ، فتغرف بها من الارز مغرفة واحدة وتجعلها في الطالم ، وتصب فوقها السمن ، وتجعل مع ذلك عناقيد الفلفل المملوح والزنجبيل الاخضر والليمون المملوح والعنبا ، فيأكل الانسان لقمة ويتبعها بشيء من تلك الموالح ، فاذا تمت الغرفة التي جعلتها في الطالم ، غرفت غرفت اخرى من الارز ، وافرغت دجاجة مطبوخة في سكرجة فيؤكل بها الارز ايضاً . فاذا تمت المغرفة الثانية ، غرفت وافرغت لوناً آخر من الدجاج تؤكل به ، فاذا تمت الوان الدجاج ، اتو بألوان من السمك فيأكلون بها الارز ايضاً ، فاذا فرغت ألوان السمك ، اتو بالخضر مطبوخة بالسمن والالبان فيأكلون بها الارز ، فاذا فرغ ذلك كله اتوا بالكوشان وهو اللبن الرائب وبهذا يختمون طعامهم ، فاذا وضع علم انه لم يبق شيء يؤكل بعده ، ثم يشربون على ذلك الماء الساخن ، لأن الماء البارد يضربهم في فصل نزول المطر ، ولقد اقمت عند هذا السلطان في كرة اخرى احد عشر شهراً لم آكل خبزاً ، انما طعامهم الارز ، وبقيت ايضاً بجزائر المهل وسيلان وبلاد المعبر والمليبار ثلاث سنين لا آكل فيها الارز ، حتى كنت لا استسيغه إلا بالماء .

ولباس هذا السلطان ملاحف الحرير والكتان الرقاق ، يشدّ في وسط فوطة ويلتحف ملحفتين احداهما فوق الاخرى ، ويقص شعره ويلف عليه عمامة صغيرة ، واذا ركب لبس قباء والتحف بملحفتين فوقه ، وتضرب بين يديه طبول وابواق يحملها الرجال ، وكانت اقامتنا عنده في هذه المرة ثلاثة ايام وزودنا وسافرنا عنه .

وصف المليبار وعادات اهلها :

وبعد ثلاثة ايام وصلنا الى بلاد المليبار ، وهي بلاد الفلفل ، وطولها مسيرة شهرين على ساحل البحر من سندابور الى كولم ، والطريق في جميعها بين ظلال الاشجار ، وفي كل نصف ميل بيت من الخشب فيه دكاكين ، يقعد عليها كل وارد وصادر من مسلم وكافر ، وعند كل بيت منها بئر يشرب منها ورجل كافر موكل بها ، فمن كان كافراً سقاه في الاواني ، ومن كان مسلماً سقاه بين يديه ولا يزال يصب له حتى يشير له ان يكف .

وعادة الكفار ببلاد المليبار ان لا يدخل المسلم دورهم ولا يطعم في آنيتهم ، فان طعم فيها كسروها او اعطوها للمسلمين ، واذا دخل المسلم موضعاً منها لا يكون فيه دار للمسلمين ، وطبخوا له الطعام وصبوه له على اوراق الموز وصبوا عليه الادام ، وما فضل عنه يأكلونه الكلاب

والطير ، وفي جميع المنازل بهذا الطريق ديار المسلمين ينزل عندهم المسلمون ، فيبيعون منهم جميع ما يحتاجون اليه ويطبخون لهم الطعام ، ولولاهم لما سافر فيه مسلم ، وهذا الطريق الذي ذكرنا انه مسيرة شهرين ، ليس فيه موضع شبر فما فوقه دون عمارة ، وكل انسان له بستانه على حدة وداره في وسطه ، وعلى الجميع حائط خشب ، والطريق يمر في البساتين ، فاذا انتهى الى حائط بستان ، كان هنالك درج خشب يصعد عليها ، ودرج آخر ينزل عليها الى البستان الآخر ، هكذا مسيرة الشهرين ، ولا يسافر احد في تلك البلاد بدابة ، ولا تكون الخيل الا عند السلطان ، واكثر ركوب اهلها في دولة على رقاب العبيد او المستأجرين ، ومن لم يركب في دولة مشى على قدميه كائناً من كان ، ومن كان له رحل او متاع من تجارة وسواها ، اكترى رجالاً يحملونه على ظهورهم ، فترى هنالك التاجر ومعه المائة فما دونها او فوقها يحملون امتعته ، وبيد كل واحد منهم عود غليظ له زج حديد وفي اعلاه مخطاف حديد ، فاذا اعيا ولم يجد دكانة يستريح عليها ركز عوده بالارض وعلق حمله فيه ، فاذا استراح اخذ حمله من غير معين ومضى به ، ولم أر طريقاً آمن من هذا الطريق ، وهم يقتلون السارق على الجوزة الواحدة ، فاذا سقط شيء من الثمار لم يلتقطه احد حتى يأخذه صاحبه .

واخبـرت ان بعض الهنود مـرّوا على الـطريق ، فـالتقط احدهم جوزة وبلغ خبـره الى الحاكم ، فـامر بعـود فركـز في الأرض ، وبري طرفه الاعلى ، وادخـل في لوح خشب حتى برز منه ، ومـد الرجـل على اللوح وركـز في العود وهـو على بطنه حتى خرج من ظهره وترك عبرة للنـاظرين ، ومن هـذه العيدان على هذه الصورة بتلك الطرق كثيراً ، ليراها الناس فيتعظموا ، ولقد كنا نلقى الكفار بالليـل في هذه الـطريق ، فـاذا رأونا تنحـوا عن الطريق حتى نجـوز ، والمسلمون اعـز الناس بها ، غير انهم كما ذكرناه لا يؤاكلـونهم ولايدخلونهم دورهم .

سلاطين المليبار :

وفي بـلاد المليبار اثني عشـر سلطاناً من الكفـار ، منهم القـوي الـذي يبلغ عسكـــره خمسين الفـاً ، ومنهم الضعيف الـذي عسكـــره ثـلاثـة الاف ، ولا فتنـة بينهم البتـة ، ولا يطمع القـوي منهم في انتزاع مـا بيد الضعيف ، وبـين بلاد احدهم وصاحبـه باب خشب ، منقـوش فيه اسم الـذي هو مبدأ عمالته ، ويسمونه باب امـان فلان ، واذا فـر مسلم او كـافـر بسبب جنـايـة من بـلاد احـدهم ووصـل بـاب امـان الآخر ، آمن على نفسه ولم يستطع الذي هرب عنـه اخذه ، وان كان القوي صاحب العدد والجيوش . . .

وسلاطين تلك البلاد يورثون ابن الاخت ملكهم دون اولادهم ، ولم أر من يفعل ذلك الا مسوفة اهل الثلم . . فاذا اراد السلطان من اهل بلاد المليبار منع الناس من البيع والشراء ، امر بعض غلمانه فعلق على الحوانيت بعض اغصان الاشجار بأوراقها ، فلا يبيع احد ولا يشتري ما دامت عليها تلك الاغصان .

الفلفل :

وشجرات الفلفل شبيهة بدوالي العنب ، وهم يغرسونها ازاء النارجيل ، فتصعد فيها كصعود الدوالي ، الا انها ليس لها عسلوج وهو الغزل كما للدوالي ، واوراق شجره تشبه آذان الخيل ، وبعضها يشبه اوراق العليق ، ويثمر عناقيداً صغاراً حبها كحب ابي قنينة اذا كانت خضراء ، واذا كان اوان الخريف قطفوه ، وفرشوه على الحصر في الشمس كما يصنع بالعنب عند تزبيبه ، ولا يزالون يقلبونه حتى يستحكم يبسه ويسود ، ثم يبيعونه من التجار ، والعامة ببلادنا يزعمون انهم يغلونه بالنار ، وبسبب ذلك يحدث فيه التكديش ، وليس كذلك وانما يحدث ذلك فيه بالشمس ، ولقد رأيته بمدينة قالقوط يصب للكيل كالذرة ببلادنا .

مدينة ابي سرور :

واول مدينة دخلناها من بلاد المليبار مدينة ابي سرور ، وهي صغيرة على خور كبير ، كثيرة اشجار النارجيل، وكبير المسلمين بها الشيخ جمعة المعروف بأبي ستة ، احد الكرماء انفق امواله على الفقراء والمساكين .

مدينة فاكنور :

وبعد يومين منها وصلنا الى مدينة فاكنور ، مدينة كبيرة على خور ، بها قصب السكر الكثير الطيب الذي لا مثيل له بتلك البلاد ، وبها جماعة من المسلمين يسمى كبيرهم بحسين السلاط ، وبها قاض وخطيب ، وعمر بها حسين المذكور مسجداً لاقامة الجمعة ، وسلطان فاكنور كافر اسمه باسدو ، وله نحو ثلاثين مركباً حربياً قائدها مسلم يسمى لولا . وكان من المفسدين يقطع بالبحر ويسلب التجار ، ولما ارسينا على فاكنور بعث سلطانها الينا ولده ، فاقام بالمركب كالرهينة ونزلنا اليه ، فاضافنا ثلاثاً باحسن ضيافة ، تعظيماً لسلطان الهند وقياماً بحقه ، ورغبة فيما يستفيده في التجارة مع اهل مراكبنا ، ومن عادتهم هنالك ان كل مركب يمر ببلد، فلا بد من ارسائه بها، واعطائه هدية لصاحب البلد يسمونها حق البندر ، ومن لم يفعل ذلك خرجوا في اتباعه بمراكبهم ، وادخلوه المرسى قهراً ، وضاعفوا عليه المغرم ،

ومنعوه عن السفر ما شاؤ وا .

مدينة منجور[1] :

وسافرنا منها فوصلنا بعد ثلاثة أيام مدينة منجور ، مدينة كبيرة على خور يسمى خور الدنب ، وهو اكبر خور ببلاد المليبار ، وبهذه المدينة ينزل معظم تجار فارس واليمن ، والفلفل والزنجبيل بها كثير جداً (وسلطانها) هو اكبر

---

(١) تدعى الآن Mangalore منغلور ، وذكرناها في التعليق ، وكانت ايام الانجليز فرضة تابعة لولاية جوناكره وكان بها امير من المسلمين يقال له شيخ منجرور وهو تابع لنواب جوناكره وذكرها صاحب تقويم البلدان / ٣٥٣ ، وتابعة الآن لولاية كرناتكا ، واهلها اكثر الناس شبهاً وقرباً للمليباريين غير ان اللغة فيها هي الكنارية (Kaannada) التي تحتوي على عدد غير قليل من الالفاظ العربية والفارسية ، يقارب عدد السكان الى مليونين نسمة من بينهم ٣٠٠ الف مسلم ، سدسهم في المدينة والبقية في القرى والارياف وفي مركز المدينة (٢٠) جامع تقام فيه الجمعة والجماعة وكلهم على المذهب الشافعي واشهر محلات المدينة التي يكثر بها المسلمون محلة كدرولي Kudroli [illegible] Bandr والاخيرة تقع على البحر العربي ومن ساحلها ذهبنا بواسطة البحر الى جزيرة اسلامية تدعى (بنكرة كسبا) ويتصدى (جماعت اسلامي) و (مسلم ليك) للنشاط الإسلامي في منغلور ، وضواحيها ، وللجماعة الاسلامية فرع نشط هناك ، وعندهم مجلة (سنمارك) الاسبوعية الكنارية مديرها الصديق ابراهيم سعيد ، ورئيس الفرع الاخ محمد شريف ، ومن اعضائها مولانا (ابو الريحان احمد نوري) الذي اهدانا من جهوده ترجمته القرآن الكريم الى اللغة الكنارية .

سلاطين تلك البلاد ، واسمه (رام دو) وبها نحو اربعة آلاف من المسلمين ، يسكنون ربضاً بناحية المدينة ، وربما وقعت الحرب بينهم وبين اهل المدينة ، فيصلح السلطان بينهم لحاجته الى التجار ، وبها قاض من الفضلاء الكرماء شافعي المذهب يسمى بدر الدين المعبري ، وهو يقريء العلم ، صعد الينا الى المركب ، ورغب منا في النزول الى بلده ، فقلنا : « حتى يبعث السلطان ولده يقيم بالمركب » فقال : « انما فعل ذلك سلطان فاكنوز لانه لا قوة للمسلمين في بلده واما نحن فالسلطان يخافنا » فابينا عليه إلا ان بعث السلطان ولده ، فبعث ولده كما فعل الآخر ، ونزلنا اليهم ، واكرمونا اكراماً عظيماً ، واقمنا عنده ثلاثة ايام .

مدينة هيلي[1] :

ثم سافرنا الى مدينة هيلي ، فوصلناها بعد يومين ، وهي كبيرة حسنة العمارة على خور عظيم تدخله المراكب الكبار ، والى هذه المدينة تنتهي مراكب الصين ، ولا تدخل الا مرساها ومرسى كولم وقالقوط ، ومدينة هيلي معظمة عند

---

(١) وراء منجرور بثلاثة ايام جبل عظيم داخل البحر يرى للمسافرين من بعد ويسمى راس هيلي بفتح الهاء وسكون المثناة التحتية وكسر اللام ثم ياء مثناة تحتية في الآخر . تقويم البلدان / ٣٥٣ .

المسلمين والكفار بسبب مسجدها الجامع ، فانه عظيم البركة مشرق النور ، وركاب البحر ينذرون له النذور الكثيرة ، وله خزانة مال عظيمة تحت نظر الخطيب حسين وحسن الوزان كبير المسلمين ، وبهذا المسجد جماعة من الطلبة يتعلمون العلم ولهم مرتبات من مال المسجد ، وله مطبخة فيها الطعام للواردوالصادر ولاطعام الفقراء من المسلمين بها ، ولقيت بهذا المسجد فقيها صالحاً من اهل مقدشو يسمى سعيداً ، حسن اللقاء والخلق يسرد الصوم ، ويذكر لي انه جاور بمكة اربع عشرة سنة ومثلها بالمدينة ، وادرك الامير بمكة ابانمي والامير بالمدينة منصور بن جماز ، وسافر في بلاد الهند والصين .

مدينة جرفتن :

ثم سافرنا من هيلي الى مدينة جرفتن ، وبينها وبين هيلي ثلاثة فراسخ ، ولقيت بها فقيهاً من اهل بغداد كبير القدر يعرف بالصرصري ، نسبة الى بلدة على مسافة عشرة اميال من بغداد في طريق الكوفة ، واسمها كاسم صرصر التي عندنا بالمغرب ، وكان له اخ بهذه المدينة كثير المال ، له اولاد صغار اوصى اليه بهم ، وتركته آخذاً في حملهم الى بغداد ، وعادة اهل الهند كعادة السودان لا يتعرضون لمال

الميت ولـو ترك الآلاف ، انمـا يبقى مالـه بيد كبـير المسلمين حتى يأخذه مستحقه شرعـاً . (وسلطانها) يسمى بكويـل ، وهو من اكبر سلاطين المليبار ، وله مـراكب كثيرة تسـافر الى عمان وفارس واليمن ، ومن بلاده ده فتن وبدفتن .

مدينة ده فتن :

وسرنا من جرفتن الى مدينة ده فتن ، وهي مدينة كبيرة على خور ، كثيرة البساتين ، وبها النارجيل والفلفل والفوفـل والتنبول ، وبها القلقاس الكثير ويـطبخون بـه اللحم ، واما الموز فلم ار في البلاد اكـثر منه بهـا ولا ارخص ثمن ، وفيها الباين الاعظم ، وطوله خمسمائة وعرضه ثـلاثمائـة خطوة ، وهو مطوي بالحجارة الحمـر المنحوتـة ، وعلى جـوانبه ثمـان وعشـرون قبة من الحجـر ، وفي كـل قبـة اربـع مجـالس من الحجر ، وكل قبة يصعد اليها على درج حجارة ، وفي وسطه قبة كبيرة من ثـلاث طبقات ، في كـل طبقة اربـع مجالس ، وذكـر لي ان والد هـذا السلطان كويـل هو الـذي عمر هـذا الباين وبازائه مسجد للمسلمين ، وله ادراج ينـزل منها اليـه فيتـوضـأ منـه النـاس ويغتسلون . وحدثني الفقيه حسـين ان الذي عمَّر المسجد والباين ايضاً هو احد اجداد كويل ، وانه مسلماً ولاسلامه خبـر عجيب نذكـره . ورأيت انا بـازاء هذا

الجامع شجرة خضراء ناعمة ، تشبه اوراقها اوراق التين الا انها لينة وعليها حائط يطيف بها ، وعندها محراب صليت فيه ركعتين ، واسم هذه الشجرة عندهم درخت الشهادة .

واخبرت هنالك انه اذا كان زمان الخريف من كل سنة ، تسقط من هذه الشجرة ورقة واحدة بعد ان يستحيل لونها الى الصفرة ثم الى الحمرة ، ويكون فيها مكتوباً بقلم القدرة « لا اله الا الله محمد رسول الله » . واخبرني الفقيه حسين وجماعة من الثقات ، انهم عاينوا هذه الورقة وقرأوا المكتوب فيها . واخبرني انه اذا كانت ايام سقوطها ، قعد تحتها الثقات من المسلمين والكفار ، فاذا سقطت اخذ المسلمين نصفها وجعل نصفها في خزانة السلطان الكافر وهم يستشفون بها للمرضى ، وهذه الشجرة كانت سبب اسلام جد كويل الذي عمّر المسجد والباين ، فانه كان يقرأ الخط العربي فلما قرأها وفهم ما فيها اسلم وحسن اسلامه ، وحكايته عندهم متواترة ، وحدثني الفقيه حسين ان احد اولاده كفر بعد ابيه وطغى ، وامر باقتلاع الشجرة من اصلها ، فاقتلعت ، ثم انها نبتت بعد ذلك ، وعادت كأحسن ما كانت عليه ، وهلك الكافر سريعاً .

مدينة بدفتن :

ثم سافرنا الى مدينة بدفتن ، وهي مدينة كبيرة على

خور كبير ، وبخارجها مسجد بمقربة من البحر يأوي اليه غرباء المسلمين ، لأنه لا مسلم بهذه المدينة ، ومرساها من احسن المراسي ، وماؤها عذب ، والفوفل بها كثير ومنها يحمل للهند والصين ، واكثر اهلها براهمة ، وهم معظمون عند الكفار ، مبغضون في المسلمين ، ولذلك ليس بينهم مسلم . اخبرت ان سبب تركهم هذا المسجد غير مهدوم ، ان احد البراهمة خرب سقفه ليصنع منه سقفاً لبيته ، فاشتعلت النار في بيته ، فاحترق هو واولاده ومتاعه ، فاحترموا هذا المسجد ، ولم يتعرضوا له بسوء بعدها وخدموه ، وجعلوا بخارجه الماء يشرب منه الصادر والوارد ، وجعلوا على بابه شبكة لئلا يدخله الطير .

مدينة فندرينا :

ثم سافرنا من مدينة بدفتن الى مدينة فندرينا ، مدينة كبيرة ، ذات بساتين واسواق ، وبها للمسلمين ثلاث محلات ، وفي كل محلة مسجد ، والجامع بها على الساحل وهو عجيب ، له مناظر ومجالس على البحر ، وقاضيها وخطيبها رجل من اهل عمان ، وله اخ فاضل ، وبهذا البلد تشتو مراكب الصين .

مدينة قالقوط[1] :

(١) هي العاصمة القلمية والتجارية الشهيرة للمليبار ، ويأتي ذكرها مفصلاً =

ثم سافرنا منها الى مدينة قاليقوط ، وهي احدى البنادر العظام ببلاد المليبار يقصدها اهل الصين والجاوة وسيلان والمهل واهل اليمن وفارس ويجتمع بها تجار الآفاق ومرساها من اعظم مراسي الدنيا ، وسلطانها كافر يعرف بالسامري ، شيخ مسن يحلق لحيته كما يفعل طائفة من الروم ، رأيته بها ، وسنذكره ان شاء الله ، وامير التجار بها ابراهيم شاه بندر من اهل البحرين ، فاضل ذو مكارم يجتمع اليه التجار ويأكلون في سماطه ، وقاضيها فخر الدين عثمان ، فاضل كريم ، وصاحب الزاوية بها الشيخ شهاب الدين الكازروني نفع الله به ، وبهذه المدينة الناخوذة مثقال الشهير الاسم ، صاحب الاموال الطائلة والمراكب الكثيرة لتجارته بالهند والصين واليمن وفارس ، .

ولما وصلنا الى هذه المدينة خرج الينا ابراهيم شاه بندر ، والقاضي ، والشيخ شهاب الدين ، وكبار التجار ، ونائب السلطان الكافر المسمى بقلاج ، ومعهم الاطبال والانفار والابواق والاعلام في مراكبهم ، ودخلنا المرسى في بروز عظيم ، ما رأيت مثله بتلك البلاد ، فكانت فرصة تتبعها ترحة ، واقمنا بمرساها ، وبه يومئذ ثلاثة من مراكب الصين ، ونزلنا بالمدينة ، وجعل كل واحد منا في دار واقمنا

= في التعاليق .

ننتظر زمان السفر الى الصين ثلاثة اشهر ونحن في ضيافة الكافر .

ولما حان وقت السفر الى الصين ، جهز لنا السلطان جنكا من الجنوك الثلاث عشرة التي بمرسى قالقوط ، وكان وكيل الجنك يسمى بسليمان الصفدي الشامي ، وبيني وبينه معرفة ، فقلت له : « اريد مصرية لا يشاركني فيها احد لاجل الجواري ، ومن عادتي ان لا اسافر الا بهن » فقال : « ان تجار الصين قد اكثروا المصاري ذاهبين وراجعين ، ولصهري مصرية اعطيكها ، لكنها لا سنداس فيها ، وعسى ان تمكن معاوضتها » . فامرت اصحابي فاوسقوا ما عندي من المتاع ، وصعد العبيد والجواري الى الجنك وذلك في يوم الخميس ، واقمت لاصلي الجمعة والحق بهم . وصعد الملك سنبل وظهير الدين مع الهدية ، ثم ان فتى لي يسمى بهلال أتاني غدوة الجمعة ، فقال : « ان المصرية التي اخذنا بالجنك ضيقة لا تصلح » فذكرت ذلك للناخوذة ، فقال «ليست في ذلك حيلة ، فان احببت ان تكون في الكمكم ففيه المصاري على اختيارك » فقلت « نعم » وامرت اصحابي فنقلوا الجواري والمتاع الى الكمكم ، واستقروا به قبل صلاة الجمعة ، وعادة هذا البحر ان يشتد هيجانه كل يوم بعد العصر فلا يستطيع احد ركوبه ، وكانت الجنوك قد سافرت ، ولم يبق منها الا الذي فيه الهدية ، وجنك عزم

اصحابه على ان يشتوا بفندرينا ، والكمكم المذكور ، فبتنا ليلة السبت على الساحل ، لا نستطيع الصعود الى الكمكم ، ولا يستطيع من فيه النزول الينا ، ولم يكن بقي معي الا بساط افترشه ، واصبح الجنك والكمكم يوم السبت على بعد من المرسى ، ورمى البحر الجنك الذي كان اهله يريدون فندرينا فتكسر ، ومات بعض اهله وسلم بعضهم ، وكانت فيه جارية لبعض التجار عزيزة عليه ، فرغب في اعطاء عشرة دنانير ذهباً لمن يخرجها ، وكانت قد التزمت خشبية في مؤخر الجنك ، فانتدب لذلك بعض البحرية الهرمزيين فأخرجها وابى ان يأخذ الدنانير ، وقال « انما فعلت ذلك لله تعالى »ورمى البحر بالجنك الذي كانت فيه الهدية فمات جميع من فيه ، ونظرنا عند الصباح الى مصارعهم ، ورأيت ظهير الدين قد انشق رأسه وتناثر دماغه ، والملك سنبل قد ضرب مسمار في احد صدغيه ونفذ من الآخر ، وصلينا عليهما ودفناهما .

ورأيت الكافر سلطان قالقوط وفي وسطه شقة بيضاء كبيرة ، قد لفّها من سرته الى ركبته ، وفي رأسه عمامة صغيرة ، وهو حافي القدمين ، والشطر بيد غلام فوق رأسه ، والنار توقد بين يديه في الساحل ، وزبانيته يضربون الناس لئلا ينتهبوا ما يرمي البحر ، وعادة بلاد المليبار ان كل ما انكسر من مركب يرجع ما يخرج منه للمخزن ، الا

في هذا البلد خاصة فان ذلك يأخذه اربابه ، ولذلك عمرت وكثر تردد الناس اليها ، ولما رأى اهل الكمكم ما حدث على الجنك رفعوا قلعهم وذهبوا ، ومعهم جميع متاعي وغلماني وجواري ، وبقيت منفرداً على الساحل ليس معي الا فتى كنت اعتقته ، فلما رأى ما حل بي ذهب عني ، ولم يبق عندي الا العشرة الدنانير التي اعطانيها الجوكي والبساط الذي كنت افترشه . واخبرني الناس ان ذلك الكمكم لا بد ان يدخل مرسى كولم ، فعزمت على السفر اليها ، وبينهما مسيرة عشرة في البر او في النهر ايضاً لمن اراد ذلك ، فسافرت في النهار ، واكتريت رجلاً من المسلمين يحمل لي البساط ، وعادتهم اذا سافروا في ذلك النهر ، ان ينزلوا بالعشي فيبيتوا بالقرى التي على حافتيه ، ثم يعودوا الى المركب بالغدو ، فكنا نفعل ذلك ، ولم يكن بالمركب مسلم الا الذيّ اكتريته ، وكان يشرب الخمر عند الكفار اذا نزلنا ويعربد علي فيزيد تغير خاطري .

كنجي كري :

ووصلنا في اليوم الخامس من سفرنا الى كنجي كري ، وهي باعلى جبل هنالك ، يسكنها اليهود ، ولهم امير منهم ، ويؤدون الجزية لسلطان كولم .

وجميع الاشجار التي على هذا النهر اشجار القرفة

والبقم ، وهي حطبهم هنالك ومنها كنا نقد النار لطبخ طعامنا في ذلك الطريق .

مدينة كولم[1] :

وفي اليوم العاشر وصلنا الى مدينة كولم ، وهي احسن بلاد المليبار ، واسواقها حسان ، وتجارها يعرفون بالصوليين، لهم اموال عريضة ، يشتري احدهم المركب بما فيه ويوسقه من داره بالسلع ، وبها من التجار المسلمين جماعة كبيرهم علاء الدين الاوجي ، من اهل آوة من بلاد العراق ، وهو رافضي ومعه اصحاب له على مذهبه وهم يظهرون ذلك . وقاضيها فاضل من اهل قزوين ، وكبير المسلمين بها محمد شاه بندر ، وله اخ فاضل كريم اسمه تقي الدين ، والمسجد الجامع بها عجيب ، عمَّره التاجر خواجه مهذب ، وهذه المدينة اول ما يوالي الصين من بلاد المليبار ، واليها يسافر اكثرهم ، والمسلمون بها اعزة محترمون . وسلطانها كافر يدعى بالتيروري ، وهو معظم عند المسلمين ، وله احكام شديدة على السراق والدعار ، ومما شاهدت بكولم ان بعض

(١) تقويم/٣٥٢، معجم الامكنة التي لها ذكر في نزهة الخواطر/٤٥، وقد مر بها الرحالة ماركو بولو ايضاً وسماها (كوئيلم) وكانت تتبع ولاية تراونكور أيام الانجليز ،وتقع على ساحل البحر ٨ درجات و٥٣ دقيقة من العرض الشمالي ٧٦ درجة و ٣٦ دقيقة من الطول الشرقي .

الرماة العراقيين قتل اخر منهم ، وفرّ الى دار الآوجي وكان له مال كثير ، واراد المسلمون دفن المقتول ، فمنعهم نواب السلطان من ذلك ، وقالوا : « لا يدفن حتى تدفعوا لنا قاتله فنقتله به ! » وتركوه في تابوته على باب الآوجي حتى انتن وتغير ، فمكنهم الآوجي من القاتل ، ورغب منهم ان يعطيهم امواله ويتركوه حياً ، فآبوا ذلك وقتلوه ، وحينئذ دفن المقتول .

واخبرت ان سلطان كولم ركب يوماً الى خارجها ، وكان طريقه فيما بين البساتين ومعه صهره زوج ابنته ، وهو من ابناء الملوك ، فاخذ حبة واحدة من العنبة سقطت من بعض البساتين ، وكان السلطان ينظر اليه ، فامر به عند ذلك فوسط وقسم نصفين ، وصلب نصفه على يمين الطريق ونصفه الآخر عن يساره ، وقسمت حبة العنبة نصفين فوضع على كل نصف منها ، وترك عبرة للناظرين .

ومما اتفق نحو ذلك ان ابن اخي للنائب عن سلطانها ، غصب سيفاً لبعض تجار المسلمين ، فشكا بذلك الى ابن عمه ، فوعده بالنظر في امره ، وقعد على باب داره ، فاذا بابن اخيه متقلد ذلك السيف ، فدعاه فقال : « هذا سيف المسلم ؟ » قال « نعم » قال « اشتريته منه ؟ » قال « لا » فقال لاعوانه « امسكوه » . ثم امر به فضربت عنقه بذلك السيف ، واقمت بكولم مدة بزاوية الشيخ فخر الدين بن

الشيخ شهاب الدين الكازروني شيخ قالقـوط ، فلم اتعرف للكمكم خبراً ، وفي اثناء مقامي بها ، دخل اليها ارسال ملك الصين الذين كانوا معنا ، وكانوا ركبوا في احـد تلك الجنوك فانكسر ايضاً ، فكساهم تجـار الصين وعـادوا الى بلادهـم ، ولقيتهم بهـا بعد ، واردت ان اعـود من كولم الى السلطـان لأعلمه بمـا اتفق عـلى الهـديـة ، ثم خفت ان يتعقب فعـلي ويقـول : « لم فـارقت الهـديـة ؟ » فعـزمت عـلى العـودة الى السلطان جمال الدين الهنوري ، واقيم عنده حتى اتعرف خبر الكمكم .

العودة الى قالقوط وهنور :

فغـدت الى قـالقــوط ، ووجـدت بهــا بعض مـراكب السلطان ، فبعث فيهـا اميـراً من العـرب يعـرف بالسيد ابي الحسن ، وهو من البرد دارية وهم خواص البـوابين ، بعثـه السلطان بـأموال يستجلب بهـا من قدر عليـه من العرب من ارض هرمز والقطيف لمحبته في العـرب ، فتوجهت الى هـذا الأمير ، ورأيته عازماً على ان يشتو بقالقوط ، وحينئذ يسـافر الى بـلاد العرب ، فشـاورتـه في العـودة الى السلطان ، فلم يوافق على ذلك .

فسافرت بالبحر من قالقوط ، وذلـك آخر فصـل السفر فيـه ، فكنا نسـير نصف النهار الاول ثم نـرسوا الى الغـد ،

ولقينا في طريقنا اجفان غزوية فخفنا منها ، ثم لم يعرضوا لنا بشر .

ووصلت الى مدينة هنور ، فنزلت الى السلطان وسلمت عليه ، فانزلني بدار ولم يكن لي خديم ، وطلب مني ان اصلي معه الصلوات ، فكان اكثر الوقت في مسجده ، وكنت اختم القرآن كل يوم ، ثم كنت اختم مرتين في اليوم ، ابتدىء القراءة بعد صلاة الصبح فاختم عند الزوال ، واجدد الوضوء وابتدىء القراءة فاختم الختمة الثانية عند الغروب ، ولم ازل كذلك مدة ثلاثة اشهر ، واعتكفت فيها اربعين يوماً ، وكان السلطان جمال الدين قد جهز مائتين وخمسين مركباً وسفرته ، برسم غزو سندابور ، وكان وقع بين سلطانها وولده خلاف ، فكتب ولده الى السلطان جمال الدين ان يتوجه لفتح سندابور ، ويسلم الولد الذكور ويزوجه السلطان اخته ، فلما تجهزت المراكب ظهر لي ان اتوجه فيها الى الجهاد ففتحت المصحف انظر فيه فكان في اول الصفح : « يذكر فيها اسم الله كثيراً ، ولينصرن الله من ينصره » فاستبشرت بذلك ، واتى السلطان الى صلاة العصر ، فقلت له : « اني اريد السفر » فقال : « فانت إذاً تكون اميرهم » فاخبرته بما خرج لي في اول الصفح ، فاعجبه ذلك وعزم على السفر بنفسه ، ولم يكن ظهر له ذلك قبل .

غزو سندابور :

فركب مركباً منها وانا معه ، وذلك في يوم السبت ، فوصلنا عشي الاثنين الى سندابور ودخلنا خورها ، فوجدنا اهلها مستعدين للحرب ، وقد نصبوا المجانيق ، فبتنا عليها تلك الليلة ، فلما اصبح رأيت حجراً اصاب بعض الواقفين بمقربة من السلطان . ورمى اهل المراكب انفسهم في الماء وبأيديهم الترسة والسيوف .

ونزل السلطان الى العكيري وهو شبه الشلير ، ورميت بنفسي في الماء في جملة الناس ، وكان عندنا طريدتان مفتوحتي المواخر فيها الخيل ، وهي بحيث يركب الفارس فرسه في جوفها ويتدرع ويخرج ، ففعلوا ذلك ، واذن الله في فتحها ، وانزل النصر على المسلمين ، فدخلنا بالسيف ، ودخل معظم الكفار في قصر سلطانهم ، فرمينا النار فيه ، فخرجوا وقبضنا عليهم ، ثم ان السلطان امنهم وردَّ لهم نساءهم واولادهم ، وكانوا نحو عشرة آلاف ، واسكنهم بربض المدينة ، وسكن السلطان القصر ، واعطى الديار بمقربة منه لاهل دولته ، واعطاني جارية منهن تسمى (لمكي) فسميتها (مباركة) ، واراد زوجها فداءها فأبيت ، وكساني فرجية مصرية وجدت في خزائن الكافر ، واقمت عنده بسندا بور من يوم فتحها وهو الثالث عشر لجمادي الاولى الى منتصف شعبان ، وطلبت منه الاذن في السفر ،

فاخذ عليَّ العهد في العودة اليه .

السفر من سندابور ومغادرة المليبار :

وسافرت في البحر الى هنور ، ثم الى فاكنور ، ثم الى منجرور ، ثم الى هيلي ، ثم الى جرفتن وده فتن وبدفتن وفندرينا وقالقوط ، وقد تقدم ذكر جميعها .

ثم الى مدينة الشاليات ، مدينة من حسان المدن ، تصنع بها الثياب المنسوبة لها ، واقمت بها ، فطال مقامي .

فعدت الى قالقوط ، ووصل اليها غلامان كانا لي بالكمكم، فاخبراني ان الجارية التي كانت حاملاً ، وبسببها كان تغير خاطري توفيت ، واخذ صاحب الجاوة سائر الجواري ، واستولت الايدي على المتاع ، وتفرق اصحابي الى الصين والجاوة وبنجالة .

فعدت لما تعرفت هذا الى هنور ، الى سندابور ، فوصلتها في آخر المحرم ، واقمت بها الى الثاني من شهر ربيع الآخر ، وقدم سلطانهم الكافر الذي دخلنا عليه برسم اخذها وهرب اليه الكفار كلهم ، وكانت عساكر السلطان متفرقة في القرى فانقطعوا عنّا وحصرنا الكفار ، وضيقوا علينا ، ولما اشتد الحال خرجت عنها وتركتها محصورة ، وعدت الى قالقوط ، وعزمت على السفر الى ذيبة المهل ،

وكنت اسمع بأخبارها .



البرتغاليون في المليبار :

اشتقت كلمة برتغال من (بروتوس كاله) او (بورتوكاله) نسبة الى مدينة بورتو احد مرافيء تلك البلاد ، واول من استعمل هذه الكلمة الكاتب (هيداسيو) في القرن الخامس ، فكانت الرسائل والوثائق وقتئذ تكتب باللغة الحوشية حتى اواخر القرن السادس عشر ، وتطورت هذه اللغة تدريجياً وحلت بجدتها محل اللاتينية القديمة في الشعر والخطابة والادب ، ثم ضبطت قواعدها وتصاريفها وافعالها وماشت اللغة الاسبانية جنباً الى جنب .

اما اصل البرتغاليين فمما لا شك فيه ان معظم البرتغاليين حالياً هو من اصل لاتيني والشعب البرتغالي يقول انه احدوثة نخلفات اليونان ، على اعتبار ان اللغة اللاتينية والثقافة الرومانية احتلتا المكانة الاولى في طول البلاد وعرضها .

وتقع البرتغال ـ وكانت تعرف قديماً (بلوشيتانيا) ويلتقي على ارضها الافريقيون كالليبيين والبربر بالآريين

والسلت الاوروبيين - في شمالي شرق الجزيرة الايبيرية (اسبانيا) وقد اصابها ما اصاب الجزيرة فاستولى عليها الفينيقيون والقرطاجنيون واليونان والرومان ، وفي عهد اغسطس احد اباطرة هؤلاء شيدت مدينة ماردة على شرفه وجعلتها عاصمة البلاد . وبعد ان فتح موسى بن نصير اشبيلية مشى على ماردة واحل شلب محلها قاعدة الغرب الاندلسي . وفي عهد الولاة بنو وزير من اليمن بشلب وباجه ، واقطع غيرهم من العرب والبربر ولشبونه وشنتمرين ، ثم اعيد توزيعها على السوريين والاردنيين والمصريين عندما انتقلوا اليها .

ولما قامت الدولة الاموية اخمدت ثورة باجه وكانت تدعو للعباسيين ، وردت قرصان الشمال عن لشبونه والقصر ، وقضت على الامراء والمولدين ، وكانوا من الاسبان القوط قد اعتنقوا الاسلام ، وطمعوا في حكم إماراتهم ، ثم اجتاحها المنصور في حملاته على غاليسيا وسانتياغوواستعادها المرابطون من ألفونسو السادس ملك ليون وقشتالة بعد هزيمته في وقعة الزلاقة (١٠٨٦) شنتمرين ولشبونة وشنتره .

وتزوج هنري البورغندي من تيريزا بنت ألفونسوا السادس فاقامه كونتاً على البرتغال (١٩٠٣ - ١١١٢) وخلفه ، بعد انشقاق بين النبلاء ، ابنه الفونسوا الاول (١١١٢ - ١١٨٥)فهز المرابطين في وقعة الارك (١١٣٩) وافاد

من ثورة ابن قسي عليهم ، ومرور الصليبيين به لاسترجاع شنتمرين ، ثم لشبونه (١١٤٧) ، وخلفه ابنه شانجه الاول (١١٨٥ ـ ١٢١١) فحمل بالصليبيين الالمان والانجليز واهل الفلاندر على شلب فاستسلمت لهم عطشاً وخرج قائدها عيسى بن ابي حافظ بن علي ومن بقي معه منها مؤمنين على ارواحهم (١١٨٩) ثم استعادها المنصور بعد استعادته القصر وبالملا والمادا . وعاون الفونسوا الثاني (١٢١١ ـ ١٢٢٣) الاسبان على دحر الموحدين (١٢١٢) واستجاب لرغبة اسقف لشبونة في استرجاع القصر ، بمؤازرة احد الحملات الصليبية بعد معركة حامية (١٢١٧) وقنع شانجه الثالث (١٢٢٣ ـ ١٢٤٥) بما ورثه ، ولم يقنع الفونسو الثالث (١٢٤٥ ـ ١٢٧٩) فاسترجع من ابن محفوظ الغرب كله وضمَّه الى البرتغال (١٢٤٩) وانشأ الملك دينيس (١٢٧٩ ـ ١٣٢٥) جامعة لشبونه (١٢٩٠) وقرَّب علماء العرب وافاد من علومهم .

ثم ارتقى عميد منظمة دافيس العسكرية عرش البرتغال باسم جان الاول (١٣٨٥) وفي عهد اسرته فتح البرتغاليون سبتة (١٤١٥) طمعاً في انشاء امبراطورية فيما وراء البحار وتسيير السفن حول شاطيء افريقيا الغربية ، وفك حصار المسلمين عن الحبشة ، ومن سبتة انطلقوا الى القصر الصغير وطنجة ، وانبثوا في ثغور الشاطيء المغربي

واقاموا عليه القلاع ، وبلغوا منه جزر المديرا (١٤٢٠) واسور (١٤٢٧) وسنغاي على ضفاف النيجر (١٤٦٨) ورأس الرجاء الصالح[1] (١٤٨٦) ثم الهند ، وهكذا ترى ان البرتغاليين ولعوا ولعاً عجيباً بالاكتشافات الجغرافية يدفعهم في ذلك حرصهم على نشر النصرانية في الأراضي الاسلامية وحتى ان فرسان القديس يوحنا (وهم من البرتغاليين) كانوا يسيطرون على بعض الجزر في شرقي البحر المتوسط ، ويتمركزون في جزيرة رودس وكانوا يشنون الهجمات المتوالية على الموانيء الاسلامية وخاصة المصرية . وقاموا بكثير من اعمال القرصنة البحرية في مواجهة السفن الاسلامية ، وكانوا يعدون هذه الاعمال العدوانية من قبيل الجهاد الديني - وظلوا في جزيرة رودس حتى اجلاهم السلطان سليمان القانوني عنها سنة ١٥٢٢ م الى غرب البحر المتوسط وتركزوا في جزيرة مالطة ، الى ان قضى عليهم بونابرت وهو في طريقه الى مصر سنة ١٧٩٨ - .

والباعث الآخر لهذه الاكتشافات ، هو ان جميع

---

(١) كان اسمه قبل هذه التسمية (رأس العواصف) وذلك لكثرة ما به من عواصف ، ولكن ملك البرتغال اطلق عليه (راس الرجاء الصالح) وذلك بعد ان نجح البرتغاليون في اجتياره لأنه فتح باب الرجاء والامل امامهم في الوصول الى الهند .

البضائع التي كانت ترد اليهم من الهند او تصدر منهم اليه لا بد من مرورها بالبحر الابيض المتوسط ومصر والبحر الاحمر والمحيط الهندي ، وكان عبور هذا الطريق ممنوعاً في ذاك الوقت إلا على (اهل البندقية) لاحتكارهم له من قبل ظهور البرتغاليين وتقدمهم في فن الملاحة فكان من صالح البندقيين منع غيرهم من المرور منه ، ومن الدوافع الاصلية كذلك الحرص على احتكار تجارة التوابل ، ولكن بعد انقضاء مائة سنة اصبحت الرغبة في استيراد المنسوجات والشاي والسلع الإخرى هي الدافع الاكبر وتغير الحال بعد حدوث الثورة الصناعية في بريطانيا فاصبح الدافع القوي هو الرغبة في ايجاد اسواق لتصريف المصنوعات الاوروبية واخيراً صارت الرغبة في توظيف رؤوس الأموال الاوروبية هي الدافع الأول .

وكان الامير هنري الملقب بالملّاح ابن ملك البرتغال (١٤١٩ - ١٤٦٠) اول من فكر في البحث عن طريق موصل للهند بواسطة السياحة حول جنوب افريقية الذي كان يرسم في الخرائط القديمة منحنياً من الجهة الجنوبية من خليج غانة الى الشرق ، لأن العالم في ذاك الوقت كان لا يعرف شيئاً عن جنوب افريقية الى رأس الرجاء الصالح ، وقد أشار (بطليموس) الى ذلك في كتاباته ، فقد خال ان جنوب افريقية على شكل نصف دائرة من رأس (جوردافوي) الى

المحيط (الاطلانطيقي) الاطلسي ، واعتقد هذا الامير ان الوصول الى الهند بواسطة هذا الطريق يكون اقصر بكثير من غيره ، وحينئذ اخذ في تنفيذ هذا المشروع الخطير فبنى مدرسة كبيرة للملاحة في بلدة (سجرس) ، ودعا اليها اعاظم صانعي الخرائط وكبار الفلكيين والملاحين ، وبنى المراكب الكبيرة المزودة باحدث آلات الملاحة في ذلك الوقت ، وجعل في كل منها آلة البوصلة وآلة الاسطرلاب التي ادخل عليها الكثير من التحسينات ومن سنة (١٤١٨ ـ ١٤٦٠) ارسل الامير هنري كثيراً من البعثات للاكتشافات حول افريقية للوصول الى الهند ، وفيما يلي اهم الاكتشافات التي قام بها البرتغاليون[١] .

١ ـ زركو Toa Gonsalva Zarco اكتشف جزائر الماديرا سنة ١٤٢٠ .

٢ ـ جنزالوكبرال Gonzalo Cabral اكتشف جزيرة ازور للمرة الثانية سنة ١٤٣٢ .

٣ ـ نونو ترستاو Nuno — Tristao وصل الى جزائر

---

(١) في ميدان دراسة تاريخ البرتغال نفسها افضل ان احيل القارىء الى كتاب تاريخ البرتغال (كامبردج ١٩٤٧) الذي كتبه هـ . ف . ليفرمور ، وكذلك الى مقالة ليفرمور عن البرتغال والبرازيل (اكسفورد عام ١٩٥٣) .

الرأس الاخضر سنة ١٤٤٢ .

٤ ـ الفزكادا مستو Alvez Cadomosto وصل الى مصب نهر جامبيا سنة ١٤٥٥ .

٥ ـ ديوجوجومس Diago Gomez اكتشف جزائر الرأس الاخضر سنة ١٤٦٠ .

٦ ـ بدرو دي سنترا Pedro de Cintra وصل الى مملكة سيراليون سنة ١٤٦٢ .

٧ ـ فرنندويو Fernando PO ساح حول شاطيء جزيرة غانه سنة ١٤٧١ واكتشف جزيرة فرنندويو .

٨ ـ بدرودا سكوبار Pedro d'escobar اول اوروبي ساح حول نقطة الاستواء سنة ١٤٧١ .

٩ ـ دياجوكام Diago Cam اكتشف مصب نهر الكنغو سنة ١٤٨٤ .

١٠ ـ برتلوميو دياز Bartholomew Diaz ساح حول رأس الرجاء الصالح سنة ١٤٨٦

١١ ـ دياجودياز Diago Diaz وصل الى جزائر القمر او مدغشقر سنة ١٥٠٠ .

١٢ ـ ترستيان ديكيوبا Tristian d, Acuba اكتشف

الجزائر المسماة باسمه سنة ١٥٠١ .

١٣ ـ جوان دي نوفا Juan di Nova اكتشف جزيرة الصعود Ascension .

١٤ ـ مسكرنهس Mascarenhas اكتشف جزائر التوابل سنة ١٥١٢ .

١٥ ـ فرنسسكو سرو Francisco Serrao ارسل سنة ١٥١٢ على رأس بعثة برتغالية لاكتشاف جزائر التوابل وتم اكتشافها ودخلت تحت حكم البرتغال .

وباكتشاف رأس الرجاء الصالح أصبح الامل كبيراً في الوصول الى الهند عن طريق البحر ، وبدون المرور في الأراضي التي يسيطر عليها المسلمون ، وانتهزت البرتغال الفرصة وكونت حملة بقيادة فاسكو دا جاما Vasco da Gama[1] تحركت من البرتغال في الثامن من اغسطس سنة

---

(١) فاسكو دا جاما المكتشف البرتغالي (١٤٦٠ ـ ١٥٢٤ م) وهو رجل ارستقراطي مغمور ولد في ساينس في البرتغال واتيحت له فيها بعد شهرة عالمية عندما اكتشف الطريق البحرية المباشرة من اوروبا الى الهند بالابحار حول افريقيا ، شرع في رحلته على راس اربع سفن عدد بحارتها حوالي ١٧٠ رجلاً ومعهم مترجمون يجيدون اللغة العربية ، وقد غابت اليابسة عن سفن فاسكو لمدة ثلاثة وتسعين يوماً وهذه المدة تزيد مرتين ونصف عن مدة رحلة كولومبس ثم دار حول رأس الرجاء الصالح واتجه بعد ذلك شمالاً الى الساحل الشرقي الافريقي ، وفي =

١٤٩٧ متجهة الى الساحل الغربي لافريقية ، وبدأ رحلته من جزائر الراس الأخضر وعبر المحيط الأطلسي الجنوبي حتى وصل الى خليج سنت هيلانة (القديسة هيلانة) في الجهة الشمالية من رأس الرجاء الصالح وباتباعه هذا الطريق كان يقتدي بكريستوف كولمبس[١] في ابتعاده عن الشاطيء، ومر برأس الرجاء الصالح، ودخل مضيق موزمبيق حتى وصل مدينة مالندي في الجهة الشمالية من (ممباسا) وهناك تسنى له مصاحبة الملاح العربي المشهور احمد بن ماجد[٢] واستطاع مواصلة اكتشافات

= طريقه شمالاً صحب البحار العربي ابن ماجد الذي قاده مدة ٢٣ يوماً عبر البحر العربي الى الهند وبعد نزوله كاليكوت مدة يسيرة غادرها عائداً الى بلاده وبرهنت رحلة العودة انها اصعب من رحلة الذهاب الى الهند ، نقد استغرق عبور البحر العربي ثلاثة اشهر مات كثير من البحارة بسبب مرض الاسقربوط ، واخيراً وصلت سفينتان فقط سالمتين فقد وصلت الاولى البرتغال في ١٠ تموز ١٤٩٩ ولكن سفينة دا جاما وصلت بعدها بشهرين ، ولم ينج من البحارة خمسة وخمسون بحاراً وهذا العدد اقل من ثلث الذين بدأوا في الرحلة ومع ذلك عندما وصل داجاما الى لشبونة في ٩ ايلول ١٤٩٩ ، كان هو والملك يدركان ادراكاً تاماً ان رحلته التي استغرقت سنتين قد نجحت نجاحاً كبيرا ـ يراجع المتن ـ .

(١) اكتشف كريستوف كولمبس Christophe Colomb جزائر الهند الغربية ، بفضل مساعدة ملك الاسبان له .

(٢) شهاب الدين احمد بن ماجد السعدي النجدي بحار عربي شهير ، ولد =

= حوالي سنة ٨٣٦ هـ (١٤٣٢م) في بلدة جلفار - رأس الخيمة حالياً - التقى بفاسكو دا جاما بمدينة مالندي على الساحل الشرقي لافريقية وبعد هذا اللقاء قاد الاسطول البرتغالي في السواحل الشرقية لافريقيا الى الهند مباشرة فاجتاز البحر وطوله ٦٠٠ فرسخ في ٢٢ يوم دون ان يلقى في طريقه اي عقبة او مشقة حسب قول المؤرخ البرتغالي (كستاد نهيدا) ولابن ماجد مؤلفات عديدة في علم البحار ترجمت الى عدة لغات ومنها الفرنسية وترجمها لهذه اللغة المستشرق الفرنسي (غابرييل فرانس) وصدرها بهذا القول « مؤلفات ابن ماجد الملقب باسد البحر الهائج ربان فاسكو دي جاما الذي طاف حول الأرض » ونشر بعض هذه المؤلفات وعلق عليها المستشرق السوفيتي تيودور شوموفسكي والاخير ترجمه الى العربية الدكتور محمد منير مرسي (القاهرة ١٩٦٩) . وكان ممن ذكر صلة ابن ماجد بالبرتغاليين وانه كان دليلهم الى الهند المؤرخ قطب الدين محمد بن احمد النهروالي المكي (٩١٣ - ٩٩٠ هـ) في كتابه البرق اليماني في الفتح العثماني (دار اليمامة - السعودية ١٩٦٧ ومما ذكره (ص١٨) قال : وقع في اول القرن العاشر ، من الحوادث الفواجع النوادر دخول الفرتقال اللعين ، من طائفة الفرنج الملاعين الى ديار الهند (الى ان يقول) فلا زالوا يتوصلون الى معرفة هذا البحر ، الى ان دلهم شخص ماهر يقال له احمد بن ماجد صاحبه كبير الفرنج وكان يقال له (الى ملندي) وعاشره في السكر، فعلمه الطريق في حال سكره . . » . ونشرت مجلة العرب (الصادرة بالرياض) في سنتها الخامسة ، وفي عدة اعداد منها بحثاً مستفيضاً للسيد علي التاجر بعنوان (الربان احمد بن ماجد ، دفاع وتقييم) فند فيه ما ذكره النهروالي وغيره من ان ابن ماجد كان الدليل للبرتغاليين الى اكتشاف طريق الهند ، وكان ابن ماجد شاهداً على ما قام به البرتغاليون =

برتلوميودياز Barth olomew Diaz وبفضل ابن ماجد الذي كان يسترشد بكتاب (رهماني) الذي وضعه البحارة العرب الاوائل في علم البحار ، ليصل الى الساحل الشرقي لافريقية ويصف هايد (Heyd) رحلة فاسكو دي كاما الى الهند فيقول « وهبط ـ ملندة ـ حيث اخذ ما يلزمه من الزاد

= من افناء للسلاطين العرب في شرق افريقيا وتدعيم قبضتهم على الهند واندونيسيا وقد وضعت هذه السنون لبنة الاستعباد الاستعماري لشعوب جنوب آسية ومما قاله ابن ماجد ـ في بعض اراجيزه ـ عن وصول الاسطول البرتغالي مما يعبر عن بغضه لهم :

وجاء لكاليكوت خذ ذي الفائدة	عام تسعمائة وست زائدة
وباع فيها واشترى وحكما	والسامري برطله.وظلما
وسار فيها مبغض الاسلام	والناس في خوف واهتمام
يا ليت شعري ما يكون منهم	والناس معجبين من امرهم

وكانت وفاة ابن ماجد بعد سنة (٩٠٤ هـ / ١٤٩٨ م) .

(انظر مجموعة خطية لآثار ابن ماجد برقم ٣١١٤ بالمكتبة الظاهرية ـ دمشق ، وبروكلمان ملحق ٢ / ٢٣١ ، ويحى بن الحسين : غاية الاماني في اخبار القطر اليماني . القسم الثاني ص ٦٣٠ ـ ٦٣١ القاهرة ١٩٦٨ وكتاب ابن ماجد الملاح للدكتور انور عبد العليم سلسلة اعلام العرب ـ ٦٣ د ولنفس المؤلف بحث عن كتاب ابن ماجد المسمى (الفوائد في اصول علم البحر او القواعد) مجلة تراث الانسانية مجلد ٥ عدد ٤ ص ٢٧٤ . وكتاب ثلاث ازهار في معرفة البحار لشوموفسكي (القاهرة ١٩٦٩) . وكتاب الملاح العربي ابن ماجد لمحمد ياسين الحموي . دمشق ١٩٤٧) .

واستصحب معه بحّاراً عربياً يدعى احمد بن ماجد دلّه على الطريق الى كاليكوت Calicut فوصل اليها فاسكو دي جاما بهداية هذا الدليل في ثلاثةوعشرين يوماً في ثلاث مسماريات بعد انقطاع موسم الهند[1] .

وعندما وصل فاسكو دي جاما بلاد المليبار احسن ملك المليبار وفادته وحمله الى ملك البرتغال رسالة جاء فيها « الى الملك المعظم ملك البرتغال قد وصل فاسكو دا جاما احد عظماء حاشيتكم الينا وزار مملكتنا وسررنا منه ونخبركم انه يوجد بكثرة في مملكتنا القرنفل والقرفة والفلفل والزنجبيل وكثير من الاحجار الكريمة واعظم شيء نحتاجه هو الذهب والفضة والمرجان والالوان المختلفة »[2] .

فكان جواب ملك البرتغال مطالبة الهند بمستعمرة لتجارته ونشر دينه بأساطيل حربية ارسلها اليه، اما اهل البندقية (Venice) فقد صعقوا لهذا الخبر لانه كان مبدأ سقوط صولتهم ونفوذهم التجاري وقد اثر هذا افي اموال

---

(١) نسبة الى الرياح الموسيمية التي تهب عل الهند والتي يسميها الافرنج Mousson نقلا عن العربية .

(٢) يرى البعض ان ملك المليبار السامري le Zamorin لم يرحب به في باديء الامر بل زاد في تنفيره منه تجار العرب في تلك الجهات اذ افهموه ان البرتغال ليسوا الا لصوص بحر لا عمل لهم الا السلب والنهب في البحار .

مصر لأنه كان يدخل خزائنها مبلغ عظيم من هذا الربح الهائل .

وتتجلى اهمية هذه الرحلة في انها كانت تحقيق حلم رواد خيال البرتغاليين مائة سنة وقد تطلب تحقيق هذا الحلم مجهوداً متواصلاً استمر خمس وسبعين سنة ، وكان ايضاً امنية سكان البحر الابيض المتوسط المشتغلين بالتجارة باستثناء اهل البندقية ومن يستفيد منهم ، وهكذا نرى ان اهل البرتغال استطاعوا تحقيق ذلك ، ولا بد ان نلم بسرعة على بعض الاتجاهات الخاصة التي عرفتها اوروبا في القرنين السابقين . .

فمنذ عهد صلاح الدين الايوبي الذي استرد اورشليم من الصليبيين سنة ١١٨٧ كان الاسلام وقد اتخذ مصر قاعدة له يعد حاجزاً قوياً يعوق الاتصال بين آسيا والغرب ، والحماسة العظيمة التي اثارت الاوروبيين في الغزوات الصليبية الثلاث الاولى لم تسفر عن شيء وانتصار صلاح الدين وطّد نفوذ الاسلام في سوريا وشواطيء مصر لمدة قرون بعد ذلك .

وشعر الاوروبيون بذلك وعرفه ساستهم ولذا وجهت الغزوة الصليبية الخامسة سنة ١٢١٨ / ١٢٢١ الى مصر نفسها وهكذا بعد جهاد استمر مائتي سنة تولته دول اوروبا

المتحدة ظلت مصر وشواطيء سوريا في يد المسلمين ، وكذلك فان تجارة استيراد التوابل من الشرق وهي من العوامل التي لعبت دوراً هاماً في التاريخ كانت تدر الارباح الهائلة على القائمين بها ، وكانت لا تأتي الا من الثغور الهندية عبر اراضي الدول الاسلامية يضاف الى ذلك المنافسة الشديدة بين البندقية وجنوا ، فقد استطاع اهل البندقية بسياستهم البعيدة النظر وجرأتهم واقدامهم ان يكون لهم النفوذ الواسع في القاهرة ، واحتكروا تجارة الشرق في اوروبا كما تمكنوا من المحافظة على تجارتهم في البحر الاحمر ، وانتصار اهل البندقية على اهل جنوا في هذه المنافسة التجارية كان من البواعث التي دفعت منافسيهم اهل جنوا الى التماس طريق الخروج من سجن البحر الابيض والبحث عن طريق آخر الى الشرق لا يسيطر عليه المسلمون وعلى كل حال فقد استطاع الجنويون اخيراً من احتكار البندقية ، وكان هذا الوصول الى الهند نتيجة جهد جبار استلزم تحسين وسائل الابحار والملاحة وبناء السفن واعدادها وكشف شواطيء افريقية الغربية وكان هذا الكشف عملاً تعاونياً لم ينفرد به فرد ، وقد ابلى فيه الامير هنري الملاح بلاءاً حسناً كما ذكرنا حيث ظل خلال اربعين سنة وهو يوجه حركة الكشف ويضع لها الخطط ويدّبر امورها ويمدها بالمال .

والواقع ان هذه الرحلة لم تحقق للبرتغاليين المجد والنصر فقط باعتبارهم اول امة اوروبية وصلت الشرق واصبح ملوكها يلقبون بمباركة البابا في روما « اسياد الملاحة والفتح والتجارة ببلاذ العرب وبلاد الحبشة وفارس والهند » ولكن أحدثت هذه الرحلة ثورة ذات ابعاد عميقة في تجارة اوروبا وكان لها نتائجها الكبيرة والبعيدة لفائدة اوروبا والخسارة للشرق ، وهذه الخسارة كان من الممكن ان تتفادى لو تدخل حكام الهند من المسلمين المغول الاقوياء ، وقد كان الامبراطور الشهير (اكبر) (٩٦٣ هـ - ١٥٥٦ م / ١٠١٤ هـ ١٦٠٥م) يتربع على عرش امبراطورية من اكبر امبراطوريات العالم في ذلك العصر ويهيمن عليها ويدين له بالطاعة بقية حكام الهند ومع ذلك فقد تم في عهده مجيء جاما الى الهند واستولى البوكيرك Albuquerque على ملقا سنة ١٥١١ ، وانشأ دولة بحرية برتغالية في المحيط الهندي ، وفي عهده (١٥٠٧ - ١٠١٧م) اصبحت (كوا) في الشاطيء الغربي من الهند ، مستعمرة برتغالية ، كما كان الحجاج الهنود القاصدين الى مكة من طريق البحر - وكان بعض هؤلاء ينتسبون الى الاسرة الامبراطورية - كثيراً ما كانوا يحتجزون من قبل البرتغاليين فلا يطلق سراحهم الا بفدية ، ان هذا كله لم يؤدي الى نشوب نزاع مباشر بين البرتغاليين وبين (اكبر) ، ولنا ان نعلل ذلك بضعف القوة البحرية في عهده ، وكذلك فان (اكبر) كان يجد امامه قارة ضخمة

يتعين عليه ان يفتحها ، ولم يكن يجد متسعاً من الوقت يضيعه في الاحتكاك بالبرتغاليين الذين ما كان يقيم لهم وزناً على الرغم من انهم كانوا يلدغونه بين الفينة والاخرى .

ومهما يكن من امر فان هذا الموقف المغولي اتجاه التدخل السافر اتاح للبرتغاليين الفرصة في ارسال حملات اخرى تستهدف بسط النفوذ البرتغالي على تلك الانحاء ، والواقع ان العرب وقفوا بكل امكانياتهم وجهدهم ضد المحتلين الغزاة بعدما تبين لهم بكل وضوح هدف هؤلاء هو القضاء على الوجود العربي في المحيط الهندي وقد ادرك القادة البرتغاليون ـ منذ اليوم الاول الذي رست فيه سفنهم عند موانيء المليبار[1] ـ ضخامة العقبات التي ستواجههم بوجود

(١) لقد تعجب (فاسكو دا جاما) من النفوذ الذي كان للعرب لدى (السامري) ملك المليبار في عاصمته كاليكت اول مدينة شاهدها (جاما) في الشرق ورغم انهم كانوا من الهندوس فقد كانت صلتهم بالعرب المسلمين قوية جداً ، وكانت بيدهم تجارة التوابل وكانت كاليكت المركز الرئيسي لتجارته ، ويعود التعاون بين ملوك المليبار والتجار العرب الى عهود موغلة في القدم ، وخاصة مع سكان البحرين وقطر واليمن والامكنة المجاورة لها،وهناك ايضاً علائق بتجار مصر والمغرب العربي ، وقد كان لتجار كاليكوت من الهنود والعرب مستودعات ووكالات تصل اليها بضائعهم خاصة في القاهرة والاسكندرية وكذلك في مدينة (فاس) في المغرب الاقصى ، وكانت البضائع تصل عن طريق القوافل عبر الصحراء الكبرى من السودان =

العرب خاصة والمسلمين عامة في تلك المنطقة لـذلك بـدأت الخـطط والتفكـير وتنـظيم القـوى للقضـاء عليهم والتخلص منهم بـأي طريقـة كانت ، وتم لاجـل ذلك اعـداد الخـطط والاسس التي يجب ان تسـير بموجبهـا الحمـلات البحـريـة المتتـابعة ، كـما حـددت اهـدافهـا الاقتصـاديـة والسيـاسيـة والجغرافية وتم اعدادها بدقة ، وقد ساعـد البرتغـاليين عـلى تحمـل اعباء تحـويل هـذه الرحـلات رجال المـال في مـدينـة انفرس الواقعة على سـاحل بحـر الشمال البلجيكي وهي لا تزال اكبر ميناء في بلجيكا Belgium ، اذ ان هؤلاء ادركـوا الفوائد الهائلة التي ستعود عليهم من حركة الاستكشاف هذه في مجال التجارة العالمية فسارعوا الى مدّ البرتغاليين بالمال .

تبع حملة فاسكو دا جاما حملة بقيادة بدور الفاريز كبرال الـذي وصل الهنـد ومعه ثـلاثة وثـلاثون سفينـة تحمـل الفـاً وخمسمائة رجل ولم يلاق الترحاب الذي لقيه فاسكو دا جاما من السامري بل رفضوا استقباله وقاوموه بسبب نواياه السيئة عليهم وكادوا ان يفتكوا به بالرغم من قوة مـدفعيته فـاضطر للانسحاب عائداً الى البرتغال ، وتبعـه مرة ثـانية فـاسكو دا

= ومن فـاس كانت تسـير القوافـل الى الاندلس ومنهـا الى اوروبـا ، ومن مصر كانت بحرية البندقية تنقل البضائـع الى اوروبا . وقـد ذكرنـا ان احتكار البندقية للتجارة مع مصر احد الاسباب التي دفعت البرتغاليـين لركوب البحر نحو الهند بتشجيع من اهل جنوا .

جاما على رأس حملة قوية ايضاً تضم خمسة عشر سفينة كبيرة مجهزة بمدفعية قوية واشرعتها مثلثية ـ اقتبسها البرتغاليون من العرب ـ وتحمل هذه السفن ثمانمائة جندي وما كـاد فاسكـو دا جـاما يصـل الى السواحـل الافـريقيـة حتى بـدأ اعمـالـه العدوانية المريعة نحـو سكان الشـواطيء ليثبت سيادة مـولاه ـ حسب اعتقـاده ـ الملك عـل البحـار ، كـما اخـذ يتعـرض للسفن العربية والاسلامية خاصة التي كـانت تحمل الحجـاج ولقيت قوافل الحجاج الأمرين من الاسطول البرتغـالي بقيادة جـاما الـذي كان يـأخذ حـمولة سفن الحجـاج ويسبي النساء ويبيع الرجال كالعبيد ثم يحرق السفن ، وان لم يستـطع كان يحـرق السفن بمن فيها ، وقـد ركز جـامـا عـلى تثبيت حكم البرتغاليـين في شرق افـريقية واجبـر اهلها عـلى دفع الجـزية وبعد ذلك اتجه للهند وعندمـا وصـل الى المليبار وجـد اهلها مستعـدين للقـائـه بجيش واسـطول كبيـرين بعـد سمـاعهم باعماله السيئة، وحدثت الحرب بينه وبينهم واستطاعوا هزيمته بالرغم من مدفعيته وكانوا بقيادة احد امـراء البحر المعـروف باسم (امير البحر قاسم) الذي اظهر براعة نادرة في المناورة للتخلص من قنـابل الاسـطول البرتغـالي ، فـاضـطر جـامـا لايقـاف المعـركـة والهـرب وكـانت سفنـه اسـرع من سفن الهنود ، وبعد ذلك وصل المليبار اسطول برتغالي آخـر بقيادة (لوبوسواريس) فاستطاع هذا مفاجأة السامري ودمـر سفنه بمـدفعيتـه ، وهنـا ادرك (الملك السـامـري) ان سفنـه غـير

متكافئة مع سفن البرتغالية المجهزة بالمدفعية لذلك اتفق والتجار العرب المقيمون في كاليكوت وشيخ عدن وهم الذين تأثرت مصالحهم الاقتصادية على طلب المساعدة من سلطان مصر ، وكانت مصر قد تأثرت ماليتها بسبب التدخل البرتغالي على استعداد للدخول في صراع مع البرتغاليين ، ولبَّى السلطان المصري طلبهم في اتخاذ الاجراءات اللازمة لوقف البرتغاليين عند حدهم ولانقاذ مصر من الانهيار الاقتصادي الذي تعرضت له ، فارسل حملة بقيادة الامير حسين الكردي في نوفمبر سنة ١٥٠٥ م في سبيل تقوية الحكم المملوكي في منطقة البحر الاحمر ، وتحصين سواحل ذلك البحر بعد ان اعلن البرتغاليون عن عزمهم في مهاجمة المدن المقدسة في الحجاز وتخريبها ، وما ان وصل الامير حسين الى جدة حتى بدأ في بناء سور ضخم له ابراج عالية ، ثم توجه الى سواكن واستولى عليها ، واقام بعض الاستحكامات بها ، ومن سواكن اتجه الاسطول المصري الى بعض الموانيء اليمنية حيث بقي بعض الوقت بميناء عدن ، ثم اتجه صوب الهند حيث اشتبك مع اسطول برتغالي فانتصر عليه انتصاراً جزئياً في معركة ديو البحرية ، كما استطاع بالاشتراك مع اسطول حاكم ديو هزيمة اسطول برتغالي مكون من ثمان سفن عند شيول سنة ١٥٠٨ حيث فشل البرتغاليون في محاولاتهم للصعود على ظهر السفن العربية المصرية وبعد يومين من القتال اخذ البرتغاليون

يفكرون بالهرب خاصة بعد اصابة سفينة القيادة وقتل لورنزو الميـدا ابن نائب الملك (الـدون فرانسيسكـوا الميدا قـد عين حاكماً للمستعمرات البرتغالية في الشـرق (١٥٠٥ ـ ١٥٠٩) وكان مقره في كوشين[١] .

وحاول الميدا الاب جمع كل ما امكنه من سفن ورجـال وانطلق نحو الشمال من كوشين لملاقـاة (الامير حسـين) وكان معه ثمانية عشر سفينة والف ومـائتا رجـل ، وبلغ ديو في الثاني من كانون الثاني ١٥٠٩ واخذ ينتظر السفن العـربية والهندية وساعده على ذلك (مالـك اياز) حـاكم ديو من قبـل ملك كجرات الذي انضم سرّاً الى البرتغاليين وحرم (الامير حسني) من المـدد والمؤن ، وفي ٣ شبـاط التقى الـطرفـان

---

(١) ارسل الملك البرتغالي سنة ١٥٠٦ اي بعد عام من تولي والميدا منصبه ، اسطول ضخم بقيادة (تـرستاو داكـونها) كنائب للملك وحـاكم للهند البرتغالية ولم تكن مهمة القائد الجديد على ساحل المليبار بـل كان عليـه ان يـرتـاد السـواحـل الافـريقيـة الشـرقيـة وجـزر المحيط القـريبـة من الشواطيء لبناء القلاع التي تحمي طريق الهنـد ، ثم سد منـافذ المحيط الهنـدي الذي تصله بقلب العـالم الاسلامي مثـل مضيق هرمـز ومضيق باب المندب لمنع كل النجـدات التي تصل من البـلاد العربيـة واهتمت حملة (داكونها) باخضـاع امارات السـاحل الصومـالي معتمدة عـلى تأييـد حاكم (مالندي) ، فاستـطاعت اخضاع مـدن (لامو) وبـراوه) الا انهم اخفقوا في اخضاع مدينة (مقديشو) لشدة مقاومـة اهلها ، وكـان يرافق هذه الحملة الفونس البوكيرك الذي اشتهر اسمه فيما بعد .

خارج (ديو) ولم تكن نتيجة الاشتباك حاسمة ولكن (الامير حسين) اضطر لترك المعركة بسبب النقص في المؤن والذخيرة وانسحب الى مصر ، وبذلك ترسخت اقدام البرتغاليين في المحيط الهندي ووضعوا ايديهم على مصادر التوابل واحتكروا تجارتها ، وعملوا على تشديد الحصار على الخليج العربي ، والبحر الاحمر ، لمنع السفن الاسلامية من الدخول او الخروج من ذلك البحر واستولوا خلال سنة ١٥٠٩ على بعض السفن اليمنية فاستنجد السلطان اليمني الظافر الثاني بالسلطان الغوري فرد عليه بالايجاب وذلك في يونيو ١٥١٠ وكتب الغوري الى ملوك الهند لمساعدته في القتال ضد البرتغالين كما طلب من بايزيد الثاني سلطان الدولة العثمانية امداد مصر بالسلاح فوعد بذلك ووفى بما وعده وحمل السفن المصرية وعددها ثماني عشرة سفينة بالسلاح والاخشاب والمعونة العثمانية ، وتعرضت هذه المعونة لهجوم سفن فرسان القديس يوحنا في ١٠ اغسطس ١٥١٠ فضاعت في خضم هذه الاحداث حتى ان السفن الست الباقية التي وصلت الى الاسكندرية لم يكن عليها شيء من المعونة العثمانية .

وخلال هذه الفترة بدأت القوات البرتغالية الغازية بحملات قاسية ووحشية جداً ضد الشعوب المستعمرة في آسيا وافريقيا على حد سواء ، وخاصة بعد تسلم القائد

البـرتغـالي البـوكيـرك ALBUQUERQUE زمـام قيـادة المستعمرات وقد تولى ذلك سنة ١٥٠٩ ولديه رصيد كبير من التجـارب كونت شخصيتـه كقائـد من اعظم القـواد في نظر الاوروبيين ولكنه كـان اسوأ انسـان مرّ عـلى تلك المناطق في التاريخ ولم يكن همّه سوى القتل وتنفيذ مآربه الخبيثة بتدمـير الاسلام والعرب[1] . وكان يؤمن بالتفوق البحري والحفاظ

---

(١) كان البوكيـرك من طبقة النبـلاء وقد حصـل على تجـارب حربيـة واسعة خلال خدمته في افريقيا لمقاتلة العرب فيها بعد خروجهم من البـرتغال وخدم في البر تحت قيادة القائـد الفاريـز كبرال ووصـل سنة ١٥٠٣ الى (كوشين) مع ابن عمه فرانسيسكو لتحكيم المدينة وتحصينهـا وبناء اول قلعـة برتغـالية في آسيـا ووضع فيهـا حـامية وفتـح مـركـزاً تجـاريـاً في (كـويلون) ثم عاد الى لشبـونـة سنـة ١٥٠٤ واستقبـل من قبـل الملك عمانوويل الاول واصبح من مستشاريه في وضع السياسة الخارجية التي كـانت تهيمن عليها روح صليبيـة ورثها هـو ومليكه من جـدهـم جـون الثـاني ، وكـان البـوكيـرك نفسـه يضمـر حقـداً لا مثيـل لـه للعـرب وللمسلمـين ولم يكن هناك تفـرقة بـين العربي والمسلم وكـان همه القتـل وعندما كلف بـالحملات البـرية والبحـرية نشـر الذعـر في كل المنـاطق السـاحلية ، وعنـدما احتـل (كوا) فيـها بعد ابلغ مليكـه « بانـه وضع السيف على رقبة كل عربي حيثما امكنه العثور على عربي ، وكان افـلاته من يـدي من المحال وقـد ملأت بهم المسـاجد واضـرمت بهم النار » .
لمزيد من التفاصيل راجع :
پيدايش وسقوط امپراطوري مستعمـراتي برتقـال در هند : تـأليف احمد فندرسكي (باللغة الفارسية) كتابخانه ابن سينا ـ طهران ١٣٤١ .
وكتـاب نبذة تـاريخية عن الهنـد البرتغـالية : لا دوار يهـا نسك Rehata =

على الامبراطورية دون بعثرة جهود الشعب البرتغالي في ضم ممتلكات شاسعة لا يقوى على الاحتفاظ بها وكان همه الاول ان تكون قواعد امبراطوريته الجديدة هي جزيرة هرمز ثم سوقطري وعدن للسيطرة على منافذ الخليج العربي والبحر الاحمر . ثم ملقا للسيطرة على مضيق ملقا ثم سيلان ، وتكمل هذه القواعد ما كان لدى البرتغاليين من قواعد في شرق افريقية ولتحقيق المراقبة الفعلية والحماية الضرورية كان لا بد من بناء القلاع والمستوطنات البرتغالية عند تلك المراكز ونشر النفوذ البرتغالي في البر .

ولما كانت (كوشين) صغيرة بالنسبة الى احلامه الواسعة فقد قرر غزو (كاليكوت) والقضاء على ملكها السامري واعوانه من المسلمين والعرب وفعلاً فقد تحركت الحملة البرتغالية الى كاليكوت بقيادة المارشال الاعظم للبحرية البرتغالية ، ولكن السامري استطاع ان يصدها اثناء محاولتها النزول الى البر ، بل استطاع ان يقتل قائدها المارشال الاعظم مع عدد كبير من النبلاء وجرح البوكيريك نفسه واعيد للبحر ، وهكذا انتهت الحملة الاولى بكارثة مروعة خاصة وان قادة هذا الاسطول كانوا خير قادة وضباط

= SeeK. Kd (١٨١٩ ـ ١٨٩١) وهو مستشرق مجري الاصل ، كان استاذاً في كلية ويلسن في بومباي ، وقد سكن الهند منذ سنة ١٨٤٧ حتى وفاته وله آثار عديدة .

البرتغال ، ولم تحاول بعد ذلك اية قوة اوروبية خلال مائتين وثلاثين عاماً النزول الى البر الآسيوي ، وكانت نصيحة الجنرال ماك ارثر لحكومته في اثناء عدم النزول في البر الآسيوي وخاصة الصيني .

بعد هذه الهزيمة فكر البوكيري باحتلال (كوا) وفشل في باديء الامر ولكنه استطاع بعد ذلك احتلالها بمساعدة القرصان الهندي (تيموجا) وكانت (كوا) تابعة لامارة (عادل شاه) الذي ارسل جيشاً لاخراج البوكيرك من المدينة ، ولكن البوكيرك عاود الهجوم على (كوا) في تشرين الثاني ثم احتلها ، وكان هذا اول تعاون بين الهنود والبرتغاليين ضد المسلمين وقد ساعد البوكيرك على احتلالها كون (كوا) تقع على اطراف امارة العادل شاهية . وبعد هذا الانتصار على المسلمين اخذ الحكام الهنود يعتادون على وجود البرتغاليين فيما بينهم وجرى تعاون وثيق بين الطرفين ، فقد اخذ البرتغاليون يمدون الهندوس بالاسلحة والخيول وكان الهنود يمدون البرتغاليين بالمواد التموينية لذلك كانت هناك مصلحة في ابقاء البرتغاليين ، وخطط البوكيرك بجعل (كوا) عاصمة له وجعلها قاعدة اسطوله البحري لقتال المسلمين ومن جهة اخرى ستكون محطة تجارية كبرى والمركز الرئيسي التجاري للبرتغال ، وجعل كل تجارة التوابل تمر عبرها ، واخذ يعمل على تكوين شعب خاص لها بالتزواج

بين رجاله ونساء ضحاياه واستدعاء المواطنين البرتغاليين للسكن فيها ، فازدهرت المدينة واخذ التجار يرتادونها حتى سميت ببابل الشرق وفي الوقت ذاته اصبحت مركزاً رئيسياً للدعارة والموبقات لم يشاهد مثلها في اي بلد آخر .

ثم اتجه البوكيرك لتثبت دعائم حكمه في المحيط الهندي باحتلاله ملقا سنة ١٥١١ ثم احتل مكاو على الساحل الصيني وبعض الامكنة الاخرى وعندها اخذ البوكيرك يحكم بشكل مباشر المنطقة الواسعة ما بين مضيق ملقا وساحل افريقية الشرقي وقسمت الى اربع مجموعات او مناطق يحكمها نائب له وهذه المجموعات هي ساحل افريقية الشرقية ، جزيرة هرمز وتوابعها على السواحل ، جزيرة سيلان وملقا .

وفي سنة ١٥١٣ حاول البوكيرك احتلال عدن ولم يفلح ثم حاول دخول البحر الاحمر فاضطرته العواصف القوية للرجوع الى البحر العربي والعودة الى (كوا) بعد ان حرق جزيرة (بريم) ومرة اخرى حاول اخضاع كاليكوت ولم ينجح ايضاً ، وفي شباط عام ١٥١٥ بينما كان في بعض غزواته التقى بممثلين من الحكومة الصفوية الايرانية وجرى الاتفاق على عقد معاهدة للتعاون بين الطرفين ولكن البوكيرك مرض في ذلك الوقت فعين ابن اخيه (بيرو) قائداً لمرفأ هرمز ثم انه ابحر عائداً الى الهند ولم يمهله المرض فمات

بالطريق قبل وصول سفينته الى (كوا) في ١٥ كانون الأول ١٥١٥ وبذلك انتهت حياة اسوأ مستعمر طبع عصراً كاملاً بطابعه الخاص . واتصف بالقسوة والشدة ، والعداء للاسلام فلقد عبر البوكيرك عن تفكيره الخاص حول اهداف البرتغال في المنطقة في خطابه الذي القاه امام جنوده لحثهم على احتلال (ملقا) قال : « ان الخدمة الجليلة التي سنقدمها لله بطردنا العرب من هذه البلاد وباطفائنا شعلة شيعة محمد ، بحيث لا يندلع لها هنا بعد ذلك لهيب » ويقول مؤلف كتاب آسيا والسيطرة الغربية السفير الهندي ك . م بانيكار : « ان البوكيرك بعد ذكر خدمة الله والدنيا عرج الى خدمة مليكه وتحقيق اطماعه حيث قال ـ وذلك لانني على يقين اننا لو انتزعنا تجارة ملقا هذه من ايديهم (اي المسلمين) اصبحت كل من القاهرة ومكة اثراً بعد عين ولامتنعت كل تجارة التوابل ما لم يذهب تجارها الى البرتغال لشرائها من هناك » .

خلف البوكيرك في كوا كحاكم للممتلكات البرتغالية ونائب للملك (لويز سواريز) الذي اتبع سياسة تخالفه سياسة سلفه القائمة على البطش والتنكيل ودخل في علاقات مع كثير من الامراء المحليين وبخاصة في الهند ولكن لم يخلو عهده من حروب عديدة في البحر الاحمر لكنها باءت بالفشل الذريع ، وخلفه في الحكم (لو بو سكويرا) الذي جاء على

رأس حملة جديدة اوائل سنة ١٥٢٠ وكانت اهداف الحملة في هذه المرة تتكون من شقين : الاول منهما مهاجمة جده والاستيلاء عليها ، والثاني انزال اول بعثة دبلوماسية برتغالية الى السواحل الحبشية لانشاء علاقات دبلوماسية مع مملكة الحبشة ، والتكاتف معها للقضاء على النفوذ الاسلامي في مياه البحر الاحمر .

والواقع انهم كانوا يهدفون من ذلك اتخاذ الحبشة قاعدة عسكرية لهم واستغلال ثروات الحبشة وتحويل الاحباش من المذهب الاورثوذكسي الى المذهب الكاثوليكي ، وقد جرت بعد ذلك احداث كثيرة تبين للاحباش في آخرها اطماع البرتغال في بلادهم فعملوا على طرد البرتغاليين ونجحوا في ذلك اوائل القرن السابع عشر ، وهكذا فعلى الرغم من محاولات البرتغاليين المتكررة للاستيلاء على مواقع استراتيجية على سواحل البحر الاحمر للقضاء على السيطرة الاسلامية على مياهه والوصول الى الامكنة الاسلامية المقدمة في الحجاز لتدميرها والقضاء على الدين الاسلامي فانهم لم يستطيعوا بسبب الجهود التي بذلها المصريون ، وخوف الاحباش من الاهداف البرتغالية ، ثم ظهور الاتراك العثمانيين كقوة اسلامية كبيرة يخشى خطرها في مياه البحر الاحمر حيث ادرك السلطان العثماني سليمان القانوني فداحة الخسائر التي لحقت بالتجارة العربية واثرها على ميزانية الدولة وخاصة

مصر لذلك اجرى اتصالات مع السامري ملك المليبار في كاليكوت ومع احد الملوك من المسلمين الهنود وتم عقد اتفاق ثلاثي لقتال البرتغاليين والقيام بعمل مشترك واوعز الى والي مصر سليمان باشا الخادم للتهيؤ للقتال وطرد البرتغاليين وجاء في رسالته للوالي : « عليك يا بيك البكوات اعداد العدة في السوس للجهاد في سبيل الله حتى اذا تهيأ لك اعداد اسطول وتزويده بالعتاد والمسيرة والذخيرة ، وجمع جيش كاف فعليك ان تخرج الى الهند وتستولي وتحافظ على تلك الاجزاء ، فانك اذا قطعت الطريق وخاصرت السبيل المؤدية الى مكة والمدينة تجنبت سوء ما فعل البرتغاليون وازلت رايتهم من البحر » وقد وصل سليمان باشا الى الهند سنة ١٥٣٨ ولكنه لم يستطع الاتصال مع السامري وحلفائهم لانهم كانوا قد هزموا في معركة مع البرتغاليين في ٢٠ شباط ١٥٣٨ عندما فاجأهم القائد البرتغالي (مارتن دي سوزا) وشتت شملهم بسبب تفوقه من ناحية التسليح والقوة النارية التي لم يكن يعرفها السامري ، وعندما علم سليمان باشا بالهزيمة عاد ادراجه الى مصر بعد ان قام بجولة في البحر العربي بدون فائدة تذكر ، وكانت هذه آخر محاولة يقوم بها الاتراك لقتال البرتغاليين في اعالي البحار وللمرة الثانية اصبحت البحرية البرتغالية صاحبة السيادة المطلقة في المحيط الهندي وعدا بعض الرحلات حول العالم التي قام بها ماجلان عام ١٥٢٢ والانكليزي فرانسيس درايك ما بين

عـامي ١٥٧٧ ـ ١٥٨٠ ظل البـرتغـاليـون حـوالي قـرن من الـزمن يعملون في الشرق بـدون منازع . وكـانت الثـورات الـداخلية تفشـل بسبب ضعفها امـام القلاع الضخمـة التي اقامها البرتغاليـون في مختلف المناطق وملاؤها بـالجنود من برتغاليين ومتطوعة .

وفي هـذه الفترة الهـامـة من التـاريـخ البـرتغـالي احتـل الاسبـان بلادهم سنـة ١٥٨٠ وظلّوا تحت حكمهم حتى سنة ١٦٤٠ م ولكن هذا الاحتلال لم يؤثـر كثيراً عـلى الحاميـات البـرتغاليـة التي ظلت تتلقى الامدادات من البـرتغال ، ومن قاعدتهم الرئيسية في (كـوا) وظلت هذه تـدافع عن النفـوذ البـرتغالي والصمـود امام محـاولات الاتـراك لاخـراجهم من الخليج مما جعـل الاتراك يتخلون عن محـاولتهم نظراً لتفـوق البرتغاليين من ناحيـة التسليح والتعـاون بينهم وبين الفـرس وسرعة ارسـال النجدات في حـين لم تكن لدى الاتـراك هذه الميـزة يضاف الى ذلـك عدم تعـاونهم مـع السكـان العـرب المحليـين ، وهكذا حتى بـداية القـرن السابـع عشـر لم يكن يعكر صفو البرتغاليـين اي حادث فقـد ملكوا نـاحية البحـر وتفوقوا على كل مـا عداهم واحتكـروا التجارة وجعلوهـا في ايـديهم ، وكان اسـطولهم يجوب البحـار وقلاعهم المحصنـة على طول الـطريق البحري الى الشـرق تحمي تجارتهم عـلى هـذا الطريق الحيـوي الهام وكـانت هرمـز هي المقر الاداري

لهم وظلت لسنين طويلة السوق التجارية الرئيسية في جزء كبير من العالم .

وقد بذل البرتغاليون جهوداً جبّارة للاحتفاظ بسريّة طريق الهند خوفاً من المنافسة الدولية التي بدأت تتزايد كلما ازدادت الارباح التي كانت تنهال على البرتغاليين من جراء تجارتهم مع الشرق ، وقد اثارت هذه الارباح انتباه الدول التي كان البرتغاليون يتعاملون معها خاصة الدول الواقعة على المحيط الاطلسي ، وكانت الحكومة البرتغالية تحيط دائرة رسم الخرائط البحرية الرسمية بالسرية التامة ووضعتها تحت الحراسة الدائمة ، ولكن لم يكن بالامكان اخفاء الطريق الى الابد خاصة للذين يتعاملون مع البرتغاليين ويمدونهم بالاموال لتمويل قوافلهم البحرية كالتجار الهولنديون الذين كانت لهم صلة وثيقة بالبرتغاليين عن طريق الوكالة البرتغالية التي كان مقرها في ميناء انفرس (انتورب) في بلجيكا حالياً ، وكان الهولنديون اول من صمم على اقتحام مخاطر الطريق ورفع الكابوس الاحتكاري البرتغالي بعد ازدياد الطلب على هذه المواد الثمينة ، وصادف ذلك هزيمة الاسطول الاسباني عند محاولته الهجوم على بريطانيا سنة ١٥٨٨ حيث تحطم وتشتت قبالة السواحل البريطانية ، وانتهت اسطورة التفوق الاسباني البحري واصبح البحر مفتوحاً امام الجميع ، وكان الهولنديون اكثر

فـائدة من هـزيمة الاسبـان من الانكليز انفسهم وسـريعاً مـا اصبحوا قوة بحرية في القـرن السابـع عشر تملك التفـوق في البحار وسيطروا عـلى تجارة التـوابل قـرناً من الـزمن واسسوا امبراطوريتهم الواسعة في الشـرق الاقصى التي ظلّت قائمـة بـالرغم من اضمحـلال قوتهم البحـرية وسيـرهم في ركـاب الانكليز .

وقـد حـاول الهـولنـديـون التعـاون مـع الملك الهـندي (السامري) العدو اللدود للبرتغاليين وقـد رأينا نضـاله هـو ومن سبقه ضد البرتغاليين بالتعاون مع العرب ، وبالاضـافة الى الهولنديين فقد عمـل على تهـديم المستعمرات البـرتغاليـة كـل من العمانيـين والفرنسيـين واخيراً الانكليـز وبمشـاركـة شعـوب المنطقـة التي تحملت من البرتغـاليين اسـوأ اسـاليب البطش والقهر التي بنى عليهـا البرتغـاليون دولتهم ، والـذي اجهـز على بقـايا الامبـراطوريـة البرتغـاليـة هم العمـانيـون (اليعاربة) وخاصة في ايـام سيـف بن سلطان[1] وقد خلفهم

(١) تـولى الامامـة في عمان وكـان يلقب بـ (عتيد الارض) ، واشتبـك مع البرتغاليين في عدة معارك توفي بـالرستـاق في ٣ رمضان ١١٢٣ هـ وممن رثاه محمد بن صالح المنتفقي البصري ، وفيها يشير الى هزيمـة البرتغـال امامه .

فسل النصارى ما رأوا في سيرهم — والبحر من تلك الجيوش الغازية

كم أحرقوا كم أُغرقوا من مرة — كم ذُوقوا ضربـاً يهدّ النـاصية

كم مُـزقوا بـدداً فشبههم علىٰ — ضأن غشت فيها سباع ضاريه =

في مستعمراتهم هولندا وخلال فترة قليلة كانت مستعمرات البرتغال ملكاً لهم ففي سنة ١٦٠٥ احتلوا (امبونيا) واخيراً استقروا منذ عام ١٦١٩ في بتافيا (جاكرتا الحالية) ، وفي سنة ١٦٤١ سقطت مدينة (ملقا) ثم كولمبو عاصمة سيلان سنة ١٦٥٤ ثم كوشين على ساحل المليبار سنة ١٦٦٠ م وكانت اول قاعدة اسسها البرتغاليون عند وصولهم بلاد الشرق الذين لم تبق بايديهم سوى مدينة وميناء (كوا) وجزيرة دامان ، وديو ، وبومباي وقد اهديت الاخيرة للانكليز كهدية زواج بين ملك الانكليز واحدى الاميرات البرتغاليات مقابل حماية الانكليز للاملاك والممتلكات البرتغالية .

وسرعان ما سقطت دامان ، وديو ، وبقيت (كوا) وحدها بايدي البرتغاليين ، وفي ٢٠ ديسمبر سنة ١٩٦١ قدمت جريدة الديلي تلغراف اللندنية تقريراً عن حالة الحزن التي عمت لشبونة نتيجة لسقوط (كوا) السريع في يد الجيش الهندي . . والتفت الآلاف الى القدسية الخاصة لكوا منذ القرن الخامس عشر ، والتي اشتهرت بمذبح الكنيسة الذي حمله معه فاسكو دا جاما في رحلة الاكتشاف الهند ، وقد اقتصرت الاذاعة في البرتغال طيلة النهار على الموسيقى

= راجع تحفة الاعيان بسيرة اهل عمان للسالمي ٣ / ١٠٠ وما بعدها .

الحـزينـة وكـأنها تعـزف ـ وهي بـالفعـل كـذلـك ـ جنـازة الامبراطورية .



الاحتلال الانكليزي :

بدأ الانكليز تجارتهم مع الشرق سنة ١٦٠٠ بصدور مرسوم ملكي يقضي بتأليف شركة تجارية تحت اسم شركة حكام وتجار لندن لعمليات التجارة في الهند والاقطار المجاورة ، واعطي للشركة حق احتكار التجارة مع الشرق لمدة (١٥) عاماً ثم مددت بدءاً من عام ١٦٠٩ ايضاً (١٥) عاماً وهكذا بدأت شركة الهند الشرقية مسيرتها حتى اصبحت امبراطورية رغم ان رأسمالها لم يتجاوز الخمسين الف جنيه استرليني .

ابتدأت الشركة عملها برحلات منفصلة ممولة من قبل بعض التجار ولكن ضمن نطاق الشركة ، وكان اتجاهها نحو جزر الهند الشرقية باعتبارها المركز الرئيسي للتوابل واصبح لها هناك النشاط الفعال مما اثار حفيظة الهولنديين الذين كانوا يسيطرون على تلك الجزر ، وتم انذار الانكليز بشدة عن طريق القضاء عليهم ، فاضطر هؤلاء للانسحاب الى الهند ، واتخذوا لهم قاعدة في سورت Surat على الساحل

الهندي الغربي ثم توالى تأسيسهم للمراكز في مختلف انحاء الهند بما فيه القسم الشرقي ، وقد اصطدموا بالبرتغاليين الذين كانت لديهم علاقات جيدة مع اباطرة المغول في دهلي ، وكان الامبراطور المغولي آنذاك (جهانكير)[1] ، وكان على صلة حسنة بالمبشرين الجزويت الذين كان ابوه السلطان (اكبر) على صلة بهم ، وقد ارسل ملك الانكليز (١٦١٨ - ١٦٢٥) (سر توماس روي) سفيراً الى (جهانكير) بطلب الحصول على مركز دائم في كجرات وعلى اعفاء الانكليز من كثير من الرسوم الكمركية التي يتقاضاها بعض الحكام ، واحياناً بصفة غير قانونية ، وانتهى الأمر بأن منح الانكليز مراكز في سورت وآكره واحمد آباد وبروج ، وكان هذا الباب الضيق الذي عبروا منه الى الاستيلاء على شبه الجزيرة كلها ، وكان لهذه السفارة الاثر الكبير في اصدار الامبراطور فرماناً منح فيه الانكليز امتيازات كثيرة وحق التجارة وتأسيس المصانع ، وقد ادّى هذا النجاح غير المتوقع الى قرارهم النهائي بالتركيز على الهند لتكون قاعدة انطلاقهم التجاري وليس الشرق الاقصى ، واستمر هذا النشاط بمباركة الحكومة البريطانية باعطائها

---

(١) اسم هذا الامبراطور مؤلف من كلمتين : جهان ومعناها الدنيا ، وكثير ومعناها مالك ، اي مالك العالم . تولى العرش سنة ١٦٠٥ واستمرت الاضطرابات في عهده حتى وفاته في طريق لاهور سنة ١٦٢٧ م .

الامتيازات الكبيرة للشركة حتى توسعت اعمالها واصبح لها مراكز رئيسية ثلاث هي كلكتا Calcutta ومدراس Madras وبومباي Bombay ، وفي سنة ١٦٩٨ اسست شركة جديدة باسم الشركة العامة للتجارة ثم تطورت الى الشركة الانكليزية للتجارة في الهند والمناطق المجاورة لها The Engbsh Company Trading to the East Indies وبدأ صراع كبير بين الشركتين القديمة والجديدة انتهى بقرار من الحكومة في ٢٩ ايلول ١٧٠٨ قضى بدمجهما مع بعضهما باسم شركة الهند الشرقية The Honrable East india Company وهذ الشركة هي التي لعبت الدور الرئيسي في تثبيت النفوذ الانكليزي ، وحتى نهاية النصف الاول من القرن السابع عشر كان طابع شركة الهند الشرقية تجارياً ، ولكن بعد ذلك اخذت السياسة تتغلب على القضايا السياسية واصبح لها جيوش واساطيل بحرية وفي عام ١٦٨٤ عينت قائداً عاماً لجيشها واميرالاً لبحريتها وتحولت السياسة الاقتصادية الى سياسة السيادة الاقليمية على الأرض خاصة في القرن الثامن عشر ، فكانت الشركة تعقد المعاهدات وتعلن الحروب وتسن القوانين وتضرب النقد ، وما مدير الشركة الا حاكماً اعلى او اميراً يساعده في اعماله حكام مقاطعات وولايات ، وله مجلس ادارة هو اشبه بالبرلمان ، وتحت امرته الجيوش .

وفي عام ١٧٥٩ استطاع اسطول الشركة هزيمة الاسطول الهولندي في (جنسورا) ، وبعد هذا النصر انتهت المنافسة الهولندية في القارة الهندية ، كما استطاعت الشركة هزيمة الفرنسيين عام ١٧٦٠ وبذلك زالت كل منافسة للانكليز واصبحوا اسياد الموقف في كل مكان[١] .

ولما استتب الامر للانكليز في بومباي ، اسفروا عن وجههم الحقيقي وكسفوا عن نياتهم الاستعمارية والاعتماد على القوة العسكرية لمجابهة مهراجات الهند واباطرة المغول والتغلب عليهم بعد ذلك ، وكانت الهند في نهاية القرن الثامن عشر موزعة بين ثلاث قوى رئيسية اولاها امارة الماراتا وتسيطر على الاجزاء الغربية والوسطى من البلاد والقوة الثانية ، هي امارة نظام حيدر آباد الدكن وتسيطر على هضاب الدكن الواسعة الواقعة وسط الهند ، اما الثالثة فكانت مملكة ميسور الى الجنوب الغربي من الهند وكانت

---

(١) اما بالنسبة الى البرتغاليين فقد بينا من قبل كيف ان هؤلاء فقدوا هيبتهم ونفوذهم بعد انتصار الانكليز عليهم سنة ١٦١٢ ـ ١٦١٥ ولم يبق لهم غير (كوا) وبهذا الانتصار ازداد الانكليز خطوة لدى الامبراطور المغولي المسلم وحازوا على ثقته سيما بعد قضائهم على القراصنة الذين كانوا ينهبون الحجاج وحمايتهم لطريق الحج وفي الوقت ذاته كان البرتغاليون ايضاً يعانون من الهزائم امام الهولنديين مما ادى الى انحسار نفوذهم في المحيط الكبير .

الاخيرتان مسلمتان بينما الاولى كانت هندوسية .

وابتدأ الانكليز بالقضاء على امارة الماراتا مستفيدين من الخلافات بين قادتها وامرائها ، ثم اتجهوا الى امارة حيدر آباد فاجبرو ملكها على قطع علاقاته مع الفرنسيين الذين كان يتقوى بهم ، واستفادوا من التناقض بين الحكام المسلمين والرعية الهندوس وسيطروا على الدولة التي خضعت لاوامرهم ، وقد اتبعوا نفس الطريقة مع امارة ميسور التي كان يحلم حاكمها القائد العظيم (يبو سلطان) بخلافة امبراطورية المغول ، ومد نفوذه الى بقية انحاء القارة ، ووالده (حيدر علي) هو مؤسس هذه الامارة استقل بها سنة ١٧٦٣ واصبح قوة ضاربة في الجنوب الهندي ، واستطاع ان يوسع حكمه باستيلائه على بلاد المليبار ، حتى خشي الانكليز منه ، وبعد ان قضى عشرين سنة في بناء هذا الملك توفي سنة ١٧٨٢ فخلفه ابنه المذكور (تيبو سلطان) المسمى (اسد ميسور) وقد اصبح اسم هذا الامير جزءاً لا ينفك عن تاريخ الصراع الهندي الاسلامي في سبيل حفظ استقلال البلاد ، وقد ابلى بلاءاً حسناً في جهاد المعتدين الانكليز حتى ضرب المثل بصبره وجهاده المرير ، وما يزال ذكره على كل لسان في الجنوب الهندي شاهداً على عظمة هذا الرجل[١] الذي كان اشد وطأة واوجع ضرباً من كل

---

(١) شاهدت آثاره من المباني والقصور والمتاحف والمدارس وغيرها واكثرها في =

الذين حاربوا الانكليز في الهند حتى استنفذت مالية الشركة في سبيل حرب ميسور ، وضجّت لندن من تصرفات هيستنكز Warn Hestings) القائد البريطاني وانكرت عليه سياسته فاضطر الى الاستقالة سنة ١٧٨٥ ، وظل (تيبو سلطان) مصدر قلق للبريطانيين الى ان استطاع ريتشارد ويلزله Richard Wellesely الحاكم العام في الهند ، ان يعلن الحرب على تيبو سنة ١٧٩٩ وهجم عليه هو وحلفاؤه بكل قواهم ، فادرك اسد ميسور ان لا طاقة له بكل هذه القوات ونزل يقاتل بشجاعة اقرّ له بها خصومه وظل يجالد حتى استشهد وبقوته قضى الانكليز على آخر قوة عسكرية كبرى في الهند .

وباستشهاد (تيبو سلطان) فقدت البلاد المليبار احد اعوانها واصحاب الرأي والقوة كانت تلجأ اليه في الملمات ، وكان لاسرة (اركل) الملكية الشهيرة في المليبار اتفاقية مع امارة ميسور منذ عهد (حيدر علي) وكان (حيدر علي) قد قدم بنفسه الى المليبار لتوقيع هذه الاتفاقية مع ملكة اركل الملقبة (اركل بي بي) ، وبعد ذلك اقتفى ابنه (تيبو سلطان) نفس النهج وابرم معاهدات عديدة مع هذه الملكة وبالنظر لهذا التعاون صادر الانكليز جميع ممتلكات اسرة (اركل) ثم ردّت سنة ١٨٦١ واضمر الانكليز حقدهم الى

= مدينتي ميسور Mysoreوينكلور Bonglor

وقت آخر وذلك عند استيلائهم على قلعة(كننور) التي كانت من جملة ممتلكات هذه الاسرة اشترتها من الهولنديين ، وقتل في هذه الوقعة ملك اركل زوج بي بي المذكورة وغيره من المواطنين المليباريين .

وبعد ذلك سيطر البريطانيون على الاسواق التجارية في المليبار وقبضوا على زمام تجارة الفلفل وتصديره الى خارج الهند ، وصودرت مرة اخرى ممتلكات (اركل) وكان من ضمن الاشياء المصادرة اطباق ثمينة ، وسيوف مذهبة ، والتاج الذهبي والعرش الملكي والفت شركة الهند لجنة خاصة لتقدير قيمة هذه الاشياء فقدرت قيمتها بمليونين وستمائة الف روبية ، وتوفيت ملكة اركل (جون اما بي بي) عام ١٨١٩ م بعد ان شهدت الايام الاخيرة من ايام اسرتها الملكية .

ولم تخلو المليبار من اضطرابات وانتفاضات ايام الاحتلال نظراً لسياسة الحكومة الاستعمارية وخاصة في ايام الحاكم الانكليزي اللورد منتو Mento الذي ساعد حركة التبشير المسيحي بشكل سافر منفذاً سياسة الشركة في تنصير الناس بينما الهنود لم يكونوا مستعدين للتنازل عن عقيدتهم كما تنازلوا مرغمين عن قوميتهم فلم يمض وقت طويل من انتهاج هذه السياسة حتى نشبت ثورة في تراونكور ، فاراد الهنود قتل المقيم الانكليزي ولكنه فرَّ من ايديهم فقتلوا

ثلاثين انكليزياً ، وعملت الحكومة او الشركة جهدها للقضاء على هذه الثورة بالترغيب والترغيب حتى قضت عليها .

وخضعت بلاد المليبار خلال هذه الفترة الى مدراس من الناحية الادارية وبقيت كما هو شأن الهند كلها تحت السيطرة الانكليزية حتى عهد الاستقلال ، وفي هذا العهد جمعت الوحدات الثلاث ، المليبار ، وتراونكور ، وكوشين ، وكوّنت ولاية كيرالا Kerala الحاليّة وذلك في الفاتح من نوفمبر سنة ١٩٥٦ .

تحفة المجاهدين في بعض احوال البرتغاليين

تأليف

الشيخ زين الدين المعبري المليباري



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي اظهر دين الإسلام على كل الاديان ، واعزَّ المتمسكين به على تعاقب الازمان ، والصلوة والسلام على رسوله الهادي الى الدين المتين ، وعلى آله واصحابه وذريته اجمعين .

وبعد فإن الله تعالى مَنَّ على عباده بأنه وهب لهم تميزاً ضميراً وعقلا ، واعدَّ لهم ما يحتاجون اليه ، وبيَّن لهم ما يفوزون به فضلاً ، وارسل لهم رسلاً ، مبشرين ومنذرين ، مخبرين عن الله هادين ، وشرَّفنا خاصة بأن جعلنا من امة خير خلقه محمد صلى الله عليه وسلم ، وفضلنا على سائر الامم .

قال الله تعالى : ﴿كُنْتُم خَيرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَاسِ﴾[1] .

---

(١) سورة آل عمران : الآية ١١٠ .

وقال رسول الله صلى الله عليه وآلـه وسلم : « انا سيـد ولد آدم ولا فخر »[1] .

واذا صح انه (صـلى الله عليه وآلـه وسلم) سيد ولـد آدم فهو خيرهم ، وخيريّة الامة تابعة لخيريته .

وروى الامام احمد[2] ، عن المقداد[3] رضي الله عنه ، انه سمع رسول الله (صلّى الله عليه وآله) يقول : «لا يبقى عـلى ظهـر الأرض بيت مـدر ولا وبـر الا ادخله الله كلمـة الاسـلام ، يعـز عـزيـز ، ويـذل ذليـل ، امـا يعـزهم الله

---

(١) جـامـع الاصـول في احـاديث الـرسـول ٨ / ٥٢٦ الحـديث ٦٣٢٥ . واخرجه الترمذي عن ابي سعيـد الخدري . والحـديث بكامله « انـاسيد ولد آدم يوم القيـامة ولا فخـر، وبيدي لـواء الحمد ولا فخـر ، وما من نبي يومئذ ـ آدم فمن سـواه ـ إلا تحت لوائي ، وانـا اول من تنشق عنه الأرض ولا فخر » وفي الحديث قصة ذكرهـا الترمـذي بطولهـا في كتاب القيامة من حرف القاف .

(٢) الامـام احمـد بن محمـد بن حنبـل (١٦٤ ـ ٢٤١ هـ) صـاحب المسنـد المشهور .

(٣) المقداد بن عمرو ، ويعرف بابن الاسود ، الكندي البهراني الحضرمي ، صاحبي جليل من الابطال ، وهو احد السبعة الـذين اظهروا الاسـلام ولد ٣٧ ق. هـ ، وتوفي ٣٣ هـ ، وفي الحديث : « ان الله امرني بحب اربعـة واخبرني انـه يحبهم : علي والمقـداد وابـو ذر وسلمـان » صحيـح الترمـذي ٢ / ٢٩٩ مجمـع الـزوائـد ٩ / ١٥٥ . تهـذيب التهـذيب ١٠ / ٢٨٦ .

فيجعلهم من اهلها ، ويذلهم فيدينون لها » فيكون الدين كله لله .

وبما لا يخفى ان الله سبحانه وتعالى ادخل دين الاسلام في اكثر الاراضي العامرة ، ففي اكثر الاقطار بالسيف والارغام ، وفي بعضها بالدعاء الى الاسلام ، وقد اكرم الله اهل مليبار من الهند بقبول دين الاسلام طائعين راغبين ، لا راهبين ولا مخزيين ، وذلك ان جمعاً من المسلمين دخلوا في بنادر[1] مليبار وتوطّنوا فيها ، ودخل اهلها في دين الله يوماً فيوماً ، وظهر فيها الاسلام ظهوراً بالغاً حتى كثر المسلمون فيها وعمر بهم بلدانها مع قلة ظلم رعاتها الكفرة ، وعدم تعدّهم عن رسومهم القديمة ، وآتاهم الله نعمة وسيعة ، فعبروا على ذلك زماناً ، ثم بدلوا نعمة الله كفراناً ، اذنبوا وخالفوا فسلط الله عليهم اهل برتكال من الافرنج خذلهم الله تعالى ، فظلموهم ، وافسدوا ، واعتدوا عليهم بما لا

(١) جمع بندر ، كلمة من اصل فارسي معناها فرضة على البحر او على نهر كبير ثم انتقلت الى عربية الشام ومصر واصبحت تدل على مركز التجارة ، او تبادل النقود ، والمصنع ، والشاهبندر كبير التجار واستعمل الترك هذه الكلمة للدلالة على قناصلهم في الخارج ، والبندر هو الميناء كما هو شائع في سواحل المليبار الهندية ، وفي اللغة الهندية تعني كلمة البندر : القرد ايضاً وورد في القاموس المحيط (البندر المرسى والمكلا) .

يحصى من اصناف الظلم والفساد الظاهرة بين اهل البلاد ، ومضوا على ذلك برهة من الازمنة تنيف على ثمانين سنة ، حتى آلت احوال المسلمين الى شر مآل من الضعف والذل ، وصاروا لا يستطيعون حيلةً ، ولا يهتدون سبيلاً ، ولم يعتن بدفع ما حل بهم من البلاء والفتنة سلاطين المسلمين وامراؤ هم اعزّ الله انصارهم مع كثرة عساكرهم واموالهم ، بالجهاد وانفاق الأموال في سبيل الله ، لقلة اعتنائهم بامور دينهم ، وايثارهم الدنيا الفانية على آخرتهم ، فجمعت هذا المجموع ترغيباً لاهل الايمان ، في جهاد عبدة الصلبان ، فانّ جهادهم فرض عين لدخولهم بلاد المسلمين ، وايضاً اسروا منهم من لا يحصي كثرة ، وقتلوا منهم كثيرين ، وردّوا جملة منهم الى النصرانية ، واسروا المسلمات المأسوات ، حتى خرج لهم منهن اولاد نصارى ، يقاتلون المسلمين ، ويؤذونهم .

وسميته « تحفة المجاهدين في بعض احوال البرتكاليين » ذكرت فيها مع بعض ما مضى من مساويهم ، ظهور دين الاسلام في ديار مليبار ، ونبذة يسيرة من احكام الجهاد ، وعظيم ثوابه ، والتحريض عليه بنصّ التنزيل والآثار ، وشيئاً اختص به كفرتها من غرائب الاخبار ، وجعلتها تحفةً لحضرة افخر السلاطين ، واكرم الخواقين[1] ، الذي جعل

(١) جمع خاقان اي الملك .

جهاد الكفرة قرة عينه ، واعلى كلمة الله بالغزاء ، وقرط اذنه ، وارصد نفسه الشريفة لنصر اهل الله ، وهمته العلية لتدمير اعداء الله ، محي دين الله من الضلال ، ماحي الكفر عن بلاد الله ، الذي صير محبة العلماء نصب عينه ، واغاثة الغرباء والضعفاء مطمح نظره ، مالك ازمة المعالي ، حسَّنته الايام والليالي ، الفائز مع حداثة سنه بالسعادة الابدية ، والحائز مع كثرة حسناته بالمفاخر السرمدية ، الذي طبق ارجاء الوجود سير مكارم اياديه ، وعبق نواحيه شذا نفحات ذكر محاسنه ، ودانت لهيبته رقاب الاعاظم ، وذلّت لعظمة صولته كرَام الاعارب والاعاجم ، الكريم الذي امطرت سحائب كفه على فضلاء البلاد البعيدة ، الحليم الذي اسنى حلمه حلم العقلاء المتقدمة ، صاحب النصر والفتوح ، والعمل الخالص النصوح ، ذي الغزوات التي تليت آيات فتحها في المحافل والامصار ، والمكرمات التي شاعت آثارها في الاقطار ، الساعي في قطع دابر الكافرين ، واستيصال المبطلين ، ناشر العدل والاحسان ، باسط اكف الفضل والامتنان ، السلطان الاعظم ، المظفر الاواه ، السلطان علي عادل شاه[1] ، رفع الله بعزّه قواعد الدين وشيَّدها ، وقمع بازاءه اولياء الطغيان وأباد فرقهم وفرقها ، وملّكه بساط الأرض شرقاً وغرباً ، وسلطه عليها براً وبحراً

---

(١) مرت ترجمته في كلامنا على (تحفة المجاهدين) .

وعجماً وعرباً ، وهو الامام الذي شهد بمكارمه الخافقان ، ورغب في خدمته الثقلان ، حبه لاهل العلم والورع طبيعي ، ورفعه لمقامهم ومقالهم امتثال شرعي ، خلد الله على العالمين احسانه وعدله ، وصب عليهم كرمه وفضله ، بحق محمد وآله .

وقسمت المجموع على اربعة اقسام : القسم الاول في بعض احكام الجهاد وثوابه والتحريض عليه ، القسم الثاني في بدء ظهور الاسلام في ديار مليبار ، القسم الثالث في نبذة يسيرة من عادات كفرة مليبار الغريبة ، القسم الرابع في وصول الافرنج الى بلدة مليبار وبعض افعالهم القبيحة وفيه فصول : القسم الاول في ابتداء وصولهم الى مليبار ثم حصول المخالفة بينهم وبين المسلمين والسامري[١] ، ومصالحتهم راعي كشي[٢] وكننور[٣] ، وبناء قلعتهم فيها وفي

(١) السامري : لفظة كان يعرف بها من يتولى امور الحكم ويتقلد الملك والدولة في بلاد المليباز ، وربما ترد اللفظة في بعض مصنفات اهل الهند (ساموتري) او الزامورين Lezamorin فحيثما وردت فهي تعني ملك المليبار ، وهو من الهندوس عادة ، وان كان هناك بعض الدلائل الاثرية تشير الى ان اسرة مسلمة كانت تحكم مدينة كننور بشمال مليبار خلال القرن الاول الهجري وتعرف باسم (اركل راجا ومشم) اي الاسرة المالكة باركل .

(٢) كشي اوكش ، من مدن المليبار الساحلية المهمة ، امتاز راعيها بصلته القوية مع البرتغاليين منذ عهد مبكر لدخولهم المليبار وذكرابن =

كولم[1] ، واخذهم بندر كووه[2] .

= خرداذبه هذه المدينة (كيس) بالسين وفي معجم البلدان الياقوت : كيش بالشين تعجيم قيس ، ولكن الواقع ان قيس تعريب كيش اوكيس (انظر دائرة المعارف الاسلامية) مادة قيس النسخة الانكليزية المجلد الثاني ص ١٦٤٩) .

(٣) كننور Cannanore من المدن المليبارية المهمة في شمال الملبار على ساحل بحر العرب ، بينها وبين كاسركود Kasargod ساعة بالقطار ، ولها توابع كثيرة من القرى والارياف وتمتاز بعدد هائل من المسلمين .

(١) كولم Kulam يرد ذكرها كثيراً في احداث الملبار وهي اليوم تسمى (Quilon) مساحتها ٤٦٢٠ كم . نفوسها (٢٨٠٧٢٢٣) احصائية ١٩٨١ جاء في تقويم البلدان : ٣٥٥ « والكولم آخر المليبار واخر بلاد الفلفل» وقال القزويني في آثار البلاد : ١٠٦ ـ ١٠٧ : « كولم مدينة عظيمة بأرض الهند ، قال مسعر بن مهلهل دخلت كولم وما رأيت بها بيت عبادة ولا صنماً واهلها يختارون ملكاً من الصين اذا مات ملكهم ، وليس للهند طيب الا في هذه المدينة ، عماراتهم عجيبة ، اساطين بيوتهم من خرز اصلاب السمك ، وتعمل بها غضائر تباع في بلادنا على انه صيني وليس كذلك ، لأن طين الصين اصلب من طين كولم واصبر على النار ، وغضائر كولم لونها ادكن وغضائر الصين ابيض وغيره من الالوان ، وبها منابت الساج المفرط الطول ربما جاوز مائة ذراع واكثر وبها البقم والخيزران والقنا بها كثيراً جداً وبها الراوند وهو قرع ينبت هناك ، ورقه الساذج الهندي العزيز الوجود لأجل ادوية العين ، ويحمل اليها اصناف العود والكافور واللبان والعود يجلب من جزائر خلف خط الاستواء ولم يصل الى منابته احد ولا يدري كيف شجره ، وانما الماء يأتي به الى جانب الشمال وبها معدن الكبريت الاصفر ، ومعدن النحاس ينعقد دخانه توتياء جيداً . » ا هـ . وقد مر =

الفصـل الثاني في مصـالحـة السـامـري ايـاهم وبنـائهم قلعتهم في كاليكوت[1] . الفصـل الرابـع في وقوع الخـلاف

= بها ابن بطوطه فوصفها انظر رحلته / ٦٤٩ .

(٢) كووه GOA تمثل هـذه المـد ينـة مع دامـون DAMAN وديو DIU ولايـة اتحادية هندية UNION TERRITORIES ويعد من الاتحادات الساحلية الهامة للهند الحديثة ، وقد زرت كـووه وما تـزال فيها آثـار البرتغـاليين حيث كـانت من امنع حصـونهم فيما مضى من الـوقت ، والغالبيـة من السكـان على النصـرانية فتنتشـر الكنائس في كـل مكـان تقـريبـاً ومنهـا الكنائس البرتغالية المشيدة منذ عشرات السنين . وتعـد كووه ايضـاً من الامكنة السيـاحية الجميلة جداً ومحط انظار السياح من كل بلاد العالم ، لما تتمتع بـه من مناظر خلابة ، وجـو خالص للمتعـة والراحـة ، ومن اقرب مدن الهند الكبرى اليهـا بومبـاي BOMBAY ، وكووه هي اكبـر المدن الثلاث المشتركة في الاتحاد حيث تبلغ مساحتها ٣٧٠٢ كم٢ وعدد سكانها حسب احصائيـة ١٩٨١ ، ١٤١ ,١,٠٠٣ من اصل سكـان الاتحاد البالغ عددهم ١,٠٨٢,١١٧ .

(١) كاليكوت ويسميها الانكليز KOZHIKODE من اهم المدن الساحلية في المليبار وميناءها من اقدم موانى الهند المعروفة منذ قديم الزمان . دخلهـا الاسـلام قبل اكـثر من الف عـام ومـا تـزال الى الآن المرجـع الديني لمسلمي المليـار لكثـرة مـا تحتـويـه من المـدارس والجـامعـات الـدينيـة والعربية ، ومن العلماء الاعلام وافاضل الطلبة والمحصلين ، ومسجدها من اقدم مساجد المسلمين في الهند ، وقد زرتها غير مرة وفيها للمسلمين نشاط كبير وعـدد ضخم من الجمعيات والنـوادي والاحزاب والمكتبـات وهي الآن من اكبر محافظات مقاطعة كيرالا KERALA الهنـدية ، يبلغ عدد سكانها (احصائية ١٩٨١) ٢٢٤٣٠٠٤ نسمـة ومساحتهـا ٢٣١٤ كم٢ .

بينهم وبين السامري وفتح قلعتهم . الفصل الخامس في وقوع الصلح بينهم وبين السامري مرة ثانية وبناء قلعتهم في شاليات[1] . الفصل السادس في صلح السامري مع الافرنج مرة ثالثة .

الفصل السابع فيما فعل السلطان بهادر شاه بن مظفر شاه الكجراتي[2] رحمهم الله معهم من مصالحتهم مع اعطاء

---

(١) من جملة المدن الملبارية على بعد حوالي ١١ كيلو متراً جنوب كاليكوت وتدعى اليوم بيبور (Peypore) وهي بفتح الشين المعجمة والف ولام مكسورة وياء اخر الحروف ثم الف وتاء مثناة فوقية . تقويم البلدان (٣٥٤) زارها ابن بطوطه وقال : مدينة من حسان المدن تصنع بها الثياب المنسوبة لها (رحلته / ٦٥٢) .

(٢) من ملوك كجرات (على الساحل الغربي الهندي) وقد ابتدأ حكم سلالة كجرات الهندية ، بمظفر الاول ظفر خان الذي اعلن استقلاله سنة ٨١٠ وكان عمره يومذاك ٣٣ سنة ومظفر شاه الثاني احد ملوك هذه السلالة الاقوياء وصادف ان حدث بينه وبين ابنه بهادر شاه الذي ولد في ٧ شوال ٨٧٤ هـ خلاف فذهب بهادر الى بلاط ابراهيم سلطان آخر الملوك من اسرة لودي ، وشهد وقعة پانيبت (٧ رجب سنة ٩٣٢ هـ) ولكنه لم يشترك فيها . ولما سمع بوفاة والده وولاية اخيه الاكبر سكندر شاه العرش سار نحو كجرات وسمع في طريقه بمقتل اخيه ، واعتلى عرش كجرات في ٢٤ شوال سنة ٩٣٢ هـ فاصبح العاشر من سلالة ملوك كجرات وعندها ثار لأخيه ، وكان حاكماً جم النشاط واستطاع ان يفتح ماله في شعبان ٩٣٧ هـ . ولكن همايون بن بابر المغولي هزمه في سنة ٩٤٢ هـ فاستعان بالبرتغالين الذين سرعان ما =

جملة من بنادره الكبار . الفصل الثامن ، في وصول سليمان باشا وزير السلطان الاعظم المرحوم السلطان سليمان شاه الرومي(١) نوّر الله مرقدهما الى ديو(٢) ونواحيها ورجوعه الى

= انجدوه ووجدوا الفرصة مؤاتية لبسط الهيمنة البرتغالية على بنادر كجرات ذات الشهرة التجارية الواسعة ، ولما توطد حكم بهادر مرة اخرى ، ندم على دعوته للبرتغاليين وحاول التخلص منهم وفي تلك الفترة كان نائب ملك البرتغال قد وصل الى ديو واحجم عن النزول الى الشاطيء لمقابلة بهادر بحجة المرض وكانت حيلة مدبرة للايقاع ببهادر فقر رأي بهادر على زيارته في ٣ رمضان سنة ٩٤٣ هـ ولما احس بما دبر له قاوم الجنود على ظهر تلك السفينة مقاومة كبيرة انتهت بمصرعه وسقوطه في البحر وقد ارخ اهل كجرات مصرع مليكهم بحساب الجمل بعبارة (سلطان البر شهيد البحر) وتولى الحكم من بعده ميران محمد الاول شاه فاروقي صاحب وفي ايامه سقطت ديو بايدي البرتغاليين . . . وآخر ملوك سلالة كجرات مظفر الثالث تولى خمسة اشهر خلال سنة ٩٩١ وبه انتهى حكم السلالة (راجع ظفر الواله ١ / ٢٦٠ وما بعدها) .

(١) هو السلطان العثماني سليمان بن سليم الأول ياوز بن بايزيد : عاشر السلاطين العثمانيين واعزهم ، وتولى الحكم في ١٥ شوال ٩٢٦ هـ حتى ربيع الأول ٩٧٤ هـ لقبه الاتراك بالقانوني ، والافرنج بالعظيم ، قاد بذاته ثلاث عشرة حملة في اوروبا وآسية ، وبلغت الامبراطورية العثمانية في عهده اوجها ، اوثق عرى الصادقة بين الباب العالي ودول اوربا ومنح فرنسوا الاول ملك فرنسا الامتيازات الاجنبية .

(٢) ديو DIU تشكل مع دامان وكووه ولاية اتحادية هندية على سواحل الهند =





القسم الأول

في بعض احكام الجهاد[1] وثوابه والتحريض عليه

اعلم ان الكفـار حـالتـين ان يكـونـوا مستقـرين في بلادهم ، فالجهـاد حينئذ فـرض كفايـة اذا قام بـه من فيهم كفاية سقط الخروج عن الباقين ، والا اثموا كلهم ، وثـانيهما ان يدخلوا بلاد المسلمين كما في قضيتنا هذه ، فالجهاد فرض عيـن عـلى كل مسلم مكلف قـوي بهـا ، ولـو عبـداً وامـرأة ومدنياً وفرعاً بغير اذن سيده وزوج وغـريم واصل وعـلى من دون مسافة القصر وكذا على من فوقهـا ان لم يكن في غيرهم كفـاية ، ويـنـدب لامير الجهـاد ان يشـاور اصحـابـه في امـر الجهاد ، ويرتبهم صفوفاً ، واذا ظفر بالغنيمة امر بجمعها ، واعطى سلب المقتول للقاتل ، وهو ما كـان على الكـافر من ثيـاب وخف ومنطقـة وهميان ومـا فيه من النفقـة ، وسوار ،

---

(١) اصل الجهاد في اللغة الجهد وهو المشقة وفي الشرع بذل الجهـد في قتال الكفار .

وآلة حربه ، ومركوبه ، وسرجه ، ولجامه ، ثم قسمها خمسة اسهم فسهم منها يقسم خمسة أسهم سهم منها لمصالح المسلمين كسد ثغر وعمارة حصن وقنطرة ومسجد وارزاق القضاة والائمة ، وسهم لذوي القربى من النبي (صلى الله عليه وسلم) بني هاشم وبني عبد المطلب ، وسهم لليتامى ، وسهم للمساكين ويدخل فيه الفقراء ، وسهم لابناء السبيل . والاخماس الاربعة الباقية للغانمين ، وهم من حضر الواقعة للحرب كاملاً ، ويسن للمجاهد الدعاء والتماس بالنصر من الله ، وليقدم التقوى والاعتماد على الله تعالى قبل الشروع في الجهاد ، والله الموفق ، وليحذر كل احد للخيانة في الغنيمة ، ورد في ذلك التهديد البليغ ، ولا يخفى ان مسلمي مليبار ليس لهم امير ذو شوكة يحكم عليهم ويراعي مصالحهم بل كلهم رعايا الكفرة ، ومع هذا كانوا جاهدوهم وصرفوا في جهادهم الاموال على قدر طاقتهم بمعونة محبّ المسلمين (السامري) وانفاقه الأموال في اول مرة حتى ضعف المسلمون بتعطيل تجاراتهم ، واهلاك نفوسهم ، وتخريب ديارهم واموالهم ، وهكذا مراراً حتى ازداد ضعفهم واشتد فقرهم وفاقتهم ، وعجزوا ولم يعتن باحوالهم سلاطين المسلمين وامراؤهم اعز الله انصارهم ، مع وجوب الجهاد عليهم ، فمن قام من ذوي السلطنة نصرهم الله تعالى لمجاهدتهم بانفاق الاموال ، واعداد العدد اللائقة بمقاومتهم واخراجهم من ديار مليبار ، واستخلاص

البنادرات التي تملكوها واستولـوا عليها فهـو الموافق السعيـد الذي صار مؤدياً باذن الله لما وجب عليه ، ورافعـاً للخروج على الباقين وحائـزاً من الثواب الجزيل مـا لا يحصى ، ومن الثنـاء الجميـل من اهـل الشـرق والغـرب مـا لا يـدري ، ومرضياً عند الله وملائكتـه وانبيائـه ورسلِه ، فائـزاً بالـدعاء الصـالـح من عبـاد الله الصـالحـين ، والضعفـاء والفقـراء والمساكين اذ فيه مع ثواب الجهاد ، وانفاق الاموال في سبيـل الله ثـواب تنفيس كرب هؤلاء المستضعفـين لقـد قـال النبي صلى الله عليه وآلـه وسلم « من نفس عن مؤمن كـربـة من كرب الدنيـا ، نفّس الله عنه كـربة من كـرب يوم القيـامة » رواه مسلم[1] ، فاذا كان هـذا فيمن نفس عن مؤمن واحد كربة واحدة ولو حقيرة فكيف حال من نفس الكرب الكثيرة العـظام عمن لا يحصى يوم المستضعفـين بـالجهـاد في سبيـل الله ، فلا يحصى ثواب ذلـك الا الله سبحانـه وتعالى ، وقـد اخص الله سبحانه وتعالى على الجهاد في تخليص المستضعفين

---

(١) اخـرجـه مسلم من روايـة الاعمش عن ابي صـالـح عن ابي هـريـرة ، واخرجه ايضاً الطبراني والترمـذي وغيرهم ولهـذا الحديث تتمـة . انظر جامع العلوم والحكم في شـرح خمسين حـديثاً من جـوامع الكلم لـزين الدين ابي الفرج عبد الرحمن الحنبلي البغدادي (من علماء القرن الثامن الهجري) ص ٢٩٥ الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٥٠ .
والكربة هي الشدة العظيمة التي توقع صاحبهـا في الكرب وتنفيسهـا ان يخفف عنه منها .

فقال : ﴿ وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان . . ﴾[1] .

وقد ورد في فضائل الجهاد والمرابطة وانفاق الاموال في ذلك والشهادة آيات واحاديث كثيرة . فقد قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ، وعسى ان تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وانتم لا تعلمون ﴾[2] وقال ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم واموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والانجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم ﴾[3] .

وقال : ﴿ مثل الذين ينفقون اموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم ﴾[4] .

وقال : ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله امواتاً بل احياء عند ربهم يرزقون ، فرحين بما آتاهم الله من

---

(١) النساء : ٧٥ .

(٢) البقرة : ٢١٦ .

(٣) التوبة : ١١١ .

(٤) البقرة : ٢٦١ .

فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم الا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾(١) .

وروى البخاري ومسلم في صحيحيهما عن ابي هريرة رضي الله عنه قال ، سئل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، اي الاعمال افضل ؟ قال : « ايمان بالله ورسوله » قيل ثم ماذا ؟ قال « الجهاد في سبيل الله » قيل ثم ماذا ؟ قال : « حج مبرور »(٢) .

وفيهما عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « انتدب الله لمن خرج في سبيله لا يخرجه الايمان بي وتصديق برسله ان ارجعه بما نال من اجراوغنيمة او أدخله في الجنة »(٣) ، وعنه قال : قال رسول الله صلى اللهعليه وآله وسلم : « والذي نفسي بيده لولا ان رجالاً من المؤمنين لا تطيب انفسهم ان يتخلفوا عني ولا اجد ما احملهم عليه ما

---

(١) آل عمران : ١٧٠ ـ ١٧١ .

(٢) صححناه عن مسند احمد ٤ / ٢٣ ـ ٢٤ رقم ٧٥٨٠ وينظر رقم ٧٢٢٩ و ٧٨٥٠ ، ومسند الدارمي ٢ / ٢٠١ وسنن النسائي ٥ / ١٩ .

(٣) الحديث في سنن ابن ماجه ٢ / ٩٢٠ رقم ٢٧٥٣ ، على هذه الصورة : عن ابي هريرة ، قال : قال رسول الله « اعد الله لمن خرج في سبيله لا يخرجه الا جهاد في سبيلي ، وايمان بي ، وتصديق برسلي ، فهو على ضامن ان ادخله الجنة او ارجعه الى مسكنه الذي خرج منه ، نائلاً ما نال من اجر او غنمه » وللحديث تتمة .

تخلفت عن سرية تغزو في سبيل الله ، والذي نفسي بيده لوددت اني اقتل في سبيل الله ثم احيا ثم اقتل ثم احيا ثم اقتل ثم احيا ثم اقتل »[1] .

وعنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « مثل المجاهد في سبيل الله ، كمثل الصائم القانت بآيات الله لا نيته من صيام ولا صلوة حتى يرجع المجاهد في سبيل الله »[2] .

وعنه : قال صلى الله عليه وآله وسلم « والذي نفسي بيده لا يكلم احد في سبيل الله ، والله اعلم بمن يكلم في سبيله الا جاء يوم القيامة والجرح يثعب دماً ، اللون لون الدم ، والريح ريح المسك »[3] .

وعن انس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « لغدوة او روحة في سبيل الله خير من الدنيا وما

---

(١) صححناه عن صحيح البخاري ٣ / ٢٠٣ .

(٢) في صحيح البخاري ٣ / ٢٠١ عن ابي هريرة قال : سمعت رسول الله (ص) يقول : « مثل المجاهد في سبيل الله والله اعلم بمن يجاهد في سبيله كمثل الصائم القائم وتوكل الله للمجاهد في سبيله بأن يتوفاه ان يدخله الجنة او يرجعه سالماً مع اجر او غنيمة » .

(٣) صححناه عن البخاري ٣ / ٢٠٤ ومسند احمد ٣ / ٢٤ ـ ٢٥ رقم ٧٣٠٠ وسنن النسائي ٥ / ٢٨ ـ ٢٩ وكنز العمال ٢ / ٢٥٤ رقم ٥٤٠٦ .

فيها »[1] .

وعنه قال : قال صلى الله عليه وآله وسلم « ما احد يدخل الجنة يحب ان يرجع الى الدنيا وله ما على الأرض من شيء ان الشهيد يتمنى ان يرجع الى الدنيا فيقتل عشر مرات لما يرى من الكرامة »[2] .

وعن جابر رضي الله عنه ، قال : قال رجل للنبي صلى الله عليه وآله وسلم يوم احد ، أرأيت ان قتلت في سبيل الله فاين انا ؟ قال : « في الجنة » ، فالقى تمرات في يده ، ثم قاتل حتى قتل[3] .

وعن سهل بن سعد الساعدي ، قال صلى الله عليه وآله وسلم : « رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها »[4] .

---

(١) سنن ابن ماجه ٢ / ٩٢١ الحديث ٢٧٥٧ . وانظر ٢٧٥٥ عن ابي هريرة ، و ٢٧٥٦ عن سهل بن سعد الساعدي .
وفي البخاري ٣ / ٢٠٣ وسنن النسائي ٥ / ٩ .

(٢) صحيح البخاري ٣ / ٢٠٨ وفيه ايضاً ، ٣ / ٢٠٢ - ٢٠٣ عن انس « ما من عبد يموت له عند الله خير يسره ان يرجع الى الدنيا وما فيها الا الشهيد لما يرى من فضل الشهادة فانه يسره ان يرجع الى الدنيا فيقتل مرة اخرى » .

(٣) سنن النسائي ٥ / ٣٣ .

(٤) صحيح البخاري ٣ / ٢٢٤ .

وعن ابي موسى قال : جاء رجل الى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال : الرجل يقاتل للمغنم ، والرجل يقاتل للذكر ، والرجل يقاتل ليرى مكانه ، فمن في سبيل الله ؟ قال : « من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله »[1] .

وعن ابي سعيد الخدري : ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : « افضل الناس مؤمن مجاهد في سبيل الله بنفسه وماله »[2] .

وروى البخاري ، عن ابي هريرة ، قال : قال رسول الله صلى الله عله وآله وسلم : « ان في الجنة مائة درجة اعدها الله للمجاهدين في سبيل الله ، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض فاذا سألتم الله الفر دوس ، فانه اوسط الجنة واعلى الجنة وفوقه عرش الرحمان ، ومنه تفجر انهار الجنة »[3] .

وعن ابن عباس ، قال صلى الله عليه وآله وسلم : « ما اغبرت قدما عبد في سبيل الله فتمسه النار »[4] .

(١) سنن ابي داود ٣ / ١٤ الحديث ٢٥١٧ . والبخاري ٣ / ٢٠٦ ونيل الاوطار ٧ / ١٧٩ . وجامع الاصول ٢ / ٥٨١ رقم ١٠٦٣ .
(٢) انظر كنز العمال ٢ / ٢٥٣ رقم ٥٣٩١ .
(٣) صحيح البخاري ٣ / ٢٠٢ .
(٤) صححناه عن البخاري ٣ / ٢٠٧ ، وسنن النسائي ٥ / ١٤ والفتح =

وعن ابي قيس قال : سمعت سعداً يقول : « اني لأول العرب رمى في سبيل الله وكنا نغزوا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومالنا طعاماً الا ورق الشجر حتى ان احدنا يضع كما يضع البعير والشاه ماله خلط »[1] .

وعن ابي هريرة رضي الله عنه قال صلى الله عليه وآله وسلم : « من احتبس فرساً في سبيل الله ايماناً بالله وتصديقاً بوعده ، فان شبعه وريه وروثه وبوله في ميزانه يوم القيامة »[2] .

وروى مسلم عنه قال صلى الله عليه وآله وسلم : « من مات ولم يغز ولم يحدث به نفسه مات على شعبة من نفاق »[3]

وعنه قال صلى الله عليه وآله وسلم : « لا يجتمع كافر

= الرباني (ترتيب مسند احمد) ١٣ / ١٥ .

(١) رواه البخاري في مناقب سعد بن ابي وقاص ٧ / ٦٧ ومسلم في الزهد رقم ٢٩٦٦ وجامع الاصول ٩ / ١٧ رقم ٦٥٣٦ .

(٢) البخاري ٣ / ٢١٦ والمستدرك ٢ / ٩٢ وكنز العمال ٢ / ٢٥٤ رقم ٥٤١٤ .

(٣) سنن ابي داود ٣ / ١٠ رقم ٢٥٠٢ وفيه « من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بالغز مات على شعبة من نفاق » . رواه عن عبدة بن سليمان المروزي بسنده عن ابي هريرة ، وانظر المستدرك ٢ / ٧٩ وسنن النسائي ٥ / ٨ .

وقاتله في النار »[1] .

وعنه : قال صلى الله عليه وآله وسلم : « من خير معاش الناس لهم رجل ممسك عنان فرسه في سبيل الله يطير على متنه كل ما سمع هيعة او فزعة ، طار عليه يبتغي الموت او القتل مظانه ، او رجل في غنيمة في رأس شعفة من هذه الشعف او بطن وادي هذه الاودية يقيم الصلوة ويؤتي الزكاة ويعبد ربه حتى يأتيه اليقين ليس من الناس الا في خير »[2] .

وعن جابر بن سمرة : قال صلى الله عليه وآله وسلم : « لن يبرح هذا الدين قائماً يقاتل عليه عصابة المسلمين حتى تقوم الساعة » .

وعن سلمان الفارسي قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : « رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه وان مات جرى عليه عمل الذي كان يعمله ، واجرى رزقه ، وامن الفتان »[3] .

---

(١) كنز العمال ٢ / ٢٥٢ الحديث ٥٣٦٨ .

(٢) انظر مسند احمد بن حنبل ٤ / ٣٠١ الحديث ٢٨٣٨ مع بعض الاختلاف وراجع ايضاً رقم ٢٩٢٩ و ٢٩٣٠ و ٢٩٦١ . وكنز العمال ٢ / ٢٥٩ الحديث ٥٥٢٠ .

(٣) في المستدرك ٢ / ٨٠ ، عن سلمان الفارسي عن رسول الله (ص) قال : « من رابط يوماً وليلة في سبيل الله كان له اجر صيام شهر =

وعن عقبة بن عامر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو على المنبر يقول : « واعدوا لهم ما استطعتم من قوة[1] ـ الا ان القوة الرامي ، الا ان القوة الرامي ، الا ان القوة الرامي »[2] .

وعنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : « من علم الرمي ثم تركه فليس منا »[3] .

وعن ابي مسعود الانصاري قال : جاء رجل بناقة مخطومة فقال : هذه في سبيل الله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « لك بها يوم القيامة سبعمائة ناقة كلها مخطومة »[4]

وعن مسروق قال : سئلنا عبد الله بن مسعود عن هذه الآية : ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله امواتاً بل

= وقيامه ، ومن مات مرابطاً جرى له مثل ذلك الاجر ، واجرى عليه الرزق وامن الفتان » .

(١) الانفال : ٦٠ .

(٢) سنن ابي داود ٣ / ١٣ الحديث ٢٥١٤ (عقبة بن عامر الجهني) سنن الدارمي ٢ / ٢٠٤ كنز العمال ٢ / ٢٦٧ الحديث ٥٦٩٦ .

(٣) كنز العمال ٢ / ٢٦٧ الحديث ٥٧١١ . المستدرك ٢ / ٩٥ ـ ٩٦ .

(٤) سنن الدرامي ٢ / ٢٠٣ ـ ٢٠٤ المستدرك ٢ / ٩٠ .

احياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله ﴾[1] . الى آخر الآية ، قال انا سألنا عن ذلك فقال : « ارواحهم في جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش تسرح في الجنة حيث شاءت ثم تأوي الى تلك القناديل فاطلع اليهم ربهم اطلاعة ، فقال : هل تشتهون شيئاً قالوا : اي شيء نشتهي ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا ففعل بهم ثلاث مرات فلما رأوا انهم لن يتركوا من ان يسألوا ، قالوا : يا رب نريد ان ترد ارواحنا في اجسادنا حتى نقتل في سبيلك مرة فلما رأى ان ليس لهم حاجة تركوا »[2] .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : « القتل في سبيل الله يكفر كل شيء الا الدين »[3] .

وعن انس قال : انطلق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم واصحابه حتى سبقوا المشركين الى بدر وجاء المشركون فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : ما حملك على قول بخ بخ ؟ قال لا يا رسول الله الا رجاء ان اكون من

---

(١) آل عمران : ١٦ .

(٢) سنن ابن ماجه ٢ / ٩٣٦ الحديث ٢٨٠١ . المستدرك ٢ / ٨٨ . سنن الدارمي ٢ / ٢٠٦ .

(٣) المستدرك ٢ / ١١٩ ، ومسند احمد ـ الحديث ٧٠٥١ . نيل الاوطار ٧ / ١٨٥ .

اهلها ، قال : فانك إذاً من اهلهـا ، قال : فـاخرج تمـرات من قـرنه فجعـل يأكـل منهن ثم قال : لئن جبت حتى آكـل تمـراتي انها الحياة طـويلة ، قـال : فـرمى بمـا كـان معـه من التمر ، ثم قاتلهم حتى قتل[1] .

وروى التـرمذي ، وابـو داود ، عن فضالـة بن عبيد ، عن رسول الله صلى الله عليـه وآله وسلم قـال : « كل ميت يختم على عمله الا الذي مات مرابطاً في سبيل الله فانه ينوله عمله الى يوم القيامة ويأمن فتنة القبر »[2] .

وروى ابـو داود ، عن ابي امامـة ، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قـال : « من لم يغز او يجهـز غازيـاً او يخلف غازياً في اهله بخير اصابه الله بقارعة قبل يوم القيامة »[3] .

وعن عمران بن حصين قـال صلى الله عليـه وآله وسلم « لا يزال طائفة من امتي يقاتلون على الحق ظاهرين على من

---

(١) سنن النسائي ٥ / ٣٣ وقد ورد فيه الحديث بشكل مختصر .

(٢) المستـدرك ٢ / ٧٩ ، وسنن ابي داود ٢ / ٩ الحديث ٢٥٠٠ وفيـه « كل الميت يختم على عمله الا المرابط ، فـانه ينمـو له عمله الى يـوم القيامـة ويؤمن من فنان القبر » .

(٣) سنن ابن مـاجـه ٢ / ٩٢٣ الحـديث ٢٧٦٢ وسنن ابي داود ٣ / ١٠ الحـديث ٢٥٠٣ . وفيهما الحـديث عن هشام بن عمـار عن الوليـد بن مسلم عن يحيي بن الحـارث الذماري عـن القاسـم عن ابي امـامـة عن النبي (ص) .

ناواهم حتى يقاتل اخرهم المسيح الدجال »[1] .

وروى الترمذي ، عن ابن عباس ، عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : « عينان لا يمسهما النار ، عين بكت من خشية الله ، وعين باتت تحرس في سبيل الله »[2] .

وعن ابي هريرة قال : مرَّ رجل من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بشعب فيه عيينة من ماء عذب فعجبته فقال : لو اعتزلت الناس فاقمت في هذا الشعب فذكر ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال : « لا تفعل ، فان مقام احدكم في سبيل الله افضل من صلواته في اهله ستين عاماً ، الا تحبون ان يغفر الله لكم ويدخلكم الجنة ، اغزوا في سبيل الله من قاتل في سبيل الله فواق ناقة وجبت له الجنة »[3] .

وروى الترمذي والنسائي ، عن ابي هريرة ، عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، قال : « الشهيد لا يجد الم

---

(١) المستدرك ٢ / ٧١ ، وسنن ابي داود ٣ / ٤ الحديث ٢٤٨٤ وفيه عن موسى بن اسماعيل عن حماد عن قتادة عن مطرف عن عمران بن حصين .

(٢) نيل الاوطار ٧ / ١٧٥ . المستدرك ٢ / ٨٣ وفيه بعض الاختلاف .

(٣) صححناه عن المستدرك للحاكم ٢ / ٦٨ .

القتل الا كما يجد احدكم الم القرصة »[1] .

وعن حرام بن فاتك قال صلى الله عليه وآله وسلم : « من انفق نفقة في سبيل الله كتب الله له بسبع مائة ضعف »[2] .

وروى ابن ماجه ، عن علي ، وابي الدرداء ، وابي هريرة ، وابي امامة الباهلي ، وعبد الله بن عمرو ، وجابر بن عبد الله ، وعمران بن الحصين رضي الله عنهم اجمعين كلهم يحدث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم انه قال :

« من غزا بنفسة في سبيل الله او ارسل نفقة » في وجهه فله بكل درهم سبعمائة الف درهم »[3] ثم تلى هذه الآية : ﴿ والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم ﴾[4] .

وروى ابو داود ، عن ابن عباس رضي الله عنه ، ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، قال لاصحابه : « انه لما اصيب اخوانكم يوم احد جعل الله ارواحهم في جوف طير خضر ترد انهار الجنة وتأكل من ثمارها وتأوي الى قناديل

---

(١) سنن الدارمي ٢ / ٢٠٥ وسنن النسائي ٥ / ٢٣٦ .
(٢) مستدرك الصحيحين ٢ / ٧٨ وفيه بعض الاختلاف وهو عن معاذ بن انس الجهني ؛ عن أبيه ، عن رسول الله (ص) .
(٣) سنن ابن ماجه ٢ / ٩٢٢ الحديث ٢٧٦١ . سنن النسائي ٥ / ٤٩ .
(٤) البقرة : ٢٦١ .

من ذهب معلقة في ظل العرش فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ومقيلهم قالوا : من يبلغ اخواننا عنا اننا احياء في الجنة لئلا يزهدوا في الجنة ولا يتكلموا عن الحرب ، فقال الله سبحانه وتعالى ، انا ابلغهم عنكم فانزل الله تعالى : ﴿ **ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله امواتاً بل احياء ـ الى آخر الآية** ﴾[1] .

وروى الحاكم ، عن ابي موسى الاشعري ، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : « ان الجنة تحت ظلال السيوف »[2] .

وروى ابن ماجه ، عن انس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « من راح روحةً في سبيل الله كان له بمثل ما اصابه من الغبار مسكاً يوم القيامة »[3] .

وروى الطبراني في الكبير ، عن ابن عمر قال صلى الله عليه وآله وسلم : « من صدع رأسه في سبيل فاحتسب غفر له ما كان قبل ذلك من ذنب »[4] .

---

(١) الآية المذكورة من سورة آل عمران : ١٦٩ والحديث في سنن ابي داود (٣ / ١٥) رقم ٢٥٢٠ وفيه (لا ينكلوا) بدلاً من (لا يتكلموا) .

(٢) البخاري ٣ / ٢٠٨ المستدرك ٢ / ٧٠ . نيل الاوطار ٧ / ١٨٣ .

(٣) كنز العمال ٢ / ٢٥٢ الحديث ٥٣٥٥ .

(٤) كنز العمال ٢ / ٢٥٢ الحديث ٥٣٥٩ .

وعن وائلة ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : « من فاته الغزو معي فليغز في البحر »[1] .

وروى الديلمي في مسند الفردوس عن ابي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « ساعة في سبيل الله خير من خمسين حجة »[2] .

اي ثواب الجهاد في ساعة اكثر من ثواب خمسين حجة ، ووجه الافضلية ان المجاهد خرج عن نفسه وماله لله وتعدّى ، نفع عمله بخلاف الحاج .

---

(١) كنز العمال ٢ / ٢٥٢ رقم ٥٣٦٠ وانظر سنن ابن ماجه ٢ / ٩٢٧ الحديث ٢٧٧٦ وما بعده ، وسنن النسائي ٥ / ٤٠ وما بعدها . والفتح الرباني ١٣ / ١٧ وما بعدها في فضل غزو البحر .

(٢) كنز العمال ٢ / ٢٥٦ الحديث ٥٤٤٣ وفيه « ساعات في سبيل الله خير من خمسين حجة » والرواية عن ابن عمر .



القسم الثاني

- في بدء ظهور الاسلام في مليبار -

وذلك ان جمعاً من اليهود والنصارى دخلوا بلدة من بلاد مليبار يقال لها كدنكلور [١] وهي مسكن ملكها في مركب كبير بعيالهم واطفالهم وطلبوا منه الاراضي والبساتين والبيوت وتوطنوا فيها ، وبعد ذلك بسنين وصل اليها جماعة من فقراء المسلمين معهم شيخ قاصدين زيارة قدم ابينا آدم عليه السلام بسيلان[٢]، فلما سمع الملك بوصولهم طلبهم

(١) مدينة كدنكَلور Kodungallur تقع الى الجنوب من بناني Ponnani وضمن محافظة ترجور TRICHUR وهي مدينة قديمة جداً كانت تدعى قديماً باسم مدينة مسريسي وكانت عاصمة مليبار التجارية والسياسية وعاصمة مملكة جيرمان برمال القديمة وهي المدينة التي حلّ فيها القديس توماس احد حواري السيد المسيح - في بعض الروايات .

(٢) سيلان cylone او Srilanka وعاصمتها كولومبو Colombo ، وقد زرت هذا الموقع منها الذي يذكره المؤلف وهو قدم آدم عليه السلام او كما يُعرف اليوم Adamspek على قمة جبل سرنديب في علو شاهق جداً =

واضافهم وسألهم عن الاخبار فاخبره شيخهم بامر نبينا محمد صلىٰ الله عليه وآله وسلم وبدين الاسلام ، ومعجزة انشقاق القمر[1] فادخل الله سبحانه في قلبه صدق النبي صلىٰ الله عليه وآله وسلم ، وامر الشيخ بأن يرجع هو واصحابه اليه بعد زيارة قدم آدم عليه السلام ليخرج هو معهم ، ومنعه ان يحدث بهذه السر المليباريين ، ثم انهم سافروا الىٰ سيلان ، ورجعوا اليه فامر الملك الشيخ بأن يهيء مركباً لسفره من غير ان يعلم به احد ، وكان في البندر المذكور مراكب كثيرة للتجار الغرباء فقال الشيخ لصاحب مركب انا وجماعة من الفقراء يتوقعون ان يركبوا في مركبك فرضىٰ بذلك صاحب المركب ، ولما قرب وقت السفر نهىٰ الملك اهل بيته ووزرائه ان يدخل احد منهم عليه مدة سبعة ايام ، وعين في كل بلدة من بلدانه شخصاً وكتب لكل كتاباً

= بقينا في الطريق والصعود اليه ليلة ويوم بكاملها مع اصدقاء لنا من الباكستان ، وهو من المزارات المقصودة من جميع الديانات والقائم عليها من كهنة البوذيين وحسب الرواية المتداولة فأن سيدنا آدم هبط عليه من الجنة وقد زار ابن بطوطة القدم الشريف ووصفه في رحلته .

(١) روي ان اهل مكة سألوا النبي عليه الصلاة والسلام آية فانشق القمر بمكة مرتين فنزلت (اقتربت الساعة وانشق القمر) الخ انظر صحيح الترمذي ٢/ ٢١١ . ومسند احمد بن حنبل ١ / ٤١٣ وصحيح البخاري في كتابي بدء الخلق والتفسير .

مفصلاً بتعيين الحدود حتىٰ لا يتجاوز احد عن حدّه الذي عينه ، والحكاية في ذلك مشهورة عند كفرة مليبار وحدّها من الجنوب كمهرى[1] ، ومن الشمال كانجركوت ، ثم ان الملك ركب مع الشيخ والفقراء في المركب ليلاً ، وسار المركب حتى وصل الىٰ فندرينه ونزل فيها ولبث ثلاثة ايام ومنها سار المركب حتىٰ وصل الىٰ شحر[2] ونزل فيها هو ومَنْ

---

(١) في اول بلاد المعبر من جهة المليبار رأس كمهري بضم الكاف وسكون الميم وضم الهاء وكسر الراء المهملة ثم ياء آخر الحروف ، قال وهناك جبل وبلد يقال له رأس كمهري (تقويم البلدان / ٣٥٤)) وتعتبر رأس كماري ابعد نقطة الىٰ الجنوب من ارض الهند تقع عندها كل مناطق الوثوب الىٰ جزيرة سيلان وهذه هي التي تقصّ الاساطير انها قد وُجدت فقط للاميرة سيتا زوجة راما الشخصية الاسطورية للملحمة الرامايانا ـ تلك التي اختطفت من زوجها من احدىٰ جبال جنوب الهند واختفيت في سيلان .

(٢) الشحرُ : بكسر اوله ، وسكون ثانيه ، قال الشحرة ، الشط الضيق ، الشحرُ الشط وهو صقع علىٰ ساحل بحر الهند من ناحية اليمن قال الاصمعي ، وهو بني عدن وعُمان ، ونُسب اليه بعض الرواة واليه ينسب العنبر الشحري لانه يوجد في سواحله ، وينسب الىٰ الشحر جماعة منهم محمد بن خوّى بن معاذ الشحري اليماني ، سمع بالعراق وخراسان . . معجم البلدان ٣٢٧/٣ وما بعدها ، وجاء في انساب السمعاني ٨ /٦٨ الشحِرْي : بكسر الشين المعجمة وسكون الحاء المهملة ، وفي آخرها الراء ، هذه النسبة الىٰ شحر عُمان ، والعنبر الشحري يضرب به المثل في الجودة ، منها محمد بن حرمي بن معاذ =

معه وبعد مدة طويلة رافقه وجماعة في السفر معه الىٰ مليبار لعمارة المساجد ، واظهار دين الاسلام فيها ثم ان الملك مرض واشتد مرضه فوصّىٰ اصحابه الذين رافقوه وهم شرف بن مالك ، واخوه من الأم مالك بن دينار ، وابن أخيه مالك بن حبيب بن مالك وغيرهم ، بأن لا يبطأوا سفر الهند بعد موته فقالوا : نحن لا نعرف موضعك ، ولا حدّ ولايتك ، وإنما اردنا السفر بصحبتك فتفكر الملك ساعة وكتب لهم ورقة بخط مليبار عينً فيها مكانه واقربائه ، واسماء ملوكها ، وامرهم ان ينزلوا في كد نكلور او درمفتن او فندرينة او كولم ، وقال لهم لا تخبروا بشدة مرضي ولا بموتي ان متُّ احداً من المليباريين ثم انه توفي رحمه الله برحمة واسعة . ومن بعد ذلك بسنين سافر شرف بن مالك ، ومالك بن دينار ، ومالك بن حبيب وزوجته قُمْرية وغيرهم مع الاولاد والاتباع الىٰ مليبار في مركب فوصل الىٰ كدنكلور ، ونزلوا فيها واعطوا ورقة الملك المتوفى الىٰ الملك الذي فيها واخفوا خبر موته فلما قرأها وعلم مضمونها اعطاهم الاراضي والبساتين علىٰ مقتضىٰ ما كتبه ، فأقاموا فيها وعمّروا فيها مسجداً، وتوطّن فيها مالك بن دينار واقام ابن اخيه مالك بن حبيب الىٰ كولم بماله وزوجته وبعض

= الشحري اليماني من اهل اليمن ، من المحدثين سمع بالعراق وبخراسان وبمرو .

اولاده وعمَّرَ بها مسجداً ، ثم خرج منها بعدما خلّى زوجته فيها الىٰ هيلي ما راوي[1] وعمَّرَ بها مسجداً ، ثم خرج الىٰ پاكنور وعمر بها مسجداً ، ثم رجع منها الىٰ منجلور[2]وعمر بها مسجداً ومنها الىٰ درمفتن[3]وعمر بها مسجداً ، ومنها الى كانجركوت وعمر بها مسجداً ، ومنها الىٰ هيلى ماراوي واقام

---

(١) في تقويم البلدان / ٣٥٤ : رأسَ هيلي بفتح الهاء وسكون المثناة التحتية وكسر اللام ثم ياء مثناة تحتية في الآخر . وقد وصفها ابن بطوطة في رحلته (٦٤١ - ٦٤٢) .

(٢) منجلور ، وفي تقويم البلدان / ٣٥٤ ضبطها منجرور والاولىٰ اصح ، قال : بفتح وسكون النون وفتح الجيم وضم الراء المهملة ثم واو ساكنة وراء مهملة من اواخر المليبار اهـ . وقد زرت هذه المدينة الكبيرة وتسمىٰ الآن منكَلور Mangalore تبعد بالطائرة ٣٥ دقيقة عن مدينة بنكلور Bangalore التي هي عاصمة ولاية كرناتكا الجنوبية ، ومنكلور نفسها من توابع هذه الولاية الآن ، وهذه المدينة من اجمل بلاد الهند تكتنفها الحدائق والبساتين من كل حدب وصوب وتطل على بحر العرب في مساحة واسعة وميناؤها من اكبر موانىء الهند ، وطبائع الناس وعاداتهم لا تختلف عن المليباريين المجاورين لهم غير ان الاختلاف في اللغة وهي عندهم اللغة الكنارية مع ان اكثرهم يجيدون اللغة المليبارية المسماة مليالم . وفي منكلور وضواحيها عدد كبير من المسلمين مع مساجد عديدة . وقد مرّ بها ابن بطوطة والتقىٰ بقاضيها الشافعي الشيخ بدر الدين المعبري قال : وبهذه المدينة ينزل معظم تجار فارس واليمن (انظر رحلته / ٦٤١) .

(٣) هي دَهْ فتن التي وصفها ابن بطوطة / ٦٤٢ وما بعدها .

بها ثلاثة اشهر ، ومنها الىٰ جُرْفتن[1] وعمر بها مسجداً ومنها الىٰ درمفتن وعمر بها مسجداً ومنها الىٰ فندرينه[2] وعمر بها مسجداً ، ومنها الى شاليات وعمر بها مسجداً واقام بها مدة خمسة اشهر ، ومنها الىٰ كدنكلور عند عمه مالك بن دينار ، ثم سافر منها الىٰ المساجد المذكورة ، وصلىٰ في كل مسجد منها ، ورجع الىٰ كدنكلور شاكر الله وحامد الله بظهور دين الاسلام في ارض ممتلئة كفراً ، ثم خرج مالك بن دينار ، ومالك بن حبيب مع الاصحاب والعبيد الىٰ كولم ، وتوطنوا فيها غير مالك بن دينار وبعض اصحابه فانهم سافروا الىٰ شحر وزاروا قبر الملك المتوفىٰ فيها ثم سافر مالك الىٰ خراسان وتوفي فيها[3] .

ورجع مالك بن حبيب مع زوجته بعدما ترك بعض اولاده في كولم الىٰ كدنكلور وتوفي فيها هو وزوجته ، هذا

---

(١) انظر ابن بطوطة /٦٤٢.

(٢) المصدر السابق /٦٤٤.

(٣) خراسان من بلاد ايران ، وتعرف الآن بمشهد نسبة الى مشهد الامام علي بن موسىٰ الرضا عليه السلام ، وما يذكره المؤلف هنا من سفر مالك بن دينار الىٰ خراسان ووفاته بها مناقض لما نراه اليوم في المليبار فالناس يجمعون علىٰ انه توفي في المليبار ، وقد زرنا قبره في مدينة كاسر كود Kasarugod وهو مشهور هناك وحوله مقبرة للمسلمين ومستشفىٰ ضخم باسم مالك بن دينار ايضاً .

اول ظهـور دين الاسلام في بـلاد ميلبار ، واما تـأريخه فلم يتحقق عندنا ، وغالب الظن انه كان بعد المائتين من الهجرة النبوية علىٰ صاحبهـا افضل الصـلوة والتحية ، واما مـا اشهـر عند مسلمي مليبـار ان اسلام الملك المـذكور كـان في زمان النبي صلىٰ الله عليـه وآله وسلم بـرؤية انشقـاق القمر ليلة ، وانه سافر الى النبي صلىٰ الله عليه وآله وسلم وتشرف بلقياه ورجع الىٰ شحر قاصد المليبار مع الجماعـة المذكـورين وتـوفي فيها فـلا يكاد يصـح شيء منها ، والمشهـور الآن بين الناس انه مدفون في ظفار[1]لا شحر وقبـره مشهور هنـالك يُتبرك به ، واهل تلك الناحية يسمون لـه السامـري ، وخبر غيبة الملك المذكـور مشهور عنـد جميع اهـل مليبار المسلمـين

---

(١) ظَفَار : مدينة قرب صنعاء ، كان بها مسكن ملوك حمير ، وفيها قيل من دَخل ظَفَار حمّر اي تكلَّمَ بالحميرية ، وسببه انه دخل رجل من العـرب علىٰ ملوك من ملوك حمير ، وهـو علىٰ مـوضع عـالٍ ، فقال لـه الملك : ثب ، فـوثب الرجـل من العلو فانكسـرت رجله ومعنىٰ ثب بالحميـريه اقْعد ، فقال الملك ليس عندنا عربية من دَخَلَ ظَفَار حُمَّر .

وينسب لظفار الجزع الظفاري ، وبها اللبّان الذي لا يوجد في الدنيا إلاّ في جبالها وانـه غلة اهلها . . . آثـار البلاد للقـزويني /٥٥ ـ ٥٦ . وذكر ياقوت الحمـوي : « وقد قـال بعضهـم ان ظفار المشهـورة اليوم فليست إلاّ صنعاء نفسها ، ولعـل هذا كـان قديمـاً، فامـا ظفار المشهـورة اليوم فليست إلاّ مـدينة عـلىٰ ساحـلِ بحـر الهنـد بينهـا وبـين مـربـاط خمسـ فـراسخ ، وهي من اعمـال الشِّحـر، وقـريبـة من صُحـار بينهـا وبـين مرباط .. » معجم البلدان ٤ /٦٠ .

والكفرة إلّا ان الكفرة يقولون عُرج به الى فوق ويتوقعون نزوله ، ولذلك كانوا يهيئون في موضع كدنكلور قبقاباً وماءاً ويسرجون فيه في ليلة معروفة عندهم ومشهور عندهم أيضاً انه قَسَّمَ ولايته عند قرب سفره علىٰ اصحابه إلّا السامري الذي كان اول رعاة بندر كاليكوت فانه كان غائباً عند القسمة فلما حضر اعطاه سيفاً وقال له اضرب بهذا وتملك فعمل بمقتضى قوله فتملك كاليكوت ، وبعد زمان سكن فيها المسلمون ووصل اليها التجار ، واصحاب الصنائع من اطراف شتى وكثرت التجارة فيها حتى كبرت ، وصارت مدينة عظيمة اجتمع فيها صنوف الناس من المسلمين والكفار ، وظهرت قوة السامري فيما بين رعاة مليبار ورعاتها كلهم كفرة وفيهم القوي والضعيف ، ولكن لا يأخذ القوي بلد الضعيف بقوته وذلك بوصية ملكهم الكبير الذي اسلم ودعائه بذلك وببركة النبي صلىٰ الله عليه وآله وسلم ، وببركة دينه فانّ منهم من يكون له مملكة فرسخ ومنهم مَنْ يكون له زيادة علىٰ ذلك ، وفيهم مَنْ يكون له من العساكر مائة او دونها او مائتان وثلثمائة الىٰ الف الىٰ خمسة آلاف وعشرة آلاف الىٰ ثلاثين الفاً الىٰ مائة الف واكثر وبعض البلدان يشترك فيها اثنان او ثلاثة او اكثر ، مع ان بعضهم اقوى واكثر عسكراً من الآخر ، ويقع الحرب والشحناء بينهم ومع هذا لا يتغير امر الشركة واكثرهم عسكراً ترودي راعي كولم وكمهري وما بينهما وفي شرقيهما ممالك كثيرة ، ثم

كـولتـري راعي هيـلي مـاراوي وجـرفتن وكننور وادكـار ودرمفتن وغيرها واكثرهم شوكة واشهرهم ذكراً السامـري ، ولـه ظهـور فيـما بينهم وذلـك ببـركـة دين الاســلام وحبـه للمسلمـين واكرامـه لهم خصـوصـاً الغـربـاء. وامـا الكفـرة فيزعمون ان ذلـك باعـطاء الملك المتقدم ذكـره السيف له ، وذلك السيف موجود عند السامري الى الآن على ما يزعمون محتـرماً معـظماً ويُحمل بـين يديـه اذا خـرج لحـرب أو مجمـع عظيم ، واذا حارب السـامري احـد رعاتهـا الذين هم غـير الاقوياء بسبب من الاسباب يعطيه المال ، او بعض المملكـة اذا خطر واذا لم يعط لا يتسلط قهراً مـع قدرتـه على ذلـك ، ولـو طال الـزمان وذلـك لأنّ اهل مليبـار يراعـون العـادات والرسوم القـديمة ولا يخـالفونها إلّا نـادراً واما غـير السامـري فليس لـه في المحـاربـة شيء إلّا اهـلاك النفـوس وتخـريب البلدان ان امكن[1]

(١) جاء وصف ابن بطوطة لوضع سلاطين المليبار وعادتهم موافقاً تقريباً لما ذكره المؤلف المليباري فمما ذكره في رحلته/ ٦٣٩ قال : وفي بلاد المليبار اثني عشر سلطاناً من الكفار، منهم القوي الذي يبلغ عسكره خمسين الفاً ، ومنهم الضعيف الـذي عسكره ثـلاثـة آلاف ، ولا فتنـة بينهم البتـة ولا يـطمع القـوي منهم في انتزاع مـا بيد الضعيف ، وبـين بـلاد احـدهم وصـاحبه بـاب خشب ، منقوش فيـه اسم الذي هـو مبـدأ عمـالتـه . ويسمونه باب امان فلان ، واذا فرّ مسلم او كافر بسبب جناية من بلاد احـدهم ووصل بـاب امان الآخـر . امن على نفسـه ولم يستطع الـذي =

= هرب عنه اخذه ، وان كان القوي صاحب العدد والجيوش . وسلاطين تلك البلاد يورثون ابن الاخت ملكهم دون اولادهم ، ولم ار مَنْ يفعل ذلك إلاّ مسوفة اهل الثلم فاذا اراد السلطان من اهل بـلادِ المليبار منـع الناس من البيع والشراء، امرَ بعض غلمانه فعلق عـلىٰ الحوانيت بعض اغصان الاشجار بأوراقها . فـلا يبيع احـد ولا يشتري مـا دامت عليها تلك الاغصان .

القسم الثالث

ـ في ذكر نبذة يسيرة من عادات كفرة مليبار الغربية ـ

اعلم ان في كفرة مليبار عادات غريبة ليست في غيرها من الاقطار . . منها انه انْ اقتتل راعيهم في الحرب يتهجم عساكره علىٰ خصمه وعساكره وبلاده حتىٰ يقتلوا جميعهم او يخربوا مملكة خصمه جميعها ولهذا يهابون من قتل الراعي هيبة عظيمة ، وهذا عادتهم القديمة وان قلّت المحافظة علىٰ ذلك في هذا الزمان .

ومنها ان رعاة مليبار صنفان : صنف معين السامري ، وصنف معين راعي كشي ، ولا يخلف ذلك إلّا لعارض فاذا زال العارض رجعوا الى طريقتهم الاولىٰ .

ومنها انهم لا يخدعون في حروبهم بل يعيّنُون يوماً معلوماً للحرب لا يخالفونه ، ويرون الخداع في ذلك هواناً ، ومنها انه اذا مات كبيرهم كالأب والأم وكبير الأخوة بالنسبة

الىٰ البـراهمة[1] والنجـارين وامثالهم ، وكـالأم والخـال وكبـير الأخـوة بالنسبـة الىٰ النيار[2] ومَنْ قـاربهم يجتنبون سنـة كاملة

---

(١) عُرف نظام الطبقات Castes في الـديانـة الهندوسيـة كما عُـرف في فارس ومصـر الفرعـونية وعنـد العبرانيـين وفي اليـونـان وفي رومـا وغيـرهـا . وبحسب الاعتقاد السائد لدىٰ الهنادكة فان البراهمة اعلىٰ الطبقات وانهم خلقوا من فم الاله براهما Brahma وهم اول النـاس وافضلهم ، ومنهم الكهنـة وحماة الـدين والمعابـد وممارسي الـطقوس الـدينية عنـد الـولادة والزواج والوفاة وغيرها . ورد في كتاب الهندوس المقدس (منوسمرتي) آيـة ٩٣ : « بما ان البـراهمة ، خلقـوا من اشرف واطهـر عضـوٍ ، وهـو الـوجه ، وهم القـائمون عـلى الويـد (اسفـار الفيـدا المقـدسـة) وهم اصحـاب الدين، فهم افضـل الجميع» وفي آيـة ٩٩ ـ ١٠٠ «ان الله قد نزل الىٰ هذا العالم بصورة البرهمن ، لحفظ الدين ، وان كل ما في هـذا العالم هو ملك للبراهمة لان براهما خلقهم من وجهه » . وقال البيروني في (تحقيق مـا للهنـد . .) « قـد ذكـر في كتبهم ان خلقتهـم من رأس براهم ، وان هذا الاسم كناية عن القوة المسماة طبيعة . والرأس علاوة الحيوان ، فالبراهمة نقاوة الجنس وبذلـك صاروا عنـدهم خيرة الانس » وتأتي بعد طبقة البراهمـا ، طبقة الكشتـرية (الجنـود) Kashterya ، ثم طبقة الفيشيا Feshya (التجار)، ثم طبقة الشودرا shodra (الصُّنّاع) .

(٢) النيار او الناير من اكبر الجماعات البشرية في المليبار ، وهم من الطائفـة الهنـدوسية وقـد امتازوا بنـظام الامومـة وهذا مـا دعـا بعض الـرحـالـة لـلاهتمام بـامرهم ومن اولئـك فرنسـوا بيرار الـذي زار ساحـل الميبـار فـوصف النايـر بانهم قـوم محاربـون ذوو جرأة وعـادات تذكـر الانسـان بفرسان الدور الاقطاعي الاوروبي في القـرون الوسـطى لما وجـده فيهم من حب الفخـر وشدة البـأس والحرص عـلى الاستقـلال وخلق الكـرم =

. . . .

= وحفظ الكرامة واحترام النساء .
وكان النابر في القرن السادس عشر للميلاد اناساً اغنياء اقوياء يملكون مدناً مهمة ، فقال ذلك السائح « يبدو زامورن (تمولي) في كاليكت من اعظم امراء الهند واغناهم ، فهو يقدر ان يجهز ١٥٠,٠٠٠ جنديّ من النابر ويعدُّ جميع ملوك النابر المقيمون بذلك الساحل من اتباعه فيطيعونه خلا ملك كوجين . ويلقي الباحث الفرنسي غوستاف لوبون بعض الضوء على النابر وعاداتهم فيقول : « والنابر من الناحية الجثمانية عرق ذو مسحة من الجمال، فهم ذوو قامات ناهضة وهيئات مليحة واطراف لطيفة وجلود سمرٌ لامعة ، وتعني كلمة النابر (السادة) ولا عجب فالنابر تتألف منهم طائفة اريستوقراطية مسيطرة على ساحل الملبار والنابر وان خضعوا ذات حين للبراهمة ليسوا من اصل آري ، فلم يعدوا مساوين لبراهمة شمال الهند الآريين ، والنابر انفسهم ، وان كانوا يزعمون انهم من طبقة الاكشترية لا يراهم الهندوس إلا من طبقة الشودرا ، والنابر يتكبرون على الاهلين الذين يحيطون بهم ويتعاظمون على التير الخاضعين لهم مع أن جلود هؤلاء اصفى من جلودهم ، والنابر يعتلون الموبلا الذين هم عرب مسلمون مخضرمون ، والموبلا هؤلاء على جانب عظيم من الشجاعة مع ذلك فتراهم لا ينفكون في الغالب عن مقاتلة سادتهم قتالاً لا هوادة فيه ولا رحمة . واكثر الاقوام الذين بلغوا شأواً في التقدم جاوز ا نظام الامومة الذي نراه في النابر ، فلا نجد هذا النظام عند غير القليل من الاهلين كالكهاسيا القاطنين في ولاية آسام وكالنابر هؤلاء . ولا تجد في القبائل العريقة في الفطرة اثراً للنكاح فنسوة احدى هذه القبائل ملك جميع رجالها فاذا تطورت هذه القبيلة اخذت بنظام الامومة شأن النابر ، فغدت النسوة ملك قليل من =

غشيان النسوان . واكل الحيوانات ، والتنبول[1]، وحلق الشعور ، وقلم الاظفار ، ولا يخالفون هذه العادة ، ويرون ذلك قربة الى الأموات .

ومنها ان الارث في طوائف النيار ومن قاربهم لاخوتهم

= الرجال وعهد اليهن في ادارة الاسرة » (حضارات الهند / ١٥٣ وما بعدها) .

(١) التنبول ، ويسمى في الهند الآن البان ـ بالباء الفارسية ـ وهو مشهور جداً بين سكان شبه القارة الهندية وقد اعتادوا عليه كاعتياد الناس على شرب الدخان ، وشجرة البان والتنبول تغرس كما تغرس دوالي العنب او يغرس في مجاورة النارجيل فيصعد عليه ولا ثمر للتنبول وانما المقصود منه ورقة ، ومن احسن انواعه المسمى بالبنارسي نسبة الى بنارس شمال الهند ويوضع بداخل الورقة وتكون في اول قطفها ـ العديد من المواد منها عدة انواع من التنباك والهيل والنورة والفوفل والسوباري وقد عددت بعض ما يضع فيها عند احد البائعين في الهند ويسمونهم « پان والي » اي « ابو اليان » فوجدت فيه اكثر من عشرين مادة متفرقة ، وربما يوضع فيها الجواهر وذلك خاص بالراجات والملوك السابقين ، ثم تلف الورقة على ما فيها ، ثم يجعله الانسان في فمه ويعلكه ، واهل الهند يحبونه ويرون انه مفيد للحفظ والفهم ويقوي المعدة والكبد والدماغ والقلب ويهضم الطعام ويصفي الصوت . . الخ . قال الشاعر :

لطائف الهند ثلاث اتت ... الانب والنرجس والپان
قال لي الخان نسيت النسا ... والحق ما قد قاله الخان

من الأم ، او اولاد اخواتهم او لخالاتهم او قـرابتهم من جهة الام لا لاولاد مالاً وملكاً ، وقد انجرّ هذا اعني عدم توريث الاولاد الىٰ اكثر مسلمي كنتور وما حواليهـا تبعاً لهم مـع ان فيهم من يقرأ القرآن ويحفظه ويحسن قراءتـه ، ويتعلم العلم ويشغـل بـالعبـادة ، وامـا البـراهمـة والصـاغـة والنجـارون والحـدادون والشانـانيّون والسمـاكون وغيـرهـم فالارث فيهم لـلاولاد ولهم نكاح ، وامـا النيـار فليس لهم من النكـاح إلاّ عقـد خيط في عنق المـرأة في اول مـرة ثم الامـر عـلىٰ حسب الحال العاقد وغيره سواء .

واما البراهمة فاذا كانوا اخوة لا ينكح الاّ اكبرهم سناً ما لم يتحقق انـه لا يولـد له والبـاقـون لا ينكحـون لئـلا يكـثر الورثة فيقع الخلاف بل ينضمون الى نسـوان النيار مـن غـير نكاح كالنيـار ، واذا حصل لاحدهم من احداهن الـولـد فلا يورثونه واذا تحقق ان الاكبر لا يولد له نكح غيره .

ومنهـا انه يجمـع على امـرأة واحدة من طـوائف النيار ، ومن قاربهم اثنان او اربعة اواكثر ويتنـاوب كل منهم ليلة كـما يقسم الزوج المسلم بين زوجاته ، ووقوع العداوة والشحنـاء بينهم في ذلـك قليل وتبعهم النجـارون والحدادون والصـاغة وامثـالهم في ان يجمع عـلىٰ امـرأة اكـثر من واحـد ولكن من الاخوة والاّ فمن القرابة لئلا يتفرق الورثـة ويقل الاختـلاف

بينهم في الارث(١).

---

(١) رأيت بعيني بعض العوائل الهندوسية وكل امرأة منهم متزوجة خمسة من الرجال وذلك في مدينة اوتي Ooty بولاية تامل نادو Tamil Naduجنوب الهند قرب ميسور Mysore وكذاك الزواج عند هؤلاء الناير قائم على مبدأ تعدد الازواج من الذكور كما اشار الى ذلك مؤلفنا الملباري . ويقتصر الرجل في الزواج على زوجة واحدة ولكن امد هذا الزواج قصير فلا يزيد على بضعة ايام فالخطيب يجعل في عنق الزوجة قلادة على الا تنزعها منه ، ويدوم زواجها به ما قبلت هذه القلادة وحافظت عليها ، فاذا مضت ايام سرح مع جائزة فاسحاً المجال لازواج آخرين كثيرين ، ولن تصبح الفتاة النآيرية ملك القبيلة باسرها كما هو امر القبائل العريقة في الفطرة بل ملك عدد من افرادها ولن يزيد عدد ازواج الفتاة عند الناير عن احد عشر رجلاً ، والفتاة النايرية هي التي تختار ازواجها ليعملوا على دوام الاسرة . والفتاة النايرية وهي تقيم مع اخوتها تقبل ازواجها الكثيرين بالنوبة . على اثر اقترانها بخطيبها الاول ، والازواج هؤلاء يغرزون خناجرهم في باب الزوجة ليعلم حضورهم ، وليذكر ما لهم من حقوق المتعة ما ظلوا ذوي حظوة . ومن الطبيعي الا ينسب الاولاد الذين هم نتيجة لتلك الاقترانات المؤقتة الا الى امهاتهم وان يسموا باسمائهن ما جهل آباؤ هم على العموم . فالمرأة النايرية هي ربة الأسرة الحقيقية ، وتمارس سلطان هذه الاسرة بمعونة ابنتها البكر ، ولا يعيش معها من الذكور الا اخوتها واولادها فما يكنه الاولاد الذين تنشئهم معهم واخوالهم لاخوالهم هؤلاء من الحب يعدل الذي يكنه الاولاد لابيهم في الامم الاخرى والابناء اذ كانوا لا يتركون اخواتهم تقريباً فانهم يحملون لهن من الود ما لا يحملون لزوجاتهم وللرجال مثل حرية النساء عند الناير ، فالناير يمارسون تعدد الازواج وتعدد الزوجات معاً . وفقراؤ هم هم =

ومنها انهم كاشفون ابدانهم ولا يسترون منها إلّا السوأتين وشيئاً مما يليهما وباقي البدن مكشوف ويستوي في ذلك الذكور والاناث والملوك والكبراء ولا يحتجب نسوانهم عن احدٍ الّا نسوان البراهمة فلهن احتجاب ، ويخرجونهن في مجامعهم الكبيرة حتى يشاهدهن الرجال ويستحسنوهن .

ومنها انه لا يتملك فيهم الّا مَنْ هو اكبر سناً ولو بلحظة وان كان احمق واعمى او ضعيفاً او مِنْ اولاد الخالات ولم يسمع ان احداً من الاخوة او اولاد الخالات قتل مَنْ هو اكبر منه سناً ليتولى الملك عجلاً .

ومنها انه اذا انقطع الورثة او فلّوا يأخذون اجنبياً ولو كبيراً ويجعلونه وارثاً في مقام الولد او الاخ او ولد

= الذين يعملون بنظام تعدد الازواج من الذكور فترى كثيراً من الاخوة او غيرهم يتفقون على التمتع بالمرأة الواحدة ذلك الى ان نظام تعدد الازواج من الذكور شائع في عدة مناطق من الهند ولا سيما في مناطق اقصى الشمال القريبة من التبت وفي اقصى الجنوب حيث القبائل القريبة المجاورة لمدورا . وكانت للملكة بكاليكت في غابر الازمان عشرة ازواج من البراهمة خلا زوجها الملك ، ويظهر ان عادة تعدد الأزواج من الذكور عريق في القدم ففي ملحمة مهابهارتا الهندية الشهيرة : ان الاخوة الخمسة المعروفين بياندوا تزوجوا درويدي الحسناء «ذات العينين اللتين هما كالسدر» . واذا مات احد الناير ورثه اولاد اخته الكبرى لا اولاده كما ذكر المؤلف الملباري وينتقل إرث الام من بنت الى بنت كما كان حال السلطة الملكية في ترافنكور من بلاد المليبار .

الاخت ، ثم لا يفرقون بينه وبين الاصلي في الارث والملك وهذه العادة جارية بين جميع كفرة مليبار ملوكهم وسوقتهم ، اعاليهم وادانيهم فبذلك لا ينقطع ورثتهم .

ومنها انهم التزموا تكليفات كثيرة لا يعدلون عنها لانهم منقسمون علىٰ اجناس عديدة ، منهم الاعلىٰ والادنىٰ وما بينهما ، واذا وقع التماس بين الاعلىٰ والادنىٰ وكذا القرب الىٰ حدٍ معلومٍ عندهم الىٰ الدنيين فلا بد للاعلىٰ من الغُسْل ، ولا يجوزون له اكل الطعام قبل الغسل ، فان اكله قبله انحطّ عن مرتبته فلا يدخلونه معهم في مرتبتهم العُليا ولا خلاص له الّا بالهرب الىٰ موضع لا يعرف اهله بحاله والّا اخذه راعي البلد وباعه لمن هو ادنىٰ منه مرتبة وان كان صبياً او امرأة ، او جاء الينا وأسلم او صار جوكياً أو نصرانياً . وكذا لا يجوزون الاعلىٰ ان يأكل طعاماً طبخه الادنىٰ فان اكل خرج عن مرتبته ، واصحاب الخيوط وهم الذين يلتزمون لبس الخيوط في عوانقهم اعلىٰ جميع كفرة مليبار وهم ايضاً طوائف منهم الاعلىٰ والادنىٰ وما بينهما ، والبراهمة اعلىٰ اصحاب الخيوط ، وهم ايضاً اصناف ، ودون اصحاب الخيوط النيّار وهم عساكر اهل مليبار ، واكثرهم عدداً وشوكة وهم ايضاً اصناف كثيرة منهم الاعلىٰ والادنىٰ وما بينهما ودونهم الشانانيّون وهم الذين يعتادون صعود اشجار النارجيل لتنزيل حبوبها الىٰ الارض واخراج مائها الذي

يصير خمراً ويطبخ ويجعل سكراً[1].

ودونهم النجارون ، والحدادون ، والصائغون ، والسمّاكون ، وغيرهم ، ودونهم طوائف كثيرة فهم الدنيين وهم الذين يعتادون الحراثة والزراعة وما يتعلق بهما ، وهم ايضاً اصناف واذا وقعت حجره من واحد من الدنيين على احدى النساء اللاتي فوق مرتبته في ليالي معروفة عندهم في السنة ، انحطت عن مرتبتها ان لم يستصحبها ذكر ولو حملاً فاما يأخذها الوالي ويبيعها او تجيء الينا وتسلم او تصير نصرانية او جوكية[2] وكذا اذا وقع الوطىء بين عليّة ودني او

(١) النارجيل Coconut واصل كلمة نارجيل فارسية (بجيم غير متعطشة) وهو جوز الهند ويشبه النخل ويثمر بعد سبع سنين من غرسه ويعمر الى مائة سنة ، وولاية كيرالا او بلاد المليبار من اغنى بلاد العالم باشجار النارجيل ، وتكثر بشكل كثيف جداً على سواحل البحر ، وثمره يكون في ابتداء امره اخضر وبداخله ماء في غاية الحلاوة والبرودة يشبه اللبن واذا قطع غصنه وثمره عند اول طلوع ثمره وعلق به ظرف يتقاطر فيه الماء من رطل الى خمسة ارطال تبقى حلاوته الى يوم ويفوق الخمر في الاسكار والتفريح وتقوية الباه ، ويضع من ثمر النارجيل الزيت والحليب والعسل ويستفاد ليفه لعمل الحبال للمراكب وغيرها وشرابه مفيد للغاية من الناحية الطبية وورد انه ينفع من الاسترخاء ووجع المثانة ويطيب الفم ويرفع المواد الباردة البلغمية وذكر هذه الشجرة ناصر خسرو في عمان (القرن الحادي عشر) كما ذكر ابن بطوطة انها تنمو في ظفار .

(٢) الجوكية الذين يعتزلون الناس في المعابد او خارج المدن ويمارسون اليوكا

بالعكس فينحط الدني عن مرتبته فلا قرار له إلّا باحد الامور المذكورة ، إلّا اذا وطيء اصحاب الخيوط نسوان النيار فلا يخرجونهم عن مرتبتهم ، وجعلوا هذا عادة فيما بينهم لما تقدم انه لا يتزوج إلّا اكبر الاخوة في البراهمة ، والباقون ينضمون الىٰ نسوان النيار .

وكم مثل هذا من التكليفات التي التزموها علىٰ انفسهم جهلاً وسفاهة ، وقد جعل الله سبحانه وتعالىٰ ذلك سبباً غالباً لدخولهم في دين الاسلام بفضله ، وهذه الكلمات انما وقعت فيما بين الكلام استطراداً فان الكلام يجر الى الكلام .

عُدنا الى مقصودنا بهذه الاوراق ، وذلك انَّ شرف بن مالك ، ومالك بن دينار ، وحبيب بن مالك وغيرهم ممن تقدم ذكرهم ، لما دخلوا مليبار وعمروا المساجد في البنادر المذكورة وفشىٰ فيها دين الاسلام دخل اهلها في الدين قليلاً قليلاً ، ووصل اليها التجار من اطراف كثيرة وعمرت بلاد غيرها مثل كاليكوت ، وبلينكوت ، وترونكاڊ ، ثم تانور ، ثم فنّان ، وپرپورا نكاڊ ، ثم پپنور من حوالي شاليات ، ومثل كايكان ، وتركوڊي ، وغيرهما من حوالي فندرينة ، ومثل كيننور، واپ كاپ ، وپرونكاپ ، وهيلي ،

= وغيرها من المجاهدات والرياضة الروحية ، والهند تتميز بهم ، ووصف ابن بطوطه في رحلته / ٦٣٤ احد هؤلاء الجوكية قرب مدينة هنور في المليبار .

وچمنيا من حوالي درمفتن ، وفي جنوبيها يدفتن ، وناداوَرَمْ ، وفي جنوبي كپـ نكلور كشي ، وبَتُّ ، وپَلّپرمْ ، وكذا غيرها من البنادر وكثر فيها سكانها وعمرت بالمسلمين وتجارتهم لقلة ظلم رعاتها مع كونهم وكون عساكرهم كفرة ، وبرعايتهم عاداتهم المتقدمة ، وعدم مخالفتهم لها إلّا نادراً ، والمسلمون فيها رعايا وقليلون لا يبلغون عشر معاشيرهم .

واعظم بنادر مليبار من قديم الزمان واشهرها ذكراً بندر كاليكوت ولكنها ضعفت وخرجت بعد وصول الافرنج الىٰ مليبار ، وتعطيلهم اسفار اهلها وليس للمسلمين في جميع ديار مليبار امير ذو شوكة يحكم عليهم ، بل رعاتهم الكفرة يحكمون عليهم يضبط امورهم ، وتغريمهم المال اذا صدر من احد منهم ما يقتضي الغرامة عندهم ، ومع هذا فللمسلمين فيما بينهم حرمة وعزة لأن اكثر عمارات بلادهم بهم فيمكنون من اقامة الجمع والاعياد . ويعينون في الوظائف القضاة والمؤذنين ، ويعينون في اجراء الاحكام الشرعية بين المسلمين ولا يرخصون في تعطيل الجمعة فمن عطّلتها اذُوه وغرموه المال في اكثر البلاد . واذا صدر من مسلم ما يقتضي قتله عندهم قتلوه باذن كبراء المسلمين ، ثم يأخذه المسلمون ويغسلونه ويكفنونه ويصلون عليه صلاة الجنازة ويدفنونه في مقابر المسلمين .

واذا صدر من كافر ما يقتضي قتله قتلوه وصلبوه ، او

تركوه في مقتله حتىٰ يأكله الكلاب . وابناء آوىٰ .

ولا يـأخـذون منهم إلّا العشــور في التجـارات ، وإلّا الغرامات اذا صـدر منهم ما يقتضي الغـرامة عنـدهـم ، ولا يـأخذون الخـراج من اصحاب الـزراعـات والبسـاتـين ولـو كثـرت ، ولا يدخلون بيـوت المسلمين بغـير اذنهم اذا صدر منهم جـرأة ولو قتـلاً بظلم، بـل يكفـونهم اخـراج صـاحب الجرأة من بينهم بالملازمة والاضـرار بالتجـويع ونحـوه ، ولا يتعرضون لمن اسلم منهم بأذىٰ بل يحتـرمونـه كاحتـرام سائـر المسلمـين ، ولو كـان عندهـم مِنْ اسـافلهـم ، وكان التجـار المسلمين في الزمان القديمة يجمعون له ما يرتفق به .

القسم الرابع

في ذكر وصول الافـرنج الىٰ مليبـار وشيء من افعالهم القبيحة

ـ وفيه فصول ـ

الفصل الاولى

(في ابتـداء وصولهم الىٰ مليبـار ووقوع الخـلاف بينهم وبين السامـري ، وبناء قلعتهم في كشـي وكننـور ، وكولم ، واخذهم بندر كوره وتملكهم لها).

وذلـك انّ ابتداء وصولهم الىٰ مليبـار كـان سنـة اربـع وتسعمـائة من الهجـرة النبويـة وصلوا الىٰ فندرينـة في ثـلاث مسماريات[1] بعـد انقطاع مـوسم الهند ثم خـرجوا منهـا الىٰ بندر كاليكوت في طريق البر ، واقامـوا فيها شهـور يتعرفـون

---

(١) المسمـاريات : نـوع من المراكب البحـرية التي تستعمـل (فيها المسامير) لـربط الواحهـا . اما السفن المستعملة في بحـر الهنـد في ذلـك الـوقت فكانت تربط الواحها بالالياف ويـطلق عليها كلمـة Jonque وهو اللفظ الذي استعمله ابن بطوطه فعربه الى جنك وجمعه اجناك .

اخبـار مليبار واحـوالها ولم يشتغلوا بـالتجارة بـل رجعـوا الىٰ بلدهم برتغال[1]. وسبب وصـولهم الىٰ مليبار عـلىٰ ما يحكىٰ عنهم طلب بلاد الفلفل ليختص تجارته بهم ، فانه مـا كانـوا يشتـرونـه إلاّ من الـذين يشتـرونـه ممن يجلبـونــه من مليبـار بوسائط[2].

---

(١) شرع فاسكودا جامـا VASCO DA GAMA (١٤٦٠ ـ ١٥٢٤ م) في رحلته في ٨ تموز عام ١٤٩٧ على رأس اربع سفن عدد بحـارتها حـوالي ١٧٠ رجلاً خلال الـرحـلة وعند اتجـاهه شمـالاً الى السـاحـل الشرقي الافريقي اتفق مع مرشد خاص قاده مدة ٢٣ يوماً عبر البحر العربي الى الهـنـد ، وفي ٢٠ ايار عـام ١٤٩٨ وبعد حـوالي عشرة اشهـر من تركـه البرتغال وصل دا جامـا الى كاليكـوت وقد رحب بـه الحاكم الهـنـدوسي الزامورين اولاً ولكن عندما رأى الهدايا الرخيصة التي قدمها له داجامـا اصيب بخيبة الامل فضلاً عن ان التجار المسلمين الذين كانوا مستولين على الطرق التجارية الى الهند لم يرحبوا بمجيئه وبـالتالي فلم يستـطع ان يعقد معاهدة تجارية مع الملك الـزامورين ولكن عنـدما تـرك كاليكـوت كان قد شحن معه حمولة لا بأس بها من التوابل ليريها لمليكه في البرتغال فضـلاً عن عدد من الهنـود وبعد كثير من المشـاق وصـل دا جـامـا الى لشبـونة في ٩ ايلول ١٤٩٩ وكـان هو والملك يـدركـان ادراكـاً تـامـاً ان رحلته التي استغرقت سنتين قد نجحت نجاحاً تاماً .

(٢) لم تكن التجارة الهم الوحيد للبرتغاليين فقد كانت هـذه التجارة مـرتبطة بالعمل المقدس ، ونشر الديانة المسيحية بين المسلمين والوثنيين وقد عبر عمانوئيل ملك البرتغال (١٤٩٥ ـ ١٥٢١م) عن اغراض الحملة الاولى في خطبة طويلة جاء فيها : « ان الغرض من اكتشاف الطريق البحـري الى الهند هو نشر المسيحية والحصول عى ثروات الشرق » .

وبعد سنتين منها جاؤوا في ستة مسماريات[1]، ودخلوا في كاليكوت علىٰ هيئة التجار ، واشتغلوا بالتجارات ، وقالوا لعمال السامري ينبغي منع المسلمين من تجاراتهم ، ومن السفر إلى برّ العرب ، والفوائد الحاصلة منهم يحصل منا اضعافها ، ثم انهم تعدّوا على المسلمين في اثناء المعاملات فامرَ السامري بقتلهم ، فقتل منهم نحو سبعين او ستين رجلاً وهرب الباقون ، وركبوا في مراكبهم ورموا بالمدافع علىٰ اهل البر واهل البر عليهم ، ثم ذهبوا الىٰ بندركشي وصالحوا اهلها وبنوا فيها قلعة صغيرة وهي اول قلعة بنوها في الهند واتخذوها مسكنهم وهدموا مسجداً وكان في ساحل البحر وبنوا بيعة وعاملوا اهلها ثم ، صالحوا اهل كننور ، وبنوا فيها قلعة وعاملوا اهلها ، وسافروا بالفلفل والزنجبيل الى برتكال وهو مقصودهم الاعظم الذي لاجله قطعوا

(١) بالنظر الى النتيجة المالية والقصص التي سردها دا جاما عما شاهده من عجائب الشرق مما كان له اطيب الاثر في نفس ملك البرتغال بالرغم من التضحيات البشرية والمشقات التي لاقوها ، وقد صمم هذا الملك على استغلال كشف دا جاما فارسل اسطول اخر للهند في مارس سنة ١٥٠٠ بقيادة الفاريز P.. A. Cabral مهمتها الحصول على قاعدة للسفن البرتغالية في الشرق عن طريق المفاوضات او باستخدام القوة المسلحة ، واجبار المسلمين في تلك المنطقة على اعتناق الدين المسيحي والاستيلاء على سفن المسلمين وسفن كوشين وكانانور التي يصادفونها في طريقهم باستثناء سفن مالندي الموالية للبرتغال .

المسافة البعيدة، وبعد سنة منها جاؤوا في اربعة مسمـاريات ونـزلـوا في كشي وكننـور وسـافـروا الىٰ بلدهم بـالفلفـل او الـزنجبيل وبعـد سنتين منهـا جاؤوا في عشـرين مسماريـاً او احدىٰ وعشرين او اثنين وعشرين او ثمانية عشر وسافـروا الىٰ بلدهم بالفلفل والزنجبيل[1] وسـائر مـا هو عـادته من قـديم الزمان وقتل اثنين او ثلاثة من رعـاتها ورجـع الىٰ كاليكـوت وسبب كـونهم قتلوا لاجـل الافـرنـج صـار اولاد اخـوانهم مختصين بمملكة كشي ومـا حواليهـا دون سائـر قرابتهم بقـوة الافرنج خلافاً لرسمهم القديمة تولية الاكبر سناً من قراباتهم وصـار لهم عزة وحـرمة عنـدهم واعـانـوهم كثيـراً حـروبهم

---

(١) جهَّز البرتغاليون اسطولاً من عشرين سفينـة بقيادة فـاسكو دا جـا مجهز بقوة عسكريـة مدربـاً تدريبـاً جيداً عـلى القتال البحـري ، فتحرك من البرتغال في العاشر من فبراير سنـة ١٥٠٢ متجهاً الى المحيط الهنـدي ، وكان على دا جاما ابقاء خمس من سفن ذلك الاسطول بصفة دائمـة في ميـاه المحيط الهندي لحمـاية المحـطات التجاريـة البرتغـالية في كـوشـين وكننـور ، وسد مـدخل البحـر الاحمر ، وابعـاد العرب عن تجارة الهند وبمرور الوقت ازداد ظهور ذلك الضغط واصبح البرتغـاليون من اخـطر المنافسين والمـزعجين في المنطقة خـاصة وان هـدفهم النهائي وقف سـير التجـارة الشرقيـة بين الهنـد والبحر الاحـمر والقضـاء كلية عـلى طـريق التجـارة السابقـة ، ولذلـك فقد استنجـد التجـار العـرب المقيمـون في كاليكوت وشيخ عدن بسلاطين المسلمين في الهند وبملك مصـر قانصـوه الغوري الذي كان على استعـداد لحرب البـرتغاليـين بسبب تأثـر ماليـة سلطنته نتيجة للغزو البرتغالي وسيأتي شرح مواقفهم من الغزو .

وحوائجهم واعطوهم امـوالاً وعيّنوا لهم العشـور في تجاراتهم حتىٰ عظم امرهم وبعد سنة من مجيء المـراكب العشرين او ما قاربها جاءوا في عشـرة مسماريـات منها جـديدة ، وثـلاثة كـانت مع المسمـاريات التي وصلت قبـل سنـة منهـا ولكنهـا تـأخرت في الـطريق ، ووصلت مع السبعـة ، ثم سـافـرت السبعـة الىٰ بـلادهم بـالبضـائـع ، وبقيت ثـلاثــة في كش فقصدهم السامري مع قريب من مائـة الف نائـر ومعه جمـع كثيـرون من المسلمـين ولم يمكن لــه دخـول كش لمحــاربـة الافرنج بـالرمي بـالمدافـع ، ولكن جهز المسلمـون من اهل فنـان ثلاثـة سنابيق[٢] فحـاربـوهم واستشهـد بعضهم ، وفي اليوم الآخر جهز اهل فنان وبلينكوت اربعة سنابيق ، واهل فندرينة وكاپكات ثلاثة سنابيق، فحاربوهم محاربة شديدة ولم يصب المسلمـين فيه شيء ثم لم يتيسـر الحـرب لقـرب عهـد المطر فرجع السامـري ،ومَنْ معه الىٰ بـلادهم سالمـين بحمد الله .

---

(٢) السنبوك او السنبوق Sambucus سفينة كبيرة تبلغ حمولتها ما بين ٨٠ الى ١٨٠ طناً وهي مكشوفة ليس لها ظهر مدببة المقدم عـريضة المؤخـر ولها شراع مربع وفي تاج العـروس . . السنبوق كعصفـور السفينة الصغيـرة حكـاه الزمخشـري في الكشـاف » والصنبـوق عنـد العـرب في العصـور الوسطى تدل على القارب الصغير كما يدل على ذلك حديث ابن بطوطه عندما عبر في صنبوق من البصرة الى الابلة وبينهما عشرة اميال .

ثم تتابع في كل سنة علىٰ هذا المنوال وصول مراكبهم العديدة من پرتكال بالرجال والاموال ، وسفر مراكبهم الكثيرة من مليبار بالفلفل والزنجبيل وسائر البضائع الىٰ پرتكال وبعدما استقر الافرنج في كشي وكننور وتمكنوا من اشتغال اهلها ومن تبعهم بالسفر في البحر مصالحين لهم آخذين اوراقهم معهم لكل مركب علامة لامانهم ولو صغيراً وعيّنوا لكل ورقة مالاً معلوماً لرعاتهم يعطيهم اياه اصحاب المراكب عند السفر وارَوْا ذلك فائدة لهم ليوافقوهم علىٰ ذلك فان وجد الافرنج مركباً ليس فيه ورقتهم اخذوا المركب وما فيه ، ومَنْ فيه ، والسامري ورعاياه واتباعهم كانوا محاربين لهم وصرف السامري في محاربتهم اموالاً كثيرة حتىٰ ضعف السامري ورعاياه ، وكان يراسل سلاطين المسلمين طلباً لاعانتهم فلم ينفعوا ، ولكن سلطان جزرات[1] السلطان محمود شاه والد السلطان الفاضل مظفر

---

(١) مرَّت ترجمة سلطان كجرات ، وكجرات Gujarat وتكتب ايضاً (جزرات) واللفظ الاول اصح ، وهي من اشهر الولايات في شمال غرب الهند ، وتمتاز بصلاتها القديمة مع العرب خاصة حيث يقع غرب الهند واقليم السند متاخماً لبلاد العرب لا يفصل بينهما سوى البحر العربي وخليج عمان ، ولهذا كثرت هجرات العرب الى شواطيء البحر العربي المتصلة بالهند في اقليم كجرات وخاصة بعد انتشار الاسلام في ربوع تلك الجماعات فانتقلت جاليات كثيرة استوطنت تلك النواحي وكان وفد اليها اهل العلم من شيراز واهل اليمن مثل البدر الدماميني =

شاه ، وعادل شاه جد علي عادل شاه الاعلىٰ نوَّرَ الله مرقدهم ، امر بتهيئة المراكب والغربان ، ولم يوفّقا للاخراج في البحر ، واما سلطان مصر قانصوه الغوري[1] رحمه الله

= والخطيب الكازروني والعماد الطارمي ، فدرسوا بها وتخرج عليهم جماعة من الفضلاء وانتشر العلم بفضلهم الى كل ناحية من نواحي كجرات وقد اقمت فيها عدة اشهر بعاصمتها القديمة احمد آباد Ahmadabab وبعض امكنتها الاخرى ، وتمتاز احمد آباد بكثرة الآثار الاسلامية ونفاستها والمعالم الاسلامية ظاهرة فيها كأسمها ، وللولاية لغة خاصة بها هي اللغة الكجراتية الغنية بالآداب والمعارف ، ومن كجرات ينحدر اصل الزعيم الهندي الشهير غاندي وكذاك مؤسس باكستان محمد علي جناح وتتميز كجرات بصناعة الاقمشة والانسجة والحرير خاصة وشهرتها في هذا الجانب جعلها اكبر اسواق الاقمشة في الهند ، وفيها عدد كبير من المسلمين بمختلف مذاهبهم ولهم فيها الجوامع القديمة والجامعات والنوادي والصحف والمجلات مما يضيق المجال في الاشارة اليه .

(١) ولد قانصوه الغوري نحو عام ٨٥٠ هـ من اصل جركسي ، وقد وقع ملكه لسلطان مصر الاشرف قايتباي فنسب اليه ، وقيل له الاشرفي ، وما زال يترقى تحت رعايته في سلك الامارة ولما مات قايتباي عام ٩٠١ هـ عاد قانصوه الى القاهرة بعدما كان متولياً نيابة ملطية ، ودخل في خدمة السلطان الجديد الناصر محمد بن قايتباي فانعم عليه بلقب (امير مائة ومقدم الف) وهو أعلى القاب الامارة ثم ولي السلطنة بعد ابن قايتباي خاله الظاهر قانصوه بن قانصوه ، ثم الملك الاشرف (جان بلاط) ، وفي عهده اشتدت الفتن في بلاد الشام وانتهت بقتله سنة ٩٠٦ فتولى الامر الامير طوماي باي وقد ملك اشهر قليلة فر بعدها =

فقد ارسل من امرائه الامير حسيناً[1] مع بعض العساكر في

= واختفى عن الانظار فتطلع الامراء الى اختيار سلطان جديد ذلك هو الامير قانصوه الغوري وقد تولى السلطنة في الجزء الاخير من عصر دولتي المماليك بين ٩٠٦ هـ - ٩٢٢ هـ وتعتبر من اهم الفترات الحاسمة في تاريخ مصر ، ومن اهم ما شغل بال الغوري في سياسته الداخلية الفتن والثورات المختلفة التي قام بها عربان البلاد ، وجنود الدولة وامراؤها ، وكذلك من مميزات عهده اشتباكه مع الغزاة البرتغاليين بمعارك عديدة كما سيأتي التعليق على ذلك .

(١) هو الامير حسين الكردي ارسله الغوري على رأس الحملة البحرية التي اتجهت من مياه عدن الى الهند حيث اشتبك الاسطول المصري مع اسطول برتغالي ، وفي ذلك الاشتباك انتصر الاسطول المصري على الاسطول البرتغالي - كما اشار الى ذلك المؤلف المليباري - انتصاراً جزئياً في موقعة ديو البحرية كما استطاع بالاشتراك مع اسطول حاكم ديو هزيمة اسطول برتغالي مكونا من ثمان سفن عند شول في سنة ١٥٠٨ ، وكان لانتصار الاسطول المصري هذا اثره الكبير على البرتغاليين الذين احسوا بالخطر الشديد الذي سوف تتعرض له مصالحهم في المنطقة خاصة وان وصول ذلك الاسطول الى مياه البحر المحيط الهندي كان مفاجأة لهم بالاضافة الى انضمام سفن عدد من الولايات الهندية الى سفن ذلك الاسطول ، ولذلك سارع فرانشسكو دا لميدا نائب الملك بالهند في الخروج على رأس اسطول آخر مكون من تسع عشرة سفينة لملاقاة الاسطول المصري والقضاء عليه . واشتبك الاسطول البرتغالي مع الاسطول المصري وحلفائه عند ديو في الثالث من فبراير سنة ١٥٠٩ وفي ذلك الاشتباك انتصر البرتغاليون على المصريين وحلفائهم انتصاراً ساحقاً ، ويرجع ذلك الانتصار الى رفض الامير حسين بالانسحاب بما =

ثلاثة عشر غراباً فوصل بها الىٰ بنـدر ديوكجـرات خرج منهـا الىٰ بندر شيول ومعه مالك بن اياس نائب ديو بغربانـه فلقي بعض مـراكب الافرنـج ووقع الحـرب ، فأخـذ غرابـاً كبيراً لهم ، وحصـل النصر ورجـع بما معه مـن الغربـان الىٰ ديـو واقام فيها شهوراً في ايام المطر . ثم وصل اليه بامر السامري نحو اربعين غراباً كلها صغاراً من بلاد السامري وغيرها .

واما الافرنـج قاتلهم الله فلما سمعـوا باستقـراره في ديو استعدّوا وخرجـوا في نحو عشـرين مركبـاً ، ووصلوا الىٰ ديو فجـأة فلما بلغ الىٰ ديـو نبـأ وصـولهم اخـرج الأمـير حســين الغـربان التي كـانت معه من غـير استعـداد ، والمليبـاريـون غربانهم ، ومـالك ايـاس غربـانه ، والافـرنج لعنهم الله لما التقـوا ما قصـدوا إلّا غربـان الامـير حسـين فـاخـذوا بعض غربانـه ، وطاح البـواقي ورجع المـلاعين بتقـدير الله تعـالى وحكمه الغالب الىٰ كشي غالبين ، ولكن سَلِمَ الامير حسين نفسـه ، وبعض مَنْ كان معـه ، وغربـان مـالـك بن ايـاس والمليباريين .

ثم ان الامير المذكـور رجع الىٰ مصـر فاخـذت الغـوري الغيرة فارسل نحو اثنتـين وعشرين غـراباً كبيـراً في استعداد

= بقى من سفنه الى جده بينما سارع حاكم ديو بعقد معاهدة صلح مع البرتغاليين .

تام وامر الامير سلمان الرومي مع الامير المذكور فوصلا بالغربان الىٰ بندر جدّه[1] المحروسة ، ثم الىٰ بندر

---

(١) جدّة : ويرسمها كتاب العرب جُدّه ، فرضة عربية على البحر الاحمر وتحيط بها صحراء ، وفي عام ٢٦ هـ اختارها الخليفة عثمان مرفأ لمكة فكان ذلك اساس شهرتها في مستقبل الايام ، اما المكوس التي ظلت تجبى على السفن الهندية فقد اوشكت ان تكون باهظة في بعض الاحيان ، ثم انها اثارت جشع امراء الحجاز ومماليك مصر فتولوا هم جمع هذه الرسوم بعد عام ١٥٤٢ م ، ثم شاركوا اشراف مكة في هذه الاسلاب وبعث السلطان قانصوه الغوري آخر الامر والياً على مكة عام ١٥١١ فاحاطها بسور يحميها من غارات البدو ، واتخذها قاعدة بحرية لقتال البرتغال وقد اتضح بعد ذلك ان هذا التحصين كان ضروريا لأن البرتغال اغاروا عليها عام ١٥٤١ عندما زالت تبعيتها لمصر ودخلت في ولاية تركيا . واشار المؤرخ ابن تغري بردي الى ابتداء ظهور امر جدة فقال « ان الامير ارنبغا اليونسي الناصري سار ومعه مائة مملوك من المماليك السلطانية لاخذ مكس المراكب الواردة ببندر جده من بلاد الهند ، وهذا اول ظهور امر جدة » النجوم الزاهرة ١٤ / ٢٧١ ، واشار الى اتفاقية الشريف بركات مع الغوري وقدوم الشريف بركات عليه الى مصر سنة ٨٢٩ قال : « فاكرمه السلطان وخلع عليه بامرة مكة ... ثم التزم بركات بحمل عشرة آلاف دينار في كل سنة ، وان لا يتعرض السلطان لما يؤخذ من بندر جدة من عشور بضائع التجار الواصلة من الهند وغيره وان يكون ذلك جميعه لبركات . . » المصدر السابق ١٤ / ٢٩٨ . ومن الكتب الخاصة بتاريخ جده وفيها اشارة الى الاحداث التي يتكلم عنها المؤلف المليباري ، كتاب السلاح والعدة في تاريخ جده تأليف عبد القادر احمد بن فرج الشافعي المتوفي ١٠١٠ هـ =

كمـــران[1]، فتعلق الامـــير حســـين بحـــرب اليمـنى ونهب بلدانها ، وعزم الامير سلمان الىٰ بندرعـدن[2]، ثم رجع الىٰ جدة ، فحصل بينه وبين الامير حسين حـرب فخرج الامـير حـرب فخرج الامـير سلمان من جـدة لكون الامـير حسـين حـارب المسلمين ونهب بلدانهم فلذا امسكـه سلطان الحجاز الشريف بركات[3]فغرّقه في البحر وبعد ذلك وصل الخبر الىٰ جـدّة بوقـوع الحرب بـين الغوري وبـين السلطان سليم شاه الرومي رحمهما الله وحصـول ما حصـل من انكسار الغـوري

= مخطوط بمكتبة الحرم المكي رقم ٢٨ وكتاب الجواهر المعدة في تاريخ جده تأليف احمد الضراوي مخطوط بمكتبة الحرم المكي رقم ٢٧ .

(١) كمران او قمران جزيرة بالبحر الاحمر تجاور زبيد باليمن وهي حصن لمن ملك تهامة اليمن (معجم البلدان) كما انها محطة بحرية هامة بين عدن وجده .

(٢) حـاول البرتغـاليون الاستيـلاء على مـدينة عـدن (باليمن) واسقـاطهـا لاستخـدامها كقـاعدة عسكـرية يستـطيعون عن طـريقها السيـطرة على البحـر الاحمـر والقضـاء عـلى الاسـطول المصـري المنـاويء ومنعـه من الخروج الى المحيط الهندي ومهـاجمة سفنهم وطـردهم من الهند وبـذلك يقضون على امل امراء الهند في وصول الامـدادات العسكريـة من مصر اليهم ، وتفتر مقاومتهم للبرتغاليين ، وبذلك تستقر الامور للبرتغـاليين في الهند .

(٣) هو الشريف بركات بن الحسن بن عجلان بن رميثة بن ابي نمي محمد بن ابي سعـد علي بن قتـادة بن ادريس المطاعن الشـريف الحسني ، من بني قتادة اشراف مكة تولى الامر في الحجاز في ذي الحجة ٨٠٩ هـ .

ووقـوع مملكته في قبضـة السلطان سليم شـاه رحمـه الله والله غالب علىٰ امره[1].

---

(١) بمناسبة حديث المؤلف المليباري عن نشـاطات الغـوري العسكريـة للرد على الاعتداءات البرتغالية نود ان نتوسع في شرح الظروف المواكبة لهذه الاحداث ، اتماماً للفائدة حيث ان المؤلف كان قد مرّ بهـا استطراداً ممـا يشعـر القاريء بـالحاجـة الى بعض التوسـع فيها ، فقـد امـر الغـوري بتشييد عدد من السفن الحربية في مدينة رشيد وقد بـاشر صنعهـا الامير محمد بيك قريبه بمعونة علاء الدين ناظر الخاص وذلـك عام ٩١٤ هـ وشيدت ستة اغربة من هذه السفن ورأى الغوري ضرورة بناء اسـطول بحـري كبـير بـالسـويس ليتعقب الفـرنجـة في البحـر الاحمـر والمحيط الهنـدي ، ويحمي منهم هذه السـواحـل ، ومـا يعبـر فيهـا من المتـاجـر المصرية . وليمذ بها تجريدته الثانيـة الى سواحـل الجنوب الهنـد وقد تم بناء عشرين سفينة كبيرة ، وزودت بالمكاحل النحاسيـة والحديـدية ومـا تحتاج اليه من القادة والجنود ومختلف الاسلحة والادوات وكان ذلـك في ربيع الثاني من عام ٩١٩ هـ وقام الغوري بزيارة السويس لمشاهدة هذه السفن واستعراضها وذلـك في المحرم عـام ٩٢٠ هـ فانـزلت امامـه الى البحر .

وكان المشرف عـلى بنائهـا الريس (سلمـان العثماني) وقيـل ان نفقاتهـا بلغت اكثر من اربعمائـة الف دينار « عـدد ابن اياس منشـآت الغـوري واجملها في بدائع الزهور ج ٥ حوادث رمضان سنة ٩٢٢ هـ وهي كثيرة جداً » وكان للغوري صلات بملوك الهند وقد ذكر ابن اياس في حوادث ربيع الثاني سنة ٩١٨ هـ فيمن قصد الغوري هذا الشهـر قال : قـاصد الملك محمود ـ صاحب الهند . وقاصد من عند حسـين الذي تـوجه الى الهند ـ اي قائد الحملة البحرية من السفراء الذين بعثهم الغـوري نفسه=

= الى الهند الامير تمر باي الهندي وكان من اعوان الغوري بمصر .

وتنطوي علاقات الغوري مع بلاد الهند على كثير من جهوده ووسائل مكافحته لفرنجة الجنوب ، من البرتغاليين وغيرهم العابثين بالطريق التجاري بين مصر والهند والواقع ان صلة مصر ببلاد الهند في عصر المماليك بدأت في عصر الناصر محمد بن قلاوون اذ ارسل اليه احد ملوك الهند يستمنح الخليفة العباسي بمصر تفويضاً بملكه ليكسبه الصفة الشرعية ، وقد استجاب له الناصر محمد والخليفة وبعثا اليه التفويض المطلوب مع رسول خاص ، وقد نقش هذا الملك اسم الخليفة على سكة بلاده وذكر اسمه في الخطب المنبرية وقد ساعد هذا الوضع على توثيق الصلة بين البلدين وتكررت هذه الواقعة في عهد الاشرف قايتباي وارسل ملك الهند هداياه الى ملك مصر وخليفتها (بدائع الزهور ج ٢ حوادث جمادى الآخرة سنة ٨٧٦ هـ وجمادى الاولى سنة ٨٧٩ هـ) ونشأت بين البلدين علاقات تجارية واسعة فاستوردت مصر من الهند الحنطة والحمص والسمسم وجوز الهند وغير ذلك واستوردت الهند منها الكتان وغيره وكانت مصر الممر التجاري الوحيد تقريباً بين الهند واوروبا ولهذا ازدادت اهمية العلاقات بينهما ، واستمرت هذه الاوضاع قائمة الى زمن الاشرف الغوري وقد ارسل اليه احد ملوك الهند وهو مظفر شاه الكجراتي في رمضان عام ٩١٨ هـ يطلب تقليداً من خليفة مصر بولايته فاجابه الى طلبه الا ان البرتغاليين وكشاف الافرنج ، كانوا قد طافوا حول سواحل افريقية وكشفوا بعض مجاهلها ،وعرفوا طريق رأس الرجاء الصالح في جنوب افريقية الى بلاد الهند ، واخذ هذا الممر الجديد ينافس طريق مصر وشرع البرتغاليون يتعقبون المتاجر الهندية والمصرية في سواحل الجنوب العربي والمحيط الهندي ، وينشرون نفوذهم بالقوة في هذه الجهات وفي بلاد الهند فكان =

= هـذا شغـلاً شـاغـلاً للسلطان الغـوري ونشط الغـوري الى مكـافحـة البرتغاليين وبعث اليه ملوك الهنـد يكشفون لـه كثيراً من اعمـال هؤلاء الغزاة الجدد واخبـروه عمن يصحبونهم من الجنـود لغزو بـلاد المسلمين ومن الرهبان المبشرين بالمسيحية وللقضاء على الاسلام هناك ، وقد كان هذا العمل لونا جديداً من الحروب الصليبية ومقدمة مشؤومة لاستعمار الشرق فضلاً عن خطره العاجـل وهو حـرمان مصـر حينذاك من مـورد مالي عظيم يعتبر من اهم موارد دخلها واخذ الغوري يواجه هذا الخـطر ويكافحه ، فاعد تجريدة كبيرة بحرية بقيادة الامير حسين الكـردي جمع رجالها من جنسيات متعددة من بينهم العبيد السود والتـراكمة والمغـاربة واولاد الناس ـ ابناء الامراء المتطوعون ـ فضلاً عن المماليك االسلطانيـة ووكل قيادة المغاربة وحدهم الى الخواجه نور الدين علي المسلاتي المغربي وابحرت التجريـدة من السويس الى جـدة في جمادى الآخـرة سنة ٩١١ هـ وما ان بلغت ينبع حتى دخلت في معركة طـاحنة مـع يحـي بن سبع امير ينبع الثائر على السلطان ، فهزمته ففر هارباً ، واتخـذت التجريـدة مدينة جدة قاعدة لها ، وكانت من اهم مراكز التجارة بـين مصر والهنـد فشرع رجالها في بناء الاسـوار والابراج لحماية المدينة . واخذوا في مراقبة الطريق الى الهند وتفتيشه وتعقيب الفرنجة فيه ومقاومتهم .
وكانوا قد تسللوا الى سواحـل البحر الاحـمر ليقطعـوا الطريق بـين مصر والهنـد حتى اضطربت التجـارة بينهما ونـدرت واردات الهند الى مصـر .
ومن سوء الحظ فقد وقعت المشـاحنة بـين علي المسـلاتي المغربي والامـير حسين الكردي القائد العام للحملة فعوقت التجريدة عن بلوغ اهدافها مـدة ، وارسل الغـوري اليهما احـد رجالـه بتعاليمـه وبعدد من الجنـود فقبض عـلى المسـلاتي واعـاده الى القـاهـرة مقيـداً بـالاغـلال ومضى (الكردي) في قتال الفـرنجة حتى انتصـر عليهم سنة ٩١٤ وغنم منهم =

= غنائم كثيرة ، فرد الغزاة على المصريين بحملة اخرى كان النصر فيها حليفهم وكان لانباء الهزيمة صدى سيء في مصر واثر اليم في نفس الغوري وعاد الامير حسين الكردي الى القاهرة في رمضان سنة ٩١٨ بعد غيبة نحو سبع سنين بلغ في خلالها الى سواحل الهند واشتبك مع الفرنجة في جملة وقائع وقاسى اهوالاً شديدة . ولم يهدأ ملوك الهند عن مكاتبة الغوري واطلاعه على مراحل الغزو الصليبي الجديد وعلى ما يقوم الغزاة اللصوص به من العبث ببلادهم ونهب متاجرها وخيراتها ، وبخاصة بعد انتصارهم على الامير حسين ، وكان من خطط الغوري ان يوحد بين صفوف ملوك الهند ليكونوا يداً واحدة قوية معه ضد البرتغاليين فأرسل اليهم تعليماته بهذا الشأن مع احد رجاله المخلصين وهو « الطواشي بشير » ولم يجد ذلك نفعاً بعد ان استفحل خطر البرتغاليين وقوت شوكتهم فاستولوا على (كمران) واخذوا (سواكن) واصبحت (جدة) مهددة بخطر الغزو ، واستقر رأي الغوري على اعداء تجريدة جديدة ، وعجل بارسال طلائع مزودة بالمال والسلاح والعتاد وبرماة البندق والنفطية بقيادة الامير حسن على ان تقيم هذه الطلائع في جدة لمراقبة الحالة ومكافحة المغيرين حتى يتم اعداد التجريدة ، ولما بلغ الامير حسين جده ارسل يحث السلطان على التعجيل بارسال التجريدة درءاً للغزاة الذين ازداد عبثهم في سواحل الهند والبحر الاحمر حتى كادوا يغزون جدة نفسها ، وعانى الغوري مشقة زائدة في اعداد الحملة فقد تألبت عليه نفوس الجنود السلطانية وشاع بينهم العصيان في هذه اللحظات الحرجة وبذل الحيلة معهم ليدفعهم الى الخروج للجهاد وظل يغدق عليهم ويمنيهم حتى استطاع ان يجند منهم ستة آلاف جندي واعد لحملهم نحو عشرين سفينة حربية كبيرة ، بناها في ميناء السويس وجهزها بالمعدات اللازمة وبمجموعة =

وفي يوم الخميس الثاني والعشرين من شهر رمضان سنة خمس عشرة وتسعمائة نزل الافرنج في كاليكوت محاربين واحرقوا المسجد الجامع الذي عمّره الناخوذا مثقال[1] ودخلوا بيت السامرين زاعمين انهم تملكوا ، وكان السامري حينئذ غائباً لبعض الحروب غيبة بعيدة فهجم عليهم مَنْ حضر من

= كبيرة من مهرة البحارة ، ووكل القيادة الى الريس سلمان العثماني وابحرت الحملة في رجب سنة ٩٢١ هـ .

وشغل الغوري بانباء الفتنة بين اسماعيل شاه الصفوي ملك ايران وسليم شاه ملك العثمانيين والتفت الى اعداد حملته الكبرى التي خرج بها الى حلب فمرج دابق للقاء العثمانيين وفي هذه الاثناء كانت تجريدته الثانية الى جدة والهند تجوب الاصقاع النائية من سواحل البحر الاحمر والمحيط الهندي وروي انهم ملكوا زبيد اليمن واشرفوا على احتلال عدن ، وخلال ذلك ثارت الاحقاد الشخصية بين الامير حسين الكردي والريس سلمان العثماني وصادف ذلك مصرع الغوري في مرج دابق في رجب سنة ٩٢٢ هـ واشتد النزاع بين الرجلين واجترأ الريس سلمان فقتل الامير حسيناً وغرقت سفنهم في نهاية الامر .

وفي شعبان سنة ٩٢٣هـ عاد الريس سلمان ببقايا رجاله ومعه بعض اسراهم من الفرنجة وكانت خاتمة الصراع الغوري مع غزاة الصليبيين في سواحل البحر الاحمر وبلاد الهند .

(١) الناخوذا جمعه نواخذ او نواخذه لفظ فارسي معناه (الملاح) واصله ناوخدا (ناو : سفينة خدا سيد) وورد ذكر الناخوذا مثقال في رحلة ابن بطوطة / ٦٤٥ فقال « وبهذه المدينة ـ قاليقوط ـ الناخوذة مثقال الشهير الاسم ، صاحب الاموال الطائلة والمراكب الكثيرة لتجارته بالهند والصين واليمن وفارس » .

النيـــار وحـاربـــوهم واخـرجـــوهم منـــه وقتلوا منهم نحـــو خمسمائةافرنجي ، وقد غـرق مَنْ غرق وهم اكـثر ومن سلم منهم ركبوا في مراكبهم خائبين باذن الله تعالىٰ .

وقبـل ذا التـأريـخ او بعـده نـزلـوا في فنّان واحـرقـوا نحـوخمسـين من المراكب التي كـانت متروكـة في سـاحلهـا وحاربوا اهلها فنصر الله المسلمين وخذل الافـرنج ، انهزمـوا باذن الله وخاب قصـدهم ، وكان ذلـك ايام الامـير مرجـان رحمه الله[1] .

وبعدما تمكن الافرنج في كشي وكننـور وصالحـوا راعي كولم وبنوا فيها قلعةً فان الفلفل يجلب اليهـا والىٰ كشي اكثر مما يجلب الىٰ غيرهما وايضاً حاربوا اهل كَووه واخـذوها عنـوة وتملكوها ، وكـانت من بنادر عـادل شاه جـد علي عـادل شاه الاعــلىٰ نـوَّر الله ضــريحـه وجعلوهــا دار ملكهم في الهنــد واحكمـوها ، ثم ان عـادل شـاه رحمـه الله حـاربهم وفتحهـا واخرجهم منها وجعلها دار اسلام فاخذتْهم لعنهم الله الغيـرة فـوصلوا اليهـا في استعـداد عـظيم وحـاربـوا حتىٰ اخـذوهـا واستولوا عليها ، ويقال وفقهم اميرها وكبراؤها حتى اسهـل عليهم اخذها ثم بنوا فيها قلاعاً عـديدة منيعـة فازدادوا قـوة

(١) هو الامير مرجان العامري : ذكره النهروالي في البرق اليماني / ٢٦ وذكر الامير مرجان الظافري (في احداث عدن) كما في ظفـر الواله ١ / ٤٥ (احداث سنة ٩٢٢) هـ .

علىٰ قوة فان الله اذا اراد امـراً بلغه وصارت قوتهم تزداد عاماً فعاماً ، وشهراً فشهراً .

الفصل الثاني

- في الاشارة الىٰ شيء من قبائح افعالهم -

وذلك ان مسلمي مليبار كـانوا في نعمـة ورفاهيـة من العيش لقلة ظلم رعـاتها ورعـايتهم عاداتهم القـديمة ورفقهم بهم فبطروا النعمة واذنبـوا وخالفـوا فلذلك سلَّطَ الله عليهم البرتكاليين من الافرنج النصارىٰ خذلهم الله تعالى فظلموهم وافسَدوا فيهم وفعلوا فعـائل قبيحـة شنيعـة لا تحصىٰ من ضـربهم والاستهزاء بهـم والضحـك عليهم اذا مـرّوا بهم استخفافاً وجعلهم مراكبهم في محال الماء والوحل ، والبصق في وجـوههم وابدانهم وتعـطيـل اسفـارهم خصـوصـاً سفـر الحـج ، ونهب اموالهم ، واحـراق بـلادهم ومسـاجـدهم ، واخـذ مـراكبهم ، ووطي المصـاحف والكتب بـأرجلهم ، واحراقها بالنار ، وهتك حرمات المساجد ، وتحريضهم علىٰ قبـول قول الـردة والسجود لصليبهم ، وعـرض الاموال لهم علىٰ ذلك وتـزيين نسـوانهم بالحـلي والثياب النفيسـة لتفتـين نسـوان المسلمـين وقتـل الحجـاج وسـائـر المسلمـين بـانـواع العـذاب ، وسب رسـول الله صـلىٰ الله عليـه وآلـه وسلم

جهاراً ، واسرهم وتقييد اساريهم بالقيود الثقيلة ، وترديدهم في السيوق لبيعهم كما يباع العبيد ، وتعذيبهم بانواب العذاب لزيادة العوض وجمعهم في بيت مظلم منتن مخطر ، وضربهم بالنعل اذا استنجوا بالماء ، وتعذيبهم بالنار ، وبيع بعضهم وتعبيد بعضهم وتعيين بعضهم في الاعمال الشاقة بلا شفقة والخروج الىٰ مناتح جزرات وكنكن ومليبار وبرّ العرب مستعدين والاقامة فيها لاخذ المراكب ، والاكتساب بذلك اموالاً جزيلة واسارى عديدة ، وكم من نساء اصيلات اسروا وتسرروا بهن وعذبوا حتىٰ قتلوا ، وكم من مسلمين ومسلمات نصّروا ، وكَم من امثال ذلك من فضائح وقبائح تَكِلُّ الالسنة عن ذكرها ، وتأنف عن افصاحها اخذهم الله اخذ عزيز مقتدر ، ثم ان بغيتهم العظمىٰ ، وهمتهم الكبرىٰ قديماً وحديثاً تغيير دين المسلمين ، وادخالهم في النصرانية نعوذ بالله من ذلك ، وانما صلحهم للمسلمين ضرورة العشرة معهم . فان اكثر سكان البنادر التي في ساحل البحر المسلمون ولذا قال الافرنج الواصلون من برتكال جديداً في بعض المواسم لما رأوا المسلمين وصورهم في كشي الى الآن لم يتغير صورهم ولاموا كبيرهم حيث لم يغيرهم عن دينهم ﴿ يُريدُونَ أنْ يُطفِئُوا نُورَ الله بافْواهِهِم ويَأبَىٰ اللهُ إلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الكافِرُون ﴾(١).

(١) التوبة : ٣٢ .

ولذا قال كبيرهم لراعي كشي : اخرج المسلمين عن كشي فان الفائدة الحاصلة منهم قليلة ، فأجاب : بانهم رعيتنا من قديم الزمان وبهم عمارة بلدنا فلا يمكن لنا اخراجهم ، وليست لهم عداوة إلّا للمسلمين ولدينهم ، لا للنيار ولا لغيرهم من الكفرة .

الفصل الثالث

- في مصالحة السامري الافرنج وبناء القلعة في كاليكوت -

وذلك انه لما طال زمان المحاربة واشتد ضعف المسلمين ومات السامري الذي كان صرف الاموال الجزيلة في حروبهم ، وتولىٰ اخوه رأي ان المصلحة صلحهم لتحصل لرعاياه المسلمين التجارة كما حصلت لاهل كشيء وكننور ويزول ضعفهم وفقرهم فصالحهم واذن لهم في بناء القلعة في كاليكوت بشرط تمكين رعاياه من تسفير اربعة مراكب الىٰ برّ العرب بالفلفل والزنجبيل والسفر للتجارة في جزرات وغيرها باوراقهم كغيرهم ، وكان ذلك سنة عشرين او احدىٰ وعشرين وتسعمائة فلما رجعت المراكب الاربعة الىٰ كاليكوت وتمّ بناء قلعتهم منعوهم من سفر برّ العرب ومن تطليع الفلفل والزنجبيل في المراكب ، وجعلوا تجارتهما

خاصة بهم حتىٰ اذا رأوا شيئاً منها في مركب اخذوه مع ما فيه من الاموال والنفوس ، وكان يصدر منهم الظلم والايذاء للمسلمين وغيرهم ، والسامري مقيم علىٰ صلحهم صابر علىٰ ايذائهم خوفاً من شرورهم ، ومع هذا كان يراسل سلاطين المسلمين خفية في الحث على التجهيز لمحاربتهم فلم يُجدِ شيئاً لما لم يرد الله .

وهم لعنهم الله اهل مكر وخديعة ، عارفون بمصالح امورهم فيتذللون لاعدائهم وقت الحاجة غاية الذلل ، واذا نقضت سطواً عليهم بكل مكن وكلّهم علىٰ كلمة واحدة لا يخالفون امر كبرائهم مع بُعد المسافة عن رعاتهم وكلما يصدر بينهم الاختلاف ولم يسمع ان احداً منهم قتل كبيرهم لاجل الولاية ولذا دانت لهم مع قلتهم رعاة مليبار وغيرها ، بخلاف ما عليه عساكر المسلمين وامراؤهم من الاختلاف وطلب الاعتزال علىٰ الغير ولو بقتله ، ثم ان الافرنج الملاعين بعدما استقروا في كاليكوت وتمكنوا طلبوا السامري إلىٰ بيت عند قلعتهم باسم تسليم هدية عظيمة له من راعي پرتكال قاصدين اسره فاحسّ به السامري باشارة بعض الافرنج بذلك فخرج من بينهم باسم قضاء الحاجة الانسانية حتىٰ بَعُدُ عنهم وتخلص مِنْ مكرهم باذن الله تعالىٰ ، وبسبب ذلك اخرجوا ذلك الافرنجي من كاليكوت ، ونقلوه ومَنْ يتعلق به الىٰ كننور .

ثم في محرم سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة خرجوا من كَووه باستعداد عظيم في ثمانية وعشرين مركباً قاصدين بندر جدّة المحروسة ليتملكوها ووصلوا الىٰ البندر فتحير من ذلك المسلمون وخافوا خوفاً شديداً ، وكان الامير سلمان الرومي فيها ومعه من العساكر مائتان ، والغربان التي جهزها الغوري الىٰ مليبار لحربهم متروكة فيها فرماهم اهلها بالمدافع من البر فاصابت بعض مراكبهم فرفعوا بشراعهم وارسوا فوق العلم خوفاً من المدافع ثم شردوا فارسل الامير سلمان وراءهم سنبوكين فيها ثلاثون رجلاً فاخذوا منهم غراباً صغيراً في كمران وفيه اثنا عشر نصرانياً ووصلوا بهم الىٰ جدة ثم ان الملاعين توّهوا في كمران لانقطاع الموسم الهندي ، ثم رجعوا الىٰ كَووه خائبين باذنن الله تعالىٰ، وذلك من فضل الله .

الفصل الرابع

ـ في سبب وقوع الخلاف بين السامري والافرنج وفتح قلعة كاليكوت ـ

اعلم انه كان يزداد تعدّيهم وافسادهم في كاليكوت يوماً فيوماً ، وكان السامري مغمضاً عن ذلك ، وطال امره حتىٰ وقعت الفتنة بينهم وبين بعض مسلمي فندرينة في

كاليكوت بتأريخ عاشر محرم سنة احدىٰ وثلاثين فانقطع الصلح وحصل الخلاف والمحاربة ، وايضاً خرج بعض اهل فندرينة وجمنپا وترونكادٍ وپرپورا وغيرها في اغربة صغار مختفين واخذوا من مراكب الافرنج الصغار الخارجة للتجارة نحو عشرة وكان ذلك في سنة ثلاثين وما قبلها وايضاً وقعت الفتنة بين مسلمي كدنكلور ويهودها فقتلوا رجلاً من المسلمين فوقع القتال بينهم فيها فارسلوا الىٰ مسلمي سائر البلدان لاعانتهم واخذ الثأر منهم فاجتمع اهل كاليكوت والفندرينون وهم سكان فندرينة وقراها وكاپكات وتركودٍ والشاليانيّون وهم سكان شاليات وپرپور انكادٍ وترونكادٍ وتانور وبرونو وفنان وبلينكوت في جامع شاليات واتفقوا على ان يخرجوا لحرب اليهود الىٰ كدنكلور وعلىٰ ان يحاربوا الافرنج ولا يصالحوهم باذن من السامري ورضاه ، وكان ذلك سنة احدىٰ وثلاثين ثم خرج اهل هذه البلدان الىٰ كدنكلور في غرباب صغار دون المائة وقتلوا من اليهود كثيراً وخرج الباقون الىٰ قرية قريب كدنكلور في شرقيها واحرق المسلمون بيوتهم وكنائسهم ثم شرعوا في احراق بيوت نصاريها وبيعهم فوقعت الفتنة بين المسلمين ونيّارها فقتلوا بعض النيار فلم يتمكن لمسلميها القرار فيها فانتقلوا الىٰ غيرها من البلدان .

وفي تلك السنة اتفق الدرمفتنيون وهم سكان درمفتن

وادكادٍ وكننور وترونكـادٍ وهيلي وجمنپا عـلىٰ مخالفـة الافرنـج وحـربهم وكذا غيـرهم .

وفي تلك السنـة ايضاً رغب في حـرب الافـرنـج بعض كبراء كشي من فقيه احمـد مركـار واخيه كنـج علي مـركار ، وخـالهما محمـد علي مـركـار ، واتبـاعهم فخـرجـوا من كشي وانتقلوا الىٰ كاليكوت ولما تحقق عند الافرنج لعنهم الله مخالفة اكثر المسلمين والسامري لهم خرجوا من كشيء في استعـداد عظيم ونزلوا في فنان صبيحـة يوم السبت الثـالث من جمادى الاولىٰ من السنة المذكـورة واحرقـوا اكثر بيـوتها ودكـاكينها ، وبعض المسـاجد وقـطعوا اكـثر اشجـار النارجيـل التي في ساحل نهرهـا واستشهد مَنْ استشهـد وخرجـوا منها في الليلة الثانية ووصلوا الىٰ فندرينة واخـذوا من هنالـك من الغربـان نحو اربعين لاهل فندرينة وغيرها واستشهد مَن استشهـد .

ولمـا وقعت الفتنة في كـاليكـوت بـين الافـرنـج وبعض مسلمي فنـدرينة وعـزم السـامـري عـلىٰ محـاربتهم ، وكـان السـامري اذ ذاك غـائباً الىٰ مسـافـة بعيـدة في حـرب بعض اعدائه ارسـل وزيره الكبـير المسمىٰ باليـذ للقيام بمحـاربتهم فسعىٰ في حـــربهم سعيـاً بليغـــاً وصـــرف امـــوالاً جـــزيلة وحاصرهـم المسلمون ونيار السامري ووصـل اليها المسلمـون للجهـاد في سبيل الله من بلدان كثيـرة ثم وصـل السـامـري بنفسـه الىٰ كاليكـوت ونفذ مـا عندهـم من القـوت وانقطـع

طمعهم من وصولـه اليهـم من خـارج القلعـة فـطلعـوا جميع ما فيها في مراكبهم وقطعوا القلعـة من الداخـل بحيث لا يتبـين لمن هو خـارجها وركبـوا في مراكبهم وذهبـوا وكـان ذلك في سادس عشر محرم الحـرام سنة اثنتـين وثلاثـين وقتل من ابتـداء الحـرب الىٰ الفتـح من نيـار السـامـري والعمـال والمسلمـين اكثر من الفي نفس فـازداد بفتح القلعـة غيظهم وعـداوتهم للسامـري والمسلمين واستـدام ذلـك مدة طـويلة وبعـدما اتفق المسلمـون علىٰ حـرب الأفرنـج هيأوا غـربـانـاً صغـاراً وخـرجـوا في اسفـارهم الىٰ جـزرات وغيـرهـا بغـير اوراقهم مستعدين للحرب بالفلفل والزنجبيل وغيـرها فسلم بعضهـا والاكـثر وقـع في قبضـة الافـرنـج او سقط في البـر بسببهم ، فالدرمفتنيون ومَنْ تابعهـم صالحوهم الىٰ آخر ذلك الموسم وسافـروا باوراقهم عـلىٰ عادتهم المتقـدمة في مصـالحة الافـرنج ، وامـا راعايـا السامـري ومَنْ تبعهم فدامـوا عـلىٰ مخالفتهم لهم سنين عديدة حتىٰ ضعفوا وافتقروا .

وفي سنة خمس وثلاثين تقريبـاً سقط مركب من مـراكب الافرنج عند تانور في اوائل ايام المطر فآواهـم راعيها اليهـا فارسل السامري اليـه يطلب منـه الافرنـج الذين كـانوا فيـه والمـال الذي كـان فيه فلم يـردّ اليه شيئـاً من ذلـك ثم وقـع الصلح بينهم وبين راعي تانور وسافر رعاياه باوراقهم واتفق هو والافرنـج علىٰ بنـاء الافرنـج قلعتهم في شمالي نهر فنـان

المتعلق براعي تانور لاضرار السامري والمسافرين باجمعهم وتخريب فنان وخرج الافرنج بهذا القصد من كشي في مراكب وغربان مستعدين مستصحبين معهم الاحجار والنورة وارسوا عند فنان فمن فضل الله تعالىٰ هبّت ريح شديدة حتى سقطت مراكبهم في جنوبي بلينكوت ولم يسلم منها الاّ غراب واحد صغير وهلك جم غفير منهم ومن اتباعهم وعبيدهم غرق مَنْ غرق ومَنْ طلع منهم الىٰ البر قتلهم المسلمون وسلم جمع كثيرون من المأسورين عندهم وحصل للسامري مدافعهم الكبار وخيب الله آمال الافرنج واعوانهم رحمة منه وفضلاً .

ثم في سنة سبع او ثمان وثلاثين سافر رعايا السامري وغيرهم في ثلاثين غراباً تقريباً فيهم على ابراهيم مركار، وابن عمه كت ابراهيم مركار وغيرهما من الكبراء الىٰ جزرات للتجارة فدخل اكثرها في جوجاري وسورت[1]، وبعضها نير جوجاري وسورت واخذوا ما كان فيها من

(١) سورت Surat : ميناء يبحر منها الحجاج ، ولا يزال فيها للآن شارع يسمى باب مكة (مكه دروازه) وتقع في اقليم كجرات GUJARAT غرب الهند ، مساحتها الحالية ٧٦٥٧ كم٢ ونفوسها (احصائية ١٩٨١) ١٤٢٦٣٧٤ نسمة .
وتشتهر بصناعة النسيج اليدوي الفاخر ، وفيها عدد كبير من المسلمين بمختلف الطوائف الاسلامية ولهم هناك الجوامع الكبرى القديمة والجامعات العريقة والمدارس ودور النشر وغيرها .

الغربان واكثر الاموال وسلم ما كان في بروج ، وايضاً وقع بقبضتهم قبل ذات التاريخ اكثر الغربان التي اشتغلها السلطان بهادر شاه الكَجراتي نور الله مضجعه لمجاهدتهم ، وكذا اكثر غربان المليباريين بمرَّات بتقدير الله وحكمه الغالب انا لله وانا اليه راجعون حتىٰ ضعف المسلمون وافتقروا .

الفصل الخامس

ـ في بناء الافرنج قلعتهم في شاليات وصلح السامري معهم مرة ثانية ـ

وذلك ان واحداً من كبراء الافرنج خرج من كشي في طريق البر باسم الصلح خديعة ومكراً باستئذان من السامري وكان في غاية المكر والدهاء والحيلة وبينه وبين بعض كبراء تجار المسلمين معرفة ومعاملة ايام الصلح مع السامري ووصل الىٰ فنان ثم الىٰ راعي تانور وجلس عنده حتىٰ صلح بينه وبين السامري فان السامري الذي فتح قلعة كاليكوت كان ضعيفاً وقليل العقل ومداوماً على استعمال المُسْكِر وكان اخوه ننبياذر وهو الذي يتولىٰ مملكة السامري بعد موته قوياً ذا جرأة وهمة غير مطيع له علىٰ العادة المتقدمة فيما بينهم فحصل لذلك راعي تانور والسامري ومَنْ وافقهما ما يتعب

به من يتولىٰ بعد ذلك السامري ، وهو بناء الافـرنج القلعـة في شاليات فانها ممر السامري وعساكره وسائر المسافرين وبـه يتعطل سفر برّ العرب من كاليكوت فانّ بينها وبـين شاليـات دون فرسخين وأذن لهم السامري في بنـاء القلعة في شـاليات بعد موافقة راعيها ثم وصل اليها الافرنج سنة ثمان وثـلاثين وبنوا فيها القلعة باستحكام تام وهدموا الجامع القديم الذي عمـر في اول دخول الاسـلام في مليبار كـما تقدم ذكـره مـع مسجدين آخرين وعمروا بما فيها من الاحجار القلعة والبيعة وفي اثناء بناء القلعـة اخذ واحـد من الافرنـج حجراً واحـداً من احجار المسجد الجامع الـذي تقدم ذكـره فشكىٰ مسلموا شاليات ذلك الىٰ كبيرهم فجاء هو بنفسه مع جماعته بـالحجر والنورة فسرَّ بذلك المسلمون ورجعوا شاكرين .

وفي ثاني ذلك اليوم جاؤوا في جمع عظيم وهـدموا جميـع المسجـد الجامـع ولم يبقوا منـه حجراً فشكىٰ المسلمـون اليـه فاجاب بأن راعي بلدكم باع لنا المسجد وموضعه ، فـرجعوا محزونين وبعد ذلك جمعوا في مسجد صغـير بعيد عنهم ثم ان الملاعين حفروا قبور المسلمين، واخذوا احجارها لاتمـام بناء قلعتهم وقبل تمام بنائها مـات ذلك السـامري ، وتـولىٰ اخوه المـذكور مملكتـه وانقطع امـر الصلح ثم انه حـارب علىٰ مـا يقتضيه عرفهم .

وفي تلك السنة وصل الامير مصطفىٰ الرومي[1] من مخا[2] الىٰ ديو جزرات بمدافع واموال جزيلة وكان الملك توغن بن مالك اياس متولياً فيها من جهة السلطان بها درشاه وبعد وصوله اليها وصل الافرنج اليها بقصد اخذها فحاربهم الامير مصطفى الرومي المذكور ورماهم بالمدافع العظيمة فانهزموا باذن الله خائبين ذليلين خائفين .

الفصل السادس

- في صلح السامري مع الافرنج مرة ثالثة -

وكان ذلك في سنة اربعين ، صالحهم السامري بشروط منها : الاجازة في تسفير اربعة مراكب الىٰ برّ العرب من كاليكوت فسافرت المراكب في ذلك الموسم الىٰ برّ العرب وسافر رعاياه الىٰ سائر البلدان باوراقهم حتىٰ خرج

---

(١) هو الامير مصطفى بن بهرام الرومي المشهور باسم خان الرومي ، والخواجا (المعلم) احد قواد الملك بهادر شاه الكجراتي ، وقد خان فيما بعد مليكه الكجراتي لحساب همايون شاه المغولي وبخيانته تم لهمايون اخضاع كجرات ومالوه ، وفر بهادر شاه عندها الى ديو سنة ٩٤٢ هـ - ١٥٣٦ م مستنجداً بالبرتغاليين ووصل في صحبته المدفعين المشهورين المسيحيين : «ليلى والمجنون» طبعة بغداد ١٣٥٣ / ١٩٣٤ .

(٢) ما تزال تعرف بهذا الاسم ، وكانت قديماً تدعى - Muza - (العرب والملاحة في المحيط الهندي / ٧٦) .

السامري لحرب راعي تانور فحاربه واتعبه حتىٰ وقع الصلح بينهما علىٰ اعطاء الاراضي التي له قريب فنّان والجزيرة التي عند شاليات للسامري ، وكان الافرنج الذي جاء من كشي لبناء قلعة شاليات متوسطاً في الاصلاح بينهما وعقب وقوع الصلح بينهما جاء خواجه حسين سنجقدار الرومي ، وكنج علي مركار اخو الفقيه احمد مركار في اغربة بهدايا عظيمة من السلطان بها درشاه للسامري ، وبمال لطلب مسلمي مليبار إليه ليخرجوا الىٰ كَجرات لمحاربة الافرنج في البحر ، فلم يتم ذلك وكان دخولهما في كاليكوت في سادس عشر ربيع الاول سنة اربعين .

الفصل السابع

- في صلح السلطان بهادر شاه مع الافرنج واعطائه بنادر هم رحمه الله -

وذلك انه في اواخر تلك السنة توَّجهَ السلطان همايون بادشاه بن بابر بادشاه[1] نوَّرَ الله مرقدهما بعدما ملك دهلي

---

(١) ولد همايون في كابل سنة ٩١٣ هـ - ١٥٠٦ م وتربى تربية حربية سياسية، كما تعلم كثيراً من العلوم وعندما توجه ابوه لفتح الهند كان ساعده الايمن، وقد ورث الملك من بعده فلاقى الكثير من المتاعب انتهت بفراره لاجئا الى البلاط الصفوي في ايران سنة ٩٤٧ هـ - =

وولايتها ، الى جزرات وخرّب بعض مدائنها وانهزم بهادر شاه رحمه الله فارسل الىٰ الافرنج خوفاً من همايون بادشاه طالباً لاعانتهم فوصلوا اليه مسرعين ، ووقع بينه وبينهم الاتفاق والصلح فاعطاهم بنادر من بنادره مثل وس وبهايم وغيرهما فتملكوها واضافوا اليها ما قاربها من البلدان والاراضي وحصل بذلك لهم فوائد كثيرة وعظم امرهم وسلَّمَ ويواليهم وامرهم باحكامها ، وجعل نصف عشورها لهم فاحكموها وحصّنوها ، ووصلوا اليها مرات بهذا القصد في زمان مالك اياس ، ثم في زمان اولاده فما تمكنوا من ذلك بل رجعوا خائبين باذنْ الله تعالىٰ فلما وافق ارادتهم ارادة الله تعالىٰ سهَّلَ ذلك عليهم ثم قدَّرَ الله سبحانه وتعالىٰ موته على ايديهم فقتلوه وفقد جسده في البحر انا لله وانا اليه راجعون ، وكان امر الله قدراً مقدوراً ، وكان قتله في ثالث رمضان سنة ثلاث واربعين ، فلما استشهد السلطان بهادر شاه تملكوا ديو جميعها واستقوا ذلك تقدير العزيز

= ١٥٤٠ واصبح سلطان الهند مكانه شيرشاه السوري ، واستطاع همايون ان يرجع من ايران بجيش صغير وان يستعيد ملكه بعد ان فقده خمسة عشر سنة، ودخل دلهي واكرا منتصراً سنة ٩٦٢ هـ ـ ١٥٥٥ م . وهمايون من سلالة الملوك المغول الاقوياء في الهند وكان مجيداً للتركية والفارسية شاعراً عالماً بالهيئة والهندسة والنجوم والاسطرلاب شغوفاً بالعلم محباً للعلماء ذا دين وحلم . واثر سقوطه من سلم مكتبته لقى حتفه في ربيع الاول سنة ٩٦٣ هـ ـ يناير ١٥٥٦ م .

الحكيم لا دافع لقضاءه ولا راد لمراده .

وفي سنة اربع واربعين نزل الافرنج في پرونور وقتلوا كت ابراهيم مركار ابن عم علي ابراهيم مركار وآخرين معه واحرقوهما ورجعوا مع انهم مصالحون راعي تانور ورعاياه وهم اهل تانور وپرونور مسافرون في البحر بأوراقهم وسببه انه سفر المركب الىٰ بندر جده بالفلفل والزنجبيل بغير اوراقهم فان بعض الامور اليهم السفر بالفلفل والزنجبيل خصوصاً الىٰ بندر جدّة . وخرج السامري الىٰ كدڹكلور لحرب الافرنج وراعي كشي ، ووقع الحرب اياماً ثم القىٰ الله هيبتهم في قلب السامري فرجع منها من غير شيء ثم ان الافرنج بنوا فيها قلعة وصارت حاجزاً عظيماً للسامري عنهم ثم خرج علىٰ ابراهيم مركار وفقيه احمد مركار واخوه كنج علي مركار رحمهم الله في اثنين واربعين غراباً الىٰ طرف قائل فلما وصلوا الىٰ بيتاله ونزلوا فيها وتركوا فيها غربانهم ولبثوا فيها اياماً وافسدوا وصل الافرنج في غربان اليهم وحاربوا واخذوا جميع الغربان التي كانت معهم بحكم الله وقدره ، واستشهد مَنْ استشهد وكان اخذها في آخر شعبان سنة اربع واربعين وخرج الباقون من بيتاله الىٰ مليبار فلما وصلوا الىٰ نلاّنبطِ في اثناء الطريق توفي علي ابراهيم مركار رحمه الله رحمة واسعة ، وفي منتصف شهر شوال من تلك السنة اخذ الافرنج اهلكهم الله اغربة اهل كاپكات مقابل كننور .

الفصل الثامن

- في وصول سليمان باشا الىٰ ديو ونواحيها -

وقد وصل في تلك السنة سليمان باشا وزير السلطان سليمان شاه المذكور في استعداد عظيم تام في نحو مائة من الغربان والبرشان[1] وغيرهما الىٰ بندر عدن وقتل سلطانها الشيخ عامر بن داود[2] مع بعض كبرائها وجعلها في

---

(١) البرشان : جمع برشه نوع من المراكب البحرية .

(٢) عامر بن داود ، من بني طاهر ، امير عدن ، قتل سنة ٩٤٥ هـ - ١٥٣٨ م بامر سليمان باشا ، ولم تخلوا ايامه من طمع الآخرين ببلاده كالعثمانيين والمصريين. والبرتغاليين ففي سنة ٩٢٧ هـ احتل بلاده (اسكندر) احد مماليك السلطان الغوري وانفرد بحكم عدن واحتلالها ولم يدخل تحت طاعة السلطان العثماني سليم عندما احتل البلاد المصرية فاحتال عليه نائب جده وقتله وبعث برأسه ورأس اقرب اعوانه الى القاهرة سنة ٩٢٧ (ابن اياس : بدائع الزهور ٣ / ٢٧٠ بولاق ١٣١٢) . وفي سنة ٩٤٥ هـ جاء سليمان باشا فصب جام غضبه وحقده على عدن واهلها وقتل حاكمها بعدما جاءه مرحباً بسلامة الوصول فخان به وقتله شر قتلة وفي النص الذي يذكره المؤرخ قطب الدين النهرواني (٩١٣ - ٩٩٠ هـ) خير شاهد على ذلك بحكم معاصرته للحادث ، قال في كتابه البرق اليماني / ٨٠ - ٨١ « لما توجه سلمان باشا من جده ، قصد المرور بعدن وكان صاحبها يومئذ عامر بن داود ، بقية من بني طاهر ملوك اليمن سابقاً ، ولم يبق من يده من =

قبضته ، ثم وصل الىٰ جزرات فشرع في حرب ديو وكسَّرَ اكثر القلعة بالمدافع العظام السلطانية ، ثم القىٰ الله هيبة الافرنج في قلب سليمان باشا فرجع من غير فتح الى مصر ثم الىٰ الروم وذلك ما قدَّرَ الله سبحانه امتحاناً لعباده ثم ان الافرنج اصلحوا المنكسر من القلعة واحكموها احكاماً بليغاً

= مملكة اسلافه بني طاهر الا قلعة عدن من سائر ممالك اليمن ، وكان شاباً كريماً ، جواداً حليماً ، محسناً الى الناس ، باسطاً لهم وجه اللطف والايناس يعظم الشرع الشريف ولا يخرج عن حكمه ، ويوقر من وفد اليه من العلماء ويكرمه لعلمه ، الى غير ذلك من الخصال الجميلة ، والخصال الحسنة الجليلة ، الشاهدة له بكرم اصله ، وجوده فضله ووصله ، فلم بلغه وصول سليمان باشا ، للغزو في سبيل الله ، وقطع جادرة الافرنج عن الاضرار بعبادة الله ، فتح له باب عدن وامر ان تزين ، وجمع له من البلاد ما اراد من الازواد ، وتوجه هو ووزيره للسلام عليه ، الى الغراب الذي هو فيه ، فبمجرد ان رأى سليمان باشا باب عدن فقد فتح امر عسكره بدخول عدن واخذها فلما وصل اليه عامر البسه ومن معه خلعاً ، ثم امر بصلبهم على الصاري ، في الغراب الذي هو فيه ، ونهب العسكر داره وشرعوا في نهب البلد . . . وشاع غدره بصاحب عدن في اطراف البلاد واكناف العباد ، وسبقه خبر هذا الغدر الى بنادر الهند ، ونفرت خواطر الناس منه ، ولما بلغ اهل الهند فعله بعامر ، زاد نفورهم منه وكان ذلك سبباً لعدم مساعدتهم له على الفرتقال (البرتغال) وكتب على باب عدن انه افتتح هذه البلاد في سنة خمسين واربعين وتسعمائة وتوجه الى الهند لقتال الفرنج الذين في الديو . . » . انظر ايضاً ظفر الوالة ١ / ٤٨ . وحدائق الانوار لابن الديبع الشيباني ١ / ٤٥ وما بعدها .

تاماً وبعد سنة من موت علي ابراهيم مركار رحمه الله خرج فقيه احمد مركار ، واخوه كنج علي مركار ، في احد عشر غراباً الىٰ سيلان ، فوصل اليهم الافرنج وقاتلوهم واخذوا الغربان المقدَّمان المذكوران الىٰ راعي سيلان فقتلهما غيلة انا لله وانا اليه راجعون(1) .

---

(١) تعقيباً على ما ذكره المؤلف المليباري نذكر ما اورده المؤرخ اسماعيل سرهنك في كتابه (حقائق الاخبار عن دول البحار) ٢ / ٣٨ في احداث هذه السنة ٩٤٤ هـ قال ان الملك بهادر شاه استنجد بالسلطان سليمان القانوني فارسل سليمان باشا الخادم على رأس حملة وجهز سليمان اسطولاً بحرياً مكوناً من ستين غراباً وثلاثين سفينة وزودها بالمدافع والادوات الحربية ثم اقلع بها من ثغر السويس ومر في ذهابه بعدن وقتل اميرها عامر بن داود وستة نفر من اصحابه ونصب احد ضباطه المسمى بهرام بكَ وترك معه بعض الجنود والمدافع ثم اقلع الى الهند والتحم مع البرتغاليين في المياه الهندية في موقعه عظيمة قريبة من ديو كان النصر فيها حليف البرتغاليين على الرغم مما بذله سليمان الخادم من جهد عظيم ولم يتمكن من طرد البرتغاليين عن تلك الاطراف ، فعاد الى عدن ومنها الى مخا ، وخلع والي اليمن ونصب مكانه مصطفى بك نائب غزة سابقاً ثم عاد الى مصر .

ووصف الاميرال لاجرافير La Gravière هذه الحملة فقال « في سنة ١٥٣٨ م اقترب سليمان باشا من الشاطيء الهندي وانزل من معه من الجنود اليكجرية والمدافع وبدأ بالاستيلاء على حصون البرتغال الامامية بعد عدة مناوشات ، ثم امر بالهجوم على حصن ديو ، فرده البرتغال بقوة ، وفقد في تلك المعركة اربعمائة من رجاله وبينما كان يستعد =

الفصل التاسع

- في مصالحة السامري الافرنج مرة رابعة -

وذلك ان الافرنج جاءوا الىٰ السامري للصلح فصالحهم وكان السامري حينئذ في فنان وكان راعي تانور وراعي كدپنكلور حاضرين في الصلح ، وساعيين فيه ، وكان الصلح في شهر شعبان سنة ست واربعين ، فشرع رعاياه في السفر برقعاتهم ، ثم في ثامن شهر محرم الحرام سنة اثنتين وخمسين قتل الافرنج المقدم الكبير الذي في كننور وهو ابو بكر علي مع صهره كنج صوفي ، والاول خال علي آذِراجا ،

= لهجوم آخر بلغه مجيء الدونانمة البرتغاليين فانزل جنوده الى السفن في الحال وترك للاعداء مدافعه ، ثم سار نحو كجرات وكانت الرياح تعاكسه الى ان وصل الى مدخل خليج كوتشين ومن هناك اقلع الى عدن ومنها الى مخاثم وصل مدينة السويس سنة ١٥٢٩ . . وقد عادت تجريدة سليمان باشا البحرية بنتائج مهمة في البحر الاحمر ، وان كانت لم تأت بالفائدة المطلوبة في بلاد الهند ، وذلك انه استولى على عدن وطرد اميرها ابن داود لاتهامه بموالاة البرتغاليين واسس حكومة جديدة ، ببلاد اليمن وجلب معه من بلاد الهند (١٤٦) اسيراً بعض هنود والبعض الآخر من البرتغال وقد قتلهم جميعاً قبل ان يصل الى السويس وارسل رؤوسهم الى القسطنطينية : والبحرية في مصر الاسلامية / ١٢٨ وما بعدها .

LA Gravièrè: Doria et Barberousse, p. 252 - 253

والثاني ابوه رحمهما الله ووقع الخلاف بينهما اياماً ثم صالحوهم .

الفصل العاشر

- في وقوع الخلاف بين السامري والافرنج -

وسببه انه وقع الاتفاق في اول محرم سنة سبع وخمسين بين السامري وبين واحد من رعاة مليبار اكبر معيني راعي كشي ، ومملكته قريب كشي في جنوبيها يسميه الافرنج صاحب الفلفل لما انه يجلب من بلاده كثيراً وصار من جملة معيني السامري ، واعطى السامري مملكته والتمس من السامري ان يجعل اخاه رابعاً له وهو من يصير سامرياً بعد موته وبعد موت اثنين بعده فجعله رابعاً كما تقدم من انه من عادة اهل مليبار . فلما رجع صاحب الفلفل الى بلده وصل اليه راعي كشي والافرنج لحربه ووقع الحرب حتى هلك بالحريق وكان ذلك في جمادى الاولى في تلك السنة ولما وصل خبر هلاكه خرج السامري من غير توقف من كاليكوت لمحاربتهم ووصل الى بلد صاحب الفلفل وحارب الافرنج وراعي كشي وصرف اموالاً جزيلة ورجع لا عليه ولا له .

وفي ثامن جمادى الآخر منها ، خرج جمع كثير من عساكر صاحب الفلفل في كشي مع حيلولة النهر بينهم وبينها

واحرقوا كثيراً من بيوتها وحصلت الخسارة العظيمة لاهلها بذلك ، وانما فعلوا هذا لكون راعيهم هلك في حرب كشي والافرنج اخذهم الله اخذ عزيز مقتدر ، وبهذا السبب وقع الاختلاف بين السامري والافرنج فخرجوا من كَووه في استعداد عظيم ونزلوا في تركودٍ ، واحرقوا اكثر بيوتها ودكاكينها والمسجد الجامع الذي فيها ، وذلك في صبيحة يوم السبت الرابع عشر من شوال من السنة المذكورة ، وفي ثاني ذلك اليوم نزلوا في فندرينة واحرقوا اكثر بيوتها ودكاكينها والجامع الذي كانٍ من اول ما عمر في مليبار ، وفي صبيحة الخميس بعده نزلوا في فنّان واحرقوا اكثر بيوتها واربعة مساجد منها الجامع الكبير الذي فيها ، واستشهد في كل من البلدان الثلاثة جمع .

وفي آخر جمادى الآخر سنة ستين وصل خبر وفاة الرئيس علي الرومي شهيداً في حرب الافرنج قبالة كِرْكِر ، ووقوع الاغربة التي كانت معه في قبضتهم اهلكهم الله هلاك عادٍ وثمود انا لله وانا اليه راجعون ذلك تقدير العزيز العليم .

وقبل ذلك اخذ بعض مراكب الافرنج ونزل في فُنَّ قائل قرية قريب قائل ، وكان يسكن فيها الافرنج وحاربهم وهزم مَنْ فيها من الافرنج وخربًها .

وفي رجب مِنْ سنة ستين وصل يوسف التركي من ديو محل الىٰ فنَّان في غير الموسم بالمدافع الكبيرة التي اخذها من الافرنج الساكنين فيها .

الفصل الحادي عشر

- في مصالحة السامري الافرنج مرة خامسة -

ولما تمادىٰ امر الافرنج علىٰ هذا المنوال ، وازداد ضعف المسلمين وفقرهم صالحهم السامري ، وسافرت رعيته باوراقهم كغيرهم وكان الصلح في اول سنة ثلاث وستين ، وبعد نحو سنتين فاكثر منها وقع الاختلاف بين الافرنج وبين مسلمي كننور ودرمفتن وما حواليهما ، وكانوا علىٰ الاختلاف دون سنتين ثم صالحوهم فسافروا باوراقهم كما تقدم من عادتهم ، وقد اجتهد في جهادهم ايام الخلاف، المقدم الكبير علي آذراجا وفقه الله للخيرات وسعىٰ في ذلك سعياً بليغاً وصرف اموالاً ولكن لم يوافقه في ذلك راعيها كولتري وسائر أهل بلاده .

وفي تلك الايام ذهب الافرنج الملاعين خذلهم الله في غربان الىٰ جزائر مليبار المتعلقة بآذراجا ارغاماً له ونزلوا في جزيرة اميني ، وقتلوا من اهلها جمعاً كثيرين وسبوا منهم اكثر من اربع مائة نفس من رجالهم واناثهم ونهبوا اكثر ما

فيها من الاموال واحرقوا اكثر بيوتها ومساجدها وقبل دخولهم في اميني وصلوا الىٰ شيتلاكم وقتلوا بعض مَنْ فيها وسبوا بعضهم ، واهل تلك الجزائر كلهم غفل الا سلاح لهم وليس فيهم من يقاتل ، ومع هذا استشهد منهم جماعة منهم قاضيها وكان رجلاً فاضلاً صالحاً مسنّاً رحمه الله ، وامرأة صالحة ، وهم مع انهم ليس لهم سلاح تسببوا في شهادتهم فرموهم بالتراب والاحجار وضربوهم بقطع من الاخشاب حتىٰ قتلوهم رحمهم الله رحمة واسعة .

وجزائرها كثيرة ، ولكن كبارها التي هي مدنها خمس ، جزائر اميني ، وكور ديب ، واندرو ، وكلفيني ، وملكي ، ومن الصغار كثيرة العامرة منها : اكتي ، وكنجمنجلا ، وكلتن ، وشيتلاكم . والله سبحانه وتعالىٰ لما اراد امتحان عباده امهل الافرنج ومكّنهم في كثير من البنادر كبنادر مليبار وكَجرات وكنكن وغيرها ، واستولوا بحكمتهم واجتماع آرائهم علىٰ كثير من البلدان فبنوا القلعة في هرموز[1] ، ومسكت[2] ، وديو محل ، وشمطرة[3] ، وملاقه[4] ،

---

(١) هرمز Hormus جزيرة ايرانية في الخليج ، على مضيق هرمز ، تربط الخليج ببحر عمان .

(٢) مسقط Muscat : عاصمة سلطنة عمان الحالية ، على مرفأ خليج عمان ، ومعظم علاقاتها التجارية مع الهند وبلدان الخليج العربي وهي علاقات قديمة ، وقد ذاع صيتها لما استولى عليها البرتغاليون بيد كبير =

= قوادهم البوكورك سنة ١٥٠٩ وحكموها الى سنة ١٦٥٨ م ففتحها السلطان ناصر بن مرشد ، ولم تزل منذ ذلك الحين في قبضة الائمة والسادة الذين اتخذوها كقاعدة لسلطنة عمان وبعد حاكمها سعيد بن سلطان انقسمت السلالة الحاكمة الى فرعين متميزين الاول لبكر انجال سعيد سلطان ، وقد اعطي له ولسلالته من بعده حق الولاية على عرش زنجبار (التابعة لتنزانيا الآن) بشرق افريقيا . وجلس على الفرع الثاني تركي بن سعيد سلطان ، وبالاضافة الى اللغة العربية ، فان اللغات البلوجستانية والهندية تعتبر لغات ثانوية هناك، ينظر عن تاريخها تحفة الاعيان بسيرة اهل عمان لمحمد بن نور الدين السالمي الطبعة الاولى بمصر .

(٣) جزيرة سوقطرة Socotra او سقطره تقع بالقرب من الساحل الجنوبي للجزيرة العربية الى الشرق من عدن وهي جزيرة جبلية وعرة قليلة السكان تنتشر حولها الشعب المرجانية ولكن لها اهمية استراتيجية لمن يريد التحكم في مدخل البحر الاحمر .

(٤) ملاقه او ملقا Malacca مرفأ ماليزي يقع في جنوب غربي شبه جزيرة ملقه على مضيق ملقة من اوائل البلاد الماليزية التي دخلها الاسلام بواسطة التجار العرب وقد عثر فيها بموقع اسمه ترنجانو على حجر فيه كتابات عربية يعود تاريخه الى سنة ١٣٠٣ م واسس محمد اسكندر شاه فيها سلطة اسلامية كانت غنية وتتمتع بمركز تجاري هام وتتاجر مع الصين والهند ومنها إنتشر الاسلام الى كثير من البلدان حولها وقد امر احد ملوكها منصور شاه المتزوج من ابنة امبراطور الصين الاميرة هنج لي بو ، بكتابة اللغة الملاوية بالحروف العربية واصبح الاسلام قانون البلاد على عهده وبقيت السلطنة كذلك حتى سقوطها على يد البرتغالين سنة ١٥١١ م ثم طردهم الهولنديون في النصف =

وملوكـو ، وميلاپـور ، ونـاك فتن والاخيـران من بنـادر شـولمندل ، وبنـادر كثيرة من سيـلان ووصلوا الىٰ الصـين ، وصارت التجارة لهم في هـذه البنادر وغيـرها وتجـار المسلمين فيها متذللون مطيعون لهم كـالخدمـة لا يمكن لهم التجارة الا فيما قلَّتْ رغبتهم فيه ، واما ما رغبوا فيه من البضائع وكثرت فـائدتـه فهو مختص بهم ولا يمكن لغيـرهم التجارة فيـه ففي اول امـرهم قطعـوا عن المسلمين من التجـارة تجارة الفلفـل والزنجبيل ، ثم تجارة القرفة والقرنفـل والبسباس وغيـرها ، مما الفائدة فيه اكثر ومن الاسفار سفر برّ العرب وملاقه واش ودناصري وغيرها ، فلم يبق لمسلمي مليبار الّا تجارة الغوفل والنـارجيـل والثـوب ونحـوهـا والاسفـار جـزارت وكنكن وشولمندل اطراف قائل ايضاً .

وايضـاً بنـوا قلعتهم لمنـع الارز من اهـل مليبـار في هنّـور[1] وبـاسلور[2] ومنجلور ، فـان الارز يجلب منهـا الىٰ مليبـار وكَوره وكـذا الىٰ برّ العـرب وهم خـذلهم الله صـاروا يجلبـون البضـائـع من اقـاصي الاراضي وامتلؤا اطـراف

= الاول من القـرن السابـع عشـر ثم احتلهـا الانكليـز وبقـوا فيهـا حتى استقلال ماليزيا Malaysia وانضمامها الى الكومنولث .

(١) وصفها ابن بطوطه في رحلته / ٦٣٤ .

(٢) كـان اسمها (ابـو سرور) ايـام ابن بطوطـه وقد وصفهـا في رحلته ص ٦٤٠ وتسمى اليوم بريسلور .

الاقطار وكثروا ، وانقادت لهم رعاة البنـادر حتى صار الحكم فيهـا حكمهم وانقطعت اسفـار البحـر إلاّ بـامـانهم وكثـرت تجـاراتهم ومراكبهم وقلت تجـارات المسلمين إلاّ في مـراكبهم والقلعات التي بنوهـا لم يأخـذها احـد إلاّ السلطان المجاهـد علي الاشي[1] نـور الله مرقده فانه فتح شمـطره وجلع جعلها دار اسـلام جـزاه الله عن المسلمـين خـير الجـزاء ، وإلاّ السـامري راعي بنـدر كاليكـوت فانـه فتح قلعتي كـاليكوت وشاليات ، وإلاّ راعي سيلان فانه فتح جملة من القـلاع التي بنوا فيها ، ولكنهـا غير مستحكمـة كغيرهـا ، وكان الافـرنج اولا يـراعون امـانهم واوْراقهم فـما كـانـوا يؤذون اصحـاب المراكب الذي هـو فيه ورقتهم إلاّ بسبب من الاسبـاب ، ثم من سنة ستين تقريباً صاروا يعطون اصحاب المراكب الورقة

(١) السلطان علي الآشي : هو اول سلاطين مملكـة اشي الاسلاميـة واسمه الكـامـل عـلي مغـايت شـاه (١٥١٤ ـ ١٥٢٨م) وآشي : اقصى بقـاع سومطرة ناحية الشمال ، وفيها ازدهـرت هذه المملكـة التي كانت قـوية ولغة اهلها تنتسب الى الملاوية البولينيزية ، وكانت حضارة آشي ولغتها متـأثـرتـين اول الامـر بـالنفـوذ الهنـدي ثم وصـل الاسـلام بعد ذلك الى شـواطئها بفضـل التجار العـرب والهنود . ولمـا زارها ابن بطوطة سنة ١٣٤٥ م كان الاسلام قد توطد فيها ولاهلها تمسـك باهـل البيت ويسمون الشهر الاول حسن حسـين وهي نسبة واضحـة لسبطي رسول الله (ص) وهـناك عليها اسر من الآشيين رسم عليـه سيف علي ذور الفقار محاطـاً بكتابـات شيعيـة . انـظر دائرة المعـارف الاسلاميـة ٢ / ٢٢٣ .

عند السفر واذا ظفروا بهم في الباحة اخذوا المركب وما فيه وقتلوا مَنْ فيه من المسلمين وغيرهم شر قتلة ذبحاً واغراقاً بربطهم بالحبال وادخال كثيرين منهم في امثال الشباك واغراقهم في البحر .

وفي سنة سبعين او ما قبلها اخذوا في كَووه جمعاً كثيرين من تجار المسلمين الحبوش وألزموهم بالرجوع الىٰ النصرانية واذّوهم حتىٰ تنصر اكثرهم ظاهراً وخرجوا منها بما معهم من الاموال ثم رجعوا الىٰ الاسلام بحمد الله ولكن امرأة حبشيّة الزموها بذلك فأبت وامتحنت حتى قُتلت بذلك رحمها الله .

الفصل الثاني عشر

- في سبب الاختلاف بين السامري والافرنج وخروج الاغربة لمحاربتهم -

ولما تعدد منهم هذا الفعل وامثاله وقلّت حيلة المسلمين بانقطاع سفرهم انتدىٰ جماعة من اهل يدفتن وتركودٍ وفندرينة وغيرها في تهيئة غربان صغار وآلات حرب وخرجوا في البحر بغير اوراقهم وجاهدوهم واخذوا جملة من غربانهم ومراكبهم ، ثم من اهل كاپكات والبندر الجديد وكاليكوت وفنان من رعايا السامري ، واخذوا كثيراً من مراكبهم وغربانهم ، واسَّروا كثيرين وحصل للمسلمين اموال كثيرة

منهم واراهم الله آثار النصر والفتح خلاف ما كانوا عهدوا اولاً في حروبهم من غلبة الافرنج عليهم واخذوا ايضاً جملة كثيرة من مراكب كفرة جزرات وكنكن وغيرهم وقلّ اسفار الافرنج إلّا باحتراس تام او بين غربان ومراكب كثيرة فلما قلّ مال الكفرة شرعوا في نهب اموال المسلمين ظلماً وعدواناً ، والسبب الاكثري في ذلك ان اكثر اهل الغربان ضعفاء ليسوا باصحاب الاموال الكثيرة ، ولذا غالب الغربان مشترك بين جماعة فاذا لم يحصل لهم من اموال الكفرة ما يفي بمصروفهم اخذوا ما وجدوه ولو مال المسلم حتىٰ يحصل لهم مثْل ما صرفوه مع انهم يعاهدون وقت خروجهم ان لا يتعرضوا لمال المسلم فاذا اخذوا مال المسلم لا يردونه الىٰ صاحبه اذ ليس فيهم من يحكم عليهم بالقوة ، وراعي البلد يأخذ قسطاً مما يأخذونه وقلّما ينفع فيهم النهي المجرد إلّا مَنْ كان ملازماً للتقوىٰ وقليل ما هم .

وفي العشر الاوسط من رمضان سنة اربع وسبعين خرج من فنان اهل فنان وفندرينة وغيرهما في نحو اثني عشر غراباً واخذوا برشة للافرنج واصلة من بنجالة[1] فيها الارز

---

(١) بنجالة : هي البنغال ، وكانت تشمل معظم نواحي بردوان ودهاكه وراج شاهي وبهاكلبور وشمالي بتنه كانت خاضعة للحكم الافغاني في القرن الثامن الميلادي واصبحت مملكة مستقلة سنة ١٣٤٠ ـ ١٥٤٠ م ثم جزءاً من امبراطورية المغل الكبرى ١٥٧٦ م وفي سنة ١٦٩٦ بنت =

والسكر قبالة فنان .

وفي يوم السبت الثامن من جمادى الآخر سنة ست وسبعين خرج من فنان اهل الغربان من اهل فنّان وفندرينة وغيرهما في سبعة عشر غراباً فيهم كث پوكر ، واخذوا برشة كبيرة خرجت من كشي فيها نحو الف من الافرنج الشجعان والمتنصرين معهم وعبيدهم باستعداد تام فيها مال جليل قبالة شاليات ووقعت الحرب وقعت النار في البرشه فاحترقت وحصل للمسلمين بعض المدافع الكبار ، ووقع في حبسهم اكثر من مائة افرنجي من الشجعان والكبراء غير الخدّام والعبيد ، والباقون هلكوا ، واغرق بعضهم ، واحترق الآخرون والحمد لله على ذلك .

وعقب ماضي ايام من هذا خرجوا الىٰ طرف قائل واخذوا اثنين وعشرين مركباً من مراكب الافرنج ، ومَنْ تنصر معهم ، مملوءة ارزاً وصلت من قائل واطرافها وشولمندل وغيرها ، وكان فيها ثلاثة افيال صغار ، وجاءوا بها الى فنان وادخلوها في نهرها .

فيها شركة الهند مدينة عسكرية (فورت وليام) هي اليوم كلكته ، ضمت الى الهند، سنة ١٨٧٦ حتى قرار التقسيم فضم اكثرها الى باكستان الشرقية وهي بنغلادش الحالية دولة مستقلة عاصمتها داكا واما البنغال الغربية West Bengal فهي من جملة ولايات الهند الحاضرة وعاصمتها كلكتا Calcutta .

وفي العشر الاخير من جمادى الآخر سنة ثمان وسبعين دخل كت پوكر المذكور ليلاً في داخل نهر منجلور في ستة اغربة واحرق اكثر القلعة التي للافرنج فيها واخذ غراباً صغيراً وخرج منها سالماً مع الاغربة التي كانت معه فلما وصل قريب كننور لقىٰ نحو خمسة عشر غراباً من غربان الافرنج فحاربهم واستشهد وفقد جسده رحمه الله رحمة واسعة ، وما سلم مما معه من الاغربة إلّا غرابان ، وكان رحمه الله خالص النية في جهاد الافرنج خذلهم الله .

ثم ان المقدم الكبير مقدّم كننور علي اذراجا وفقه الله للخيرات لما رأىٰ تمادى ما حل بالمسلمين من الضعف والفقر الشديد وتعطل التجارات بسبب الافرنج الملاعين ارسل الىٰ السلطة الاعظم والشاه الاكرم علي عادل شاه نصره الله ووفقه لما يرضاه اوراقاً فيها الشكاية عما حلّ بمسلمي مليبار من ظلم الافرنج وايذائهم ، والاستعانة في تخليص هؤلاء المستضعفين من شرورهم بالجهاد في سبيل الله مع هدايا فالقىٰ الله سبحانه في قلبه ان يتهيأ لحرب بندر كَووه فانها دار مملكتهم في الهند ، وكانت اولاً من بنادر جده الأعلىٰ رحمه الله . وايضاً وقع الاتفاق بين عادل شاه ونظام شاه[1] وفقهما

(١) نظام شاه هو ملك حيدر آباد الدكن ، من سلسلة ملوكها الذين عرفوا بالنظام شاهية ، واحياناً يطلق نظام الدكن ، والدكن من اكبر هضاب الدنيا واخصبها تربة في وسط الهند الحالية ، انتهت السلطنة النظامية في =

الله لرضاه عقب تخريب بجانكَر وقتل راعيها ان يفتحا كووه وشيول ، وعقب وصول اوراق آذراجا الىٰ عادل شاه خرج هو ووزرائه وحطّوا فوق كَووه والتمس منه اعانته ومنع القوة عنهم مع ان السامري ورعاياه مخالفوهم ومحاربوهم قبل ذلك بسنين عديدة ، ووصل قاصده اليه وهو في شاليات ، مشتغل بحربهم ، وحطّ نظام شاه ووزرائه علىٰ شيول ، وشرعوا في الحرب وكسروا حصارها بالمدافع الكبار ، وكان فتحها ممكناً ولكنه تهاون بسوء الظن بعادل شاه وتعظيم امر الافرنج وترك الحرب وصالحهم .

واما عادل شاه فمعذور فان كَووه بعيدة عن عسكره والنهر حائل بينهما وهي حصينة منيعة فيها حصن كثيرة لا يقدر عليها إلاّ بتوفيق من الله العزيز مع ان بعض وزرائه اتفقوا مع الافرنج علىٰ اخذه وتولية غيره من اقاربه الذي كان في كووه عند الافرنج فاحسّ بذلك عادل شاه وخاف وخرج من المعسكر خفية فلما استقر طلبهم وحبسهم وعذّبَهم وازال نعمهم .

= حيدر آباد بدخول الجيش الهندي اليها واعلانه حيدر آباد كولاية من سائر ولايات الدولة الهندية وذلك بعد قرار التقسيم ، وهذه الدولة غير النظام شاهية او مملكة احمد نكر (١٤٩٠ ـ ١٦٣٣م) التي كانت في الدكن ايضاً وقامت على انقاض الدولة البهمنية واستطاع شاهجهان ان يضمها الى امبراطورية المغل .

ثم ان عادل شاه صالحهم لبعض الضرورات ، ولكن الافرنج في هذه الفترة قد حصّنوا كَووه تحصيناً عظيماً منيعاً بحيث لا يقدر علىٰ الدخول فيها من الخارج ذلك تقدير من الله العزيز الحكيم ، وايضاً قد خدعه نظام شاه ووزرائهما واخذوا الرشوة من الافرنج اعداء الدين واوصلوا اليهم الارزاق واعانوهم جزاهم الله حق الجزاء .

الفصل الثالث عشر

- في حرب قلعة شاليات وفتحها -

ولما قوىٰ عزم السامري علىٰ حرب قلعة شناليات لصدور بعض التعدي منهم وتحريض المسلمين له علىٰ ذلك وتأكيدهم خصوصاً في ايام حرب كَووه انتهازاً للفرصة فانهم لا يقدرون علىٰ ارسال المراكب والغربان في ذلك الوقت للمدد ارسل اليهم بعض وزرائه ومعهم اهل فنان ، وجميع من اهل شاليات ، ووافقهم في الطريق اهل برونور وتانور وپرپورا نكاڈ فدخل هؤلاء المسلمون في شاليات ليلة الاربعاء الخامس والعشرين من صفر سنة تسع وسبعين ووقع الحرب بينهم وبين الافرنج في صبيحته فاحرقوا بيوتهم الخارجة من القلعة وبيعهم وهدموا القلعة البرانية ، واستشهد من المسلمين ثلة وقتل من الافرنج جماعة والتجاءوا

الىٰ القلعة الاصلية الحجرية واستقروا فيها فحاصرهم المسلمون ونيّار السامري ووصل اليها المسلمون من سائر البلدان للجهاد وحفروا خنادق حول القلعة ، واحتاطوا في المحاصرة فلم يصل اليهم القوة إلّا نادراً خفية ، وصرف السامري لذلك اموالاً جزيلة ، وبعد نحو شهرين من ابتداء الحرب وصل السامري بنفسه من فنان الىٰ شاليات ، وحصل الاحتياط التام في المحاصرة حتىٰ نفذ ما عندهم من القوت واكلوا الكلاب وامثالها من المستقذرات ، وكان يخرج برضاهم من القلعة في اكثر الايام مَنْ معهم من العبيد وممن تنصّر ذكوراً واناثاً لقلة القوات وارسل الافرنج القوت الىٰ شاليات من كشي وكننور فلم يصل اليهم مع اجتهادهم ومقاتلتهم علىٰ ذلك إلّا قليلاً لا يسدُّ سداً .

وفي ايام المحاصرة ارسلوا الىٰ السامري يطلبون الصلح علىٰ تسليم بعض المدافع الكبار التي في القلعة والمال والمصروف في الحرب مع زيادة فلم يرض به السامري مع ان وزرائه كانوا راغبين به فلما اضطروا بعدم القوت ولم يجدوا طريقاً للصلح ارسلوا الىٰ السامري في ان يتسلم القلعة وما فيها من الحوائج والمدافع ويخرجهم سالمين من القتل ولا يتعرض لما معهم بوصلهم الىٰ مأمنهم فقبل ذلك السامري واخرجهم منها ليلة الاثنين السادس عشر من جمادى الآخر ووفىٰ لهم بذلك وارسلهم اذلاء مع راعي تانور

وهو الذي قبلهم واعانهم ، وكان باطناً معهم وظاهراً مع السامري وصرف عليهم ما يحتاجون اليه وجاء بهم الىٰ بلدة تانور ثم وصلت اليها غربانهم من كشيء فطلعهم فيه واحسن اليهم وجعل ذلك يداً له عندهم فوصلوا الىٰ كشي مقهورين مخزيين ، ثم ان السامري اخذ ما في القلعة حجراً حجراً وجعل موضعها كالصحراء ونقل اكثر الحجار والاخشاب الىٰ كاليكوت وسلَّمَ بعضها لعمارة المسجد القديم الذي هدموا عند بناء القلعة وسلَّمَ الارض التي بنوها فيها وما حولها الىٰ راعي شاليات علىٰ ما وقع القرار عند ابتداء الحرب وبعدما حصل القلعة وما فيها بقبضة السامري وصل لهم المدد من كووه في غربانهم ومراكب خائبين مخزيين باذن الله تعالىٰ وحسن توفيقه وذلك من فضل الله علينا وعلى المسلمين ورحمته.

الفصل الرابع عشر

- في بعض احوال الافرنج بعد فتح شاليات -

اعلم ان الافرنج الملاعين بسبب فتح قلعة شاليات ازدادوا غيظاً علىٰ غيظ وعداوة علىٰ عداوة للسامري والمسلمين ينتهزون الفرصة في تخريب بلدان السامري وبناء القلعة في فنان او شاليات مما يتعلق ضرره بالسامري

والمسلمين عوضاً عن اخذ قلعة شاليات فما يسَّرَ الله ذلك لهم الىٰ تمام سنة سبع وثمانين إلاّ انهم نزلوا في شاليات واحرقوا بعض بيوتها ودكاكينها في الثاني والعشرين من شهر شوال سنة ثمانين .

وفي السنة التي بعدها نزلوا في بربورانكاد واستشهد من المسلمين اربعة ومات من الافرنج اكثر من ذلك وليس للافرنج ميل الىٰ صلح السامري بعد اخذ حصار شاليات متحملين عليه وعلىٰ المسلمين طالبين ثأرهم . ثم في موسم سنة خمس وثمانين اخذوا من غربان المسلمين الكبار مع الغربان الصغار المسافرة لجلب الارز من تلناد خمسين فاكثر واستشهد مَن استشهد ، ووقع في حبسهم من المسلمين واصحاب الهليس نحو ثلاثة آلاف نفس حتىٰ كادوا يتعطَّلُون عن الخروج للتجارة وغيرها بتقدير الله العزيز الحكيم ، لحكم ومصالح لا يعرفها إلاّ هو ، واعظمها الثواب الذي يحصل لهم بسبب الجهاد ، والشهادة والمصيبة والصبر ، ونرجوا من الله سبحانه ان يجعل لهم فرجاً قريباً ويوليهم صبراً جميلاً فقد قال الله تعالىٰ : ﴿ سَيَجْعَلُ اللهُ بعد عُسْرٍ يُسْراً[1] ﴾ « فإنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْراً . إنَّ مَعَ العُسْرِ يسْراً ﴾[2] .

---

(١) الطلاق : ٧ .

(٢) الشرح : ٥ ـ ٦ .

وفي اول موسم السنة المذكورة ايضاً اخذ الافرنج لعنهم الله جملة من مراكب جزرات المسافرة من بندر سورت الى بندر جدّة المحروسة عن الرجوع منها مراكب للسلطان الاجل السلطان جلال الدين الاكبر[1] بادشاه اعزّ الله انصاره ، وكان فيها مال عظيم فحصل بذلك الاختلاف بينه

---

(1) جلال الدين محمد اكبر بن همايون بن بابر التيموري ، ولد سنة ٩٤٩ هـ - ١٥٤٢ م وتولى سلطنة دهلي سنة ٩٦٣ هـ - ١٥٥٦ م الى سنة ١٠١٤ الى سنة ١٠١٤ هـ - ١٦٠٥ م وللقائد المغولي بيرم خان الفضل الكبير في تثبيت ملكه . وينسب لاكبر انه ابتدع دين جديد يقرب فيه بين الديانات السماوية والوثنية ، ويعد اكبر على رأس ملوك المغول في رعايته للعلوم والفنون والآداب ، وبشأن الاحداث التي يذكرها (المليباري) عنه نذكر ان اكبر قد زحف بجيشه لاخضاع مدينة سورت في كجرات وكان البرتغاليون قد اسسوا بها مركزاً لتجارتهم لكنهم رأوا غلبة اكبر فمالوا الى الصلح معه واكتساب ودّه ، وعقدوا معه معاهدة تعهدوا فيها بتيسير الحج الى مكة ، وعدم التعرض في البحر للحجاج المسلمين ، وكانت سورت ميناء يبحر منها الحجاج ، وحين عاد اكبر من كجرات اصطحب معه ملكها مظفر شاه الثالث الذي عاش في كنفه مدة ، حتى زين له بعض امراء كجرات ان يفر ويعود اليها ليسترجع ملكه فاستجاب لهم وفر من اكرا وحين وصل الى هناك التف حوله كثير من الامراء والمحاربين فعين اكبر ، عبد الرحيم خان بن بيرم خان على رأس حملة لاخضاعه فلما وصل الى كجرات انهزم امامه مظفر شاه الى البلاد الساحلية ولكنه لم يستسلم بل ظل عدة سنين يحارب حرب عصابات واخيراً استسلم وقبض عليه وقتل سنة ١٠٠١ هـ - ١٥٩٢ م .

وبينهم ولم يهن علىٰ الافـرنـج خـذلهم الله تسليم المـال اليـه لاجـل الصلح لكثرتـه ، ونرجـوا من الله سبحانـه ان يهدي السلطان جلال الدين الاكبر نصره الله نصراً عزيـزاً ويوفقـه لمحـــاربتهم واخــــراجهم من بنـــادره مــثـــل ديـــو جـــزرات ودمون[١]دوسي وغيرها بهذا السبب ثم اخـراجهم مِنْ سائـر البنادر التي استولوا عليها بـاذن الله تعالىٰ او حسن توفيقه انـه علىٰ ذلك قدير ، وبالاجابة جدير .

ثم انه دخل بعض اصحاب الاغربة في نهر بندر عـادل آبـاد[٢]فقصدهم الأفـرنـج ليـأخـذوهم فـدخلوا ورائهم فلما تمكنوا مِنْ اخذهم احـرقوا البنـدر جميعه والغـربان والمـراكب التي فيها قولهم واوراقهم من اهل درمفتن وكننور وغيرها ثم احرقوا بندر قرافتن ، ولذا اخذ نائب بندر دابول حرسها الله مـائة وخمسـين فرنجيـاً من كبارهـم وشجعـانهم خديعـة فقتل اكثـرهـم وارسـلٍ بعضهم الىٰ عـادل شـاه ثم ان عـادل شـاه نصـره الله ، عَيَّنَ بعض وزرائـه وعسـاكـره للمـرابـطة علىٰ

---

(١) دامون او داماں Daman تشكـل مع ديـو وكووه ولايـة اتحاديـةٌ هنديـة ، مسـاحتهـا ٧٢ كم٢ ونفـوسهـا ٤٨ ,٥٥٧ نسمـة (حسب احصـائيـة ١٩٨١) .

(٢) عـادل آباد Abdilabad من محـافـظات انـدرا بـرديش Andhra Pradesh بجنوب الهند مساحتها الحالية ١٦١٣٣ كم٢ ونفوسها ١٦٢٦٦٨٨ نسمة (احصائية ١٩٨١) .

كَووه ، ومنع اهل بلاده وغيرهم ان يوصلوا اليهم القوت ، ثم ارسل قاصده بمراسم مع هدايا الىٰ آذراجا ، والسامري ، وكولتري طالباً اعانتهم في حرب كَووه ومنع القوت عنهم ، فلما وصل القاصد ومَنْ معه وما معه الىٰ كوتوكلم حبسه ومَنْ معه راعيها وهو ثالث كولتري وهو الذي يتولىٰ مملكته بعد موته ، وموت واحد بعده ، وكان ذلك باشارة من الافرنج ولكن هرب القاصد وحده خفية وسلم ، واخذ راعيها جميع ما كان عنده من الاموال والهدايا ، وقد ارسل اليه اذراجا وكولتري الورقة في ردّ الاموال والهدايا ولو لم يهرب القاصد لسلّمه ومَنْ معه الىٰ الافرنج ، وكان ذلك في سنة ست وثمانين .

وفي تلك السنة دخل علىٰ السامري بعض كبراء الافرنج وتكلم معه في امر الصلح وكان السامري حينئذ في بيت صنم محترم عند جميع كفرة مليبار قريب أكدپنكلور فرضى السامري بذلك ، علىٰ ان يبنوا قلعتهم في كاليكوت ، فالتمسوا بناها في فنّان فلم يرض بذلك السامري ، ثم ارسل السامري الىٰ كَووه لاجل الصلح ثلاثة مِنَ المعتبرين من رعيته مع ذلك الافرنجي الذي كان يتكلم بالصلح فدخل كَووه معه فتلقاه كبيرها المسمىٰ (بيزرو) بتعظيم واكرام زائد علىٰ الحد واحسن اليهم ثم رجعوا الىٰ السامري وانقطع امر الصلح لطلبهم بناء قلعتهم في فنان .

وكان انقطاع امر الصلح سنة سبع وثمانين ، وفيها وقَع الصلح بين عادل شاه والافرنج علىٰ اعطاء اموال لـه ثم ان راعي كشي تهيأ لحرب السامري لاخـراجه من بيت الصنم المتقدم ذكره ، وجمع جموعاً كثيزين ، وارسل الىٰ كبير الافرنج (بيزرو) في وصوله اليه لاعانته في حرب السامـري فارسـل لذلك غرباناً فاجتمعوا كلهم وحاربوا السامـري ، مع كـون جماعته قليلين فخـذل الله لفضله الافـرنـج وراعي كشي ، وقتـل من جماعتهم كثيـرون وانهزمـوا ولم يصب السـامـري واصحابه ضـرراً مع قلتهم ثم خـرجت غربـان الافرنـج من كشي لتعـطيل اسفـار المسلمـين واخـذ مـراكبهم وغـربـانهم خذلهم الله واخذهم اخذ عزيز مقتدر .

ثم في سنـة تسعـين ، او احـدىٰ وتسعـين اشتـدوا في المرابطة علىٰ متعلق السامـري من اهل كـاليكوت ، والبنـدر الجديد ، وكايكات ، وفندرينة ، وتركودٍ ، وفنان ، ولازموا عليها دوام الاوقات من اول الموسم الىٰ اخره ، فتعطل بذكر سفرهم بالكلية ، والخروج منها الىٰ البلد القريب ، وتعـطل وصول الارز من تلناد ، ووقع فيها القحط العـظيم الذي لم يعهـد قطّ مثله لملازمـة البنادر المـذكـورة من غـير فـوت ولا تقصـير ، واخذوا مـراكباً وغـربانـاً حتىٰ اشتد لسـان حـالهم ﴿ رَبَّنا اَخْرِجْنا مِنْ هَذِهِ القَريةِ الـظَّالِم أَهْلُهَا واجْعَـلْ لنا مِنْ

لَّدُنكَ وَلِيّاً واجْعَل لنا مِنْ لَّدُنكَ نَصِيراً ﴾[1].

ولكن في موسم السنة الثانية اتفقوا والافرنج والسامري علىٰ المصالحة علىٰ بناء قلعتهم في فنّان ورد مَنْ كان في اسارى المسلمين من الافرنج الىٰ كبيرهم ، ورد من عند الافرنج من رعيته الىٰ السامري فردّ المسلمون من امرهم من الافرنج الىٰ كبيرهم ورد الافرنج مَنْ كان عندهم حاضراً من اسارىٰ المسلمين وهم قليل الىٰ السامري ووقع الوعد بين الافرنج والسامري ببناء القلعة اذا وصل كبيرهم الىٰ السامري في الموسم الذي بعده .

وفي اول الموسم الذي بعده وصل اربعة مراكب مِنْ يرتكال فيها كبيرهم الذي عينه سلطانهم ، اثنان عند كَووه ، واثنان قريب من كولم ، فانعزل الكبير الذي كان اولاً ، فلم يحصل الاجتماع بين السامري وكبيرهم لان كبيرهم الواصل في هذا الموسم لم يواجه السامري بل راح الىٰ كَووه ولم يتوقف في كاليكوت ، وكان السامري مهيأ اشياء كثيرة للاهداء لكبيرهم عند الملاقاة فلم ينفع ولما وصل الىٰ كَووه ارسل السامري بعض كبرائه فوقع التلاقي والصلح وحصل لرعاياه السفر الىٰ بنادر كَجرات وغيرها كما كان قبل وحصل سفر مركبين من كاليكوت الىٰ برّ العرب في

---

(١) النساء : ٧٥ .

آخر الموسم .

اصلح الله احوال المسلمين ، وجبر كسرهم ، وقضى حوائجهم .
آمين ـ آمين ـ آمين .

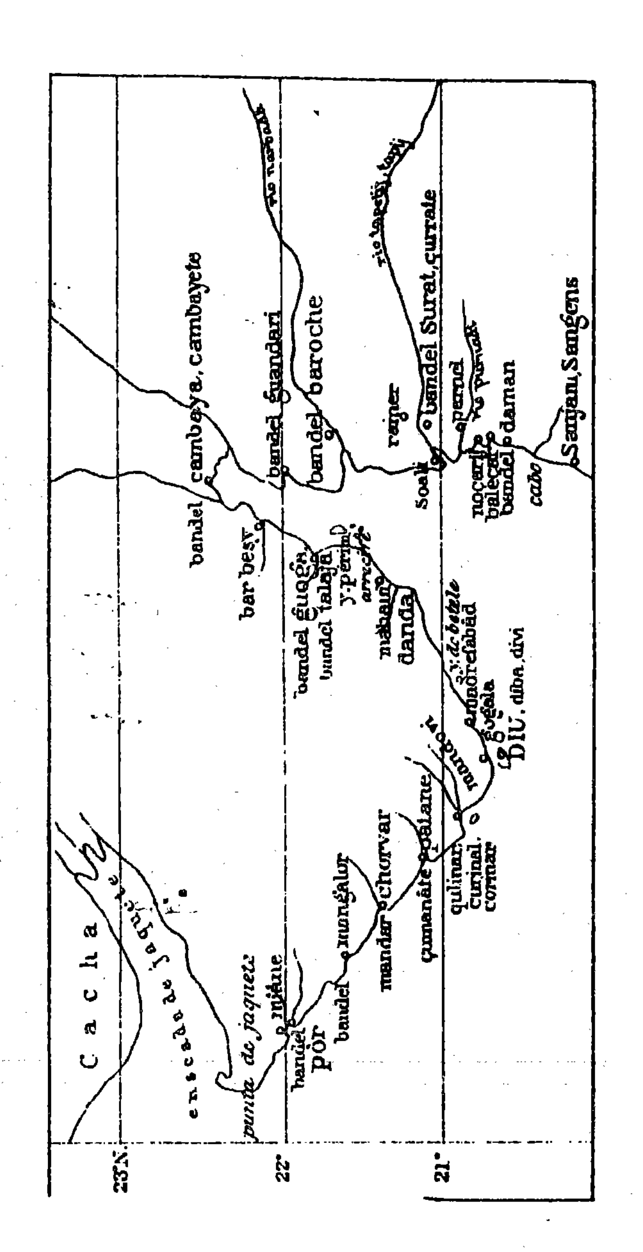
مصر من غير فتح . الفصل التاسع في وقوع الصلح بين السامري والافرنج مرة رابعة . الفصل العاشر في وقوع المخالفة بين السامري والافرنج . الفصل الحادي عشر في مصالحة السامري والافرنج مرة خامسة ، الفصل الثاني عشر في سبب الاختلاف بين السامري والافرنج وخروجه الاغربة[1] لمحاربتهم . الفصل الثالث عشر ، في فتح قلعة شاليات نصر الله الاسلام والمسلمين واعز الدين بمحمد وآله . الفصل الرابع عشر في بعض احوالهم بعد فتحها وفي ان قصدهم الاعظم تغيير دين الله واذلال المسلمين .

= الغربية ، مساحتها ٤٠ كم[2] وعدد سكانها (احصائية ١٩٨١) ٣٠,٤١٩ نسمة وهي من الامكنة السياحية والتجارية في آن واحد .
وذكرها صاحب تقويم البلدان / ٣٥٤ فقال : ديو جزيرة في البحر تقابل كنبايت من جهة الجنوب واهلها سراق ، وعمارتها اخصاص من القفا وشرب اهلها من الامطار وهي بكسر الدال المهملة وسكون المثناة التحتية ثم واو ساكنة .

(١) الاغربة جمع غراب ، وتجمع على غربان ايضاً ، وهي نوع من السفن الحربية اخذه العرب عن القرطاجنيين والرومان وغيرهم من امم البحر الأبيض المتوسط وبقيت الى عهد الدولة العثمانية ، وقد سمي بهذا الاسم لأن مقدمه يشبه رأس الغراب او الطائر ويمثل في الماء الطير في الهواء قال ابن الساعاتي المتوفي سنة ٦٠٤ هـ .

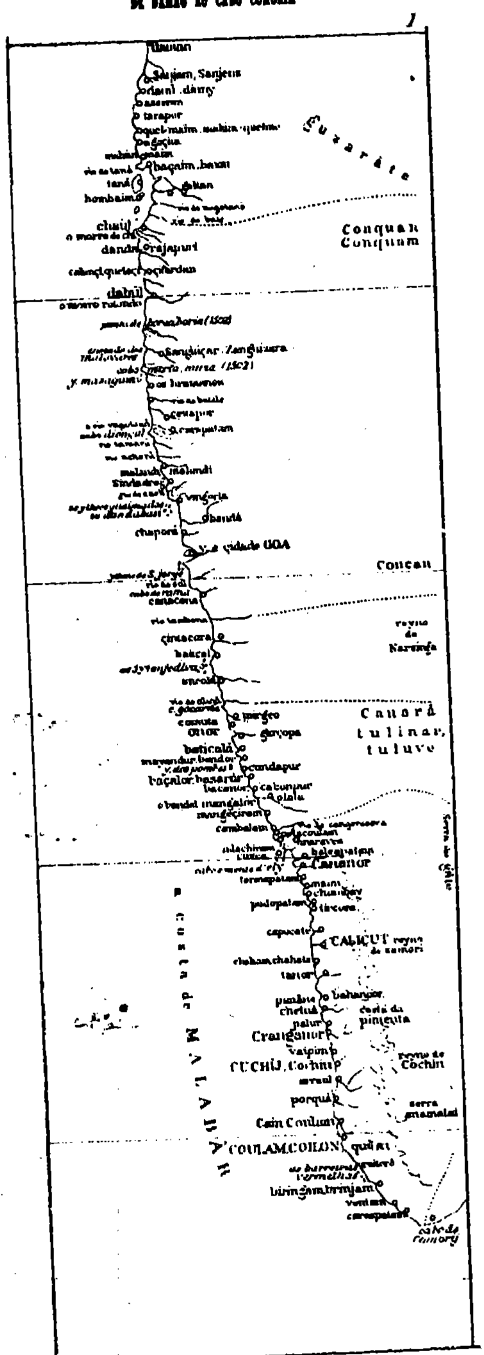
وركبت بحر الروم وهو كحيلة ... والموج تحسبه جياداً تركض
كم من غراب للقطيفة اسود ... فيه يطير به جناح ابيض





١ ـ خارطة كَجرات وسواحلها الهامة على البحر العربي ـ غربي الهند ـ.





٢ ـ السواحل الغربية الهندية المطلة على البحر العربي ـ ولاية كيرالا ـ.



KERALA

0 KM. 100

KARNATAKA

CANNANORE

MAHE
(PONDICHERRY)

WYNAD

CALICUT
(KOZHIKODE)

MALAPPURAM

PALGHAT

TAMIL
NADU

TRICHUR

STATE CAPITAL
DISTRICT HEADQUARTERS

ERNAKULAM

IDUKKI

KOTTAYAM

ALLEPPEY

QUILON

TRIVANDRUM

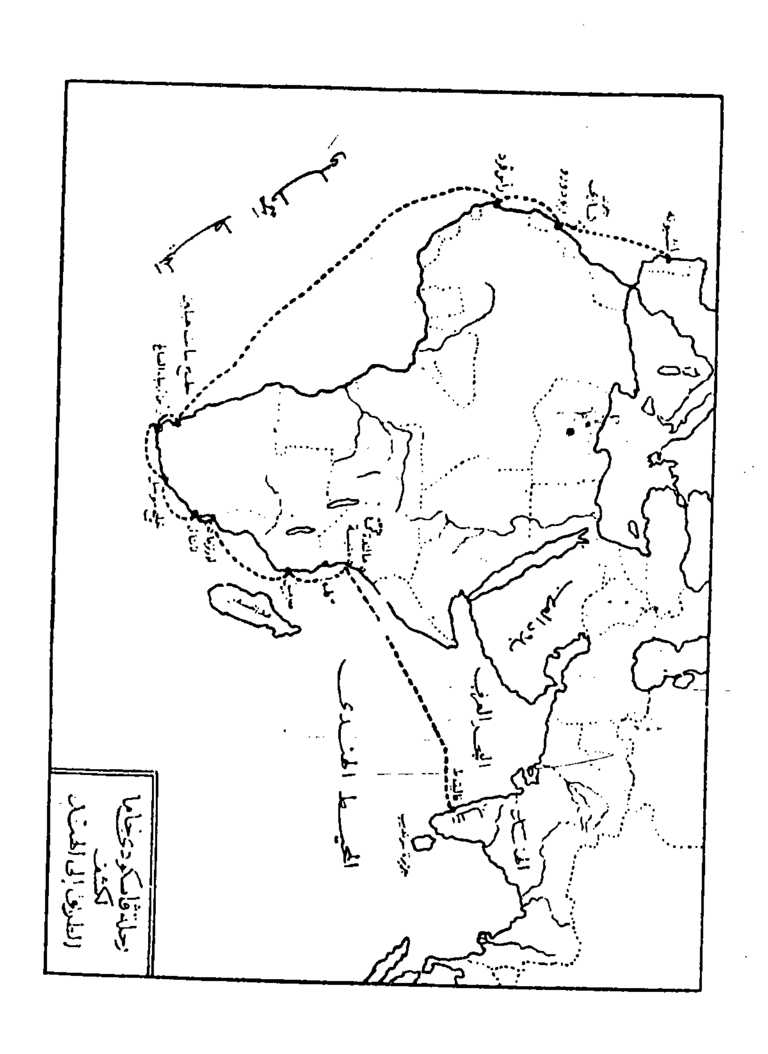
INDIA

INDIAN OCEAN

KBK

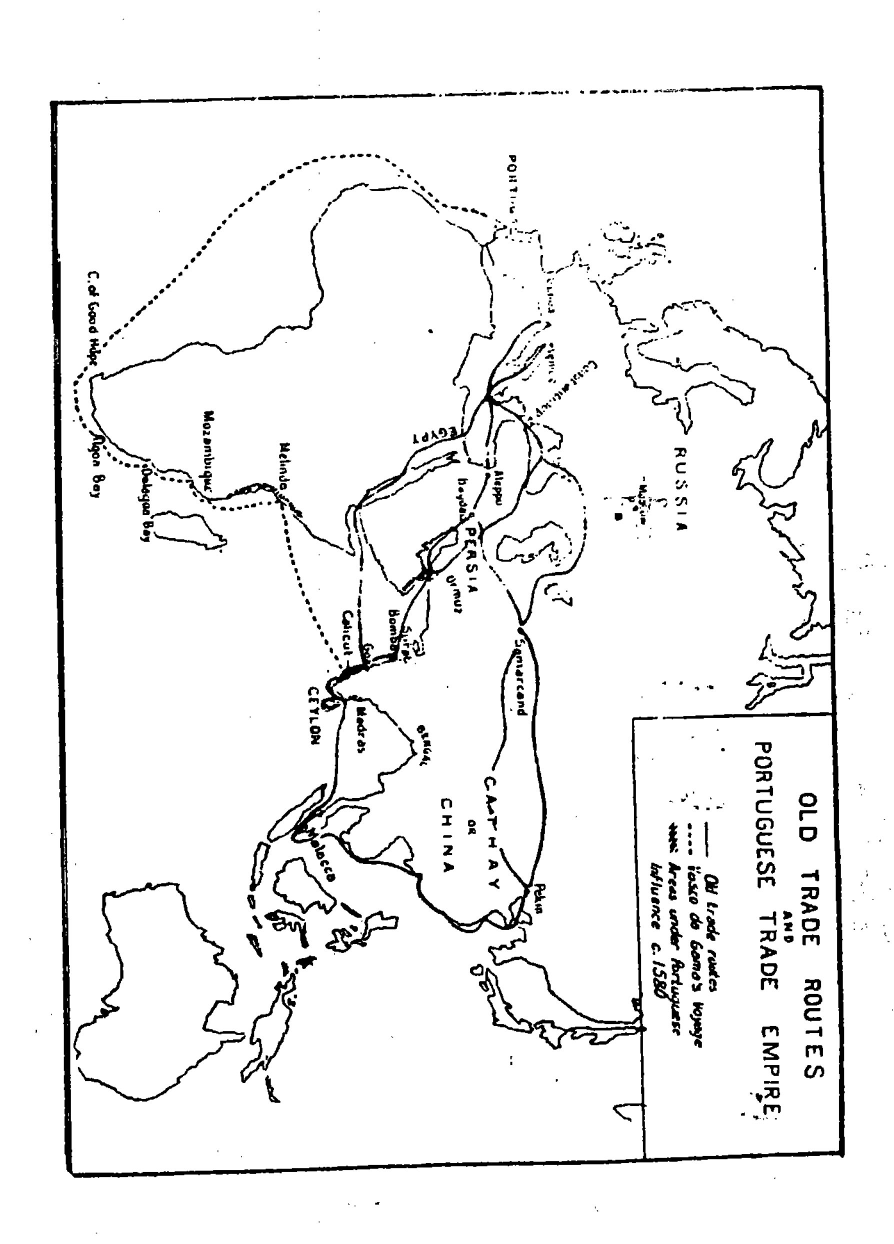
٣ ـ خارطة كيرالا الحديثة .





٤ ـ رحلة فاسكودي جاما لكشف الطريق الى الهند .





٥ ـ خريطة الامبراطورية البرتغالية في اقصى اتساعها .

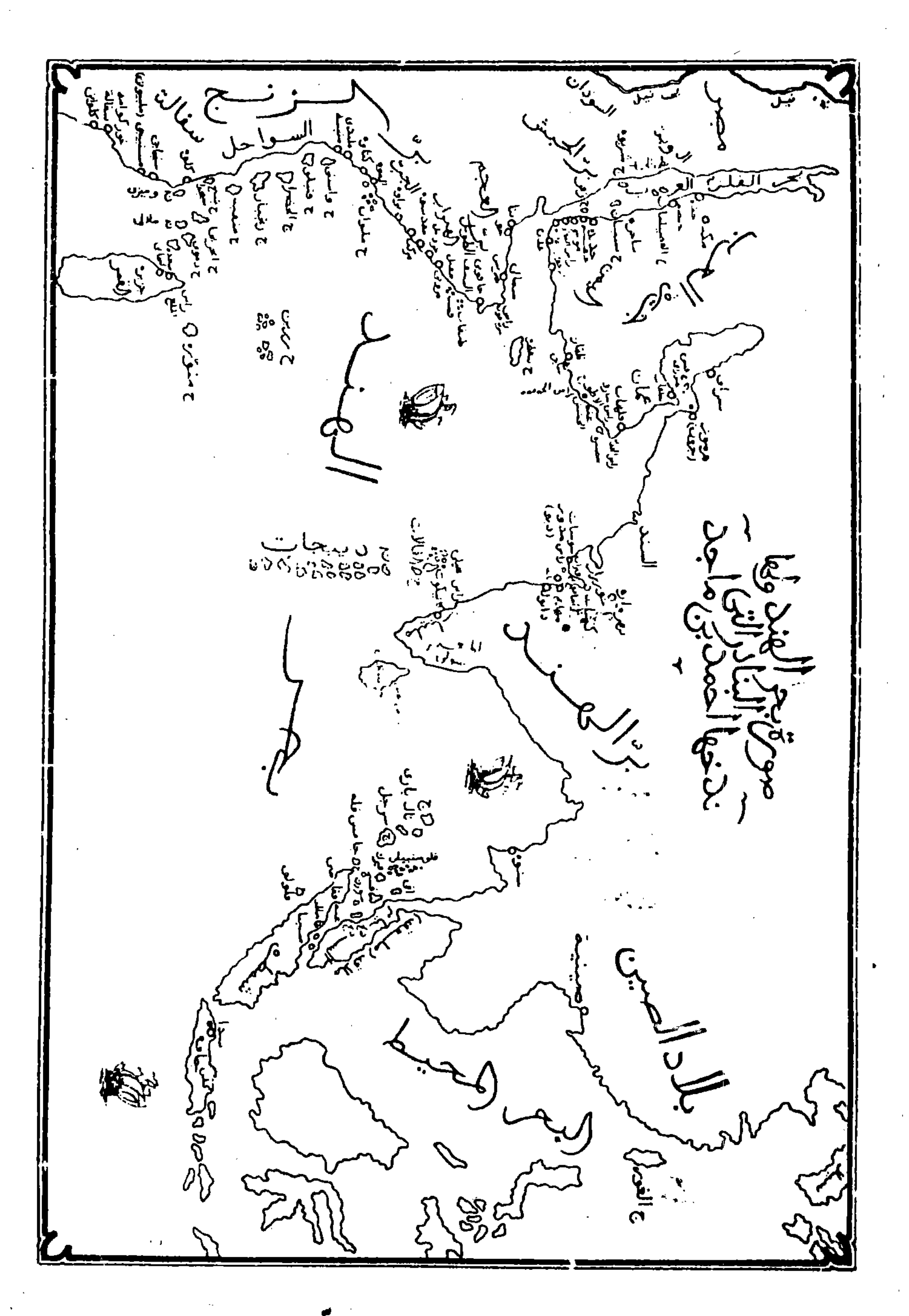






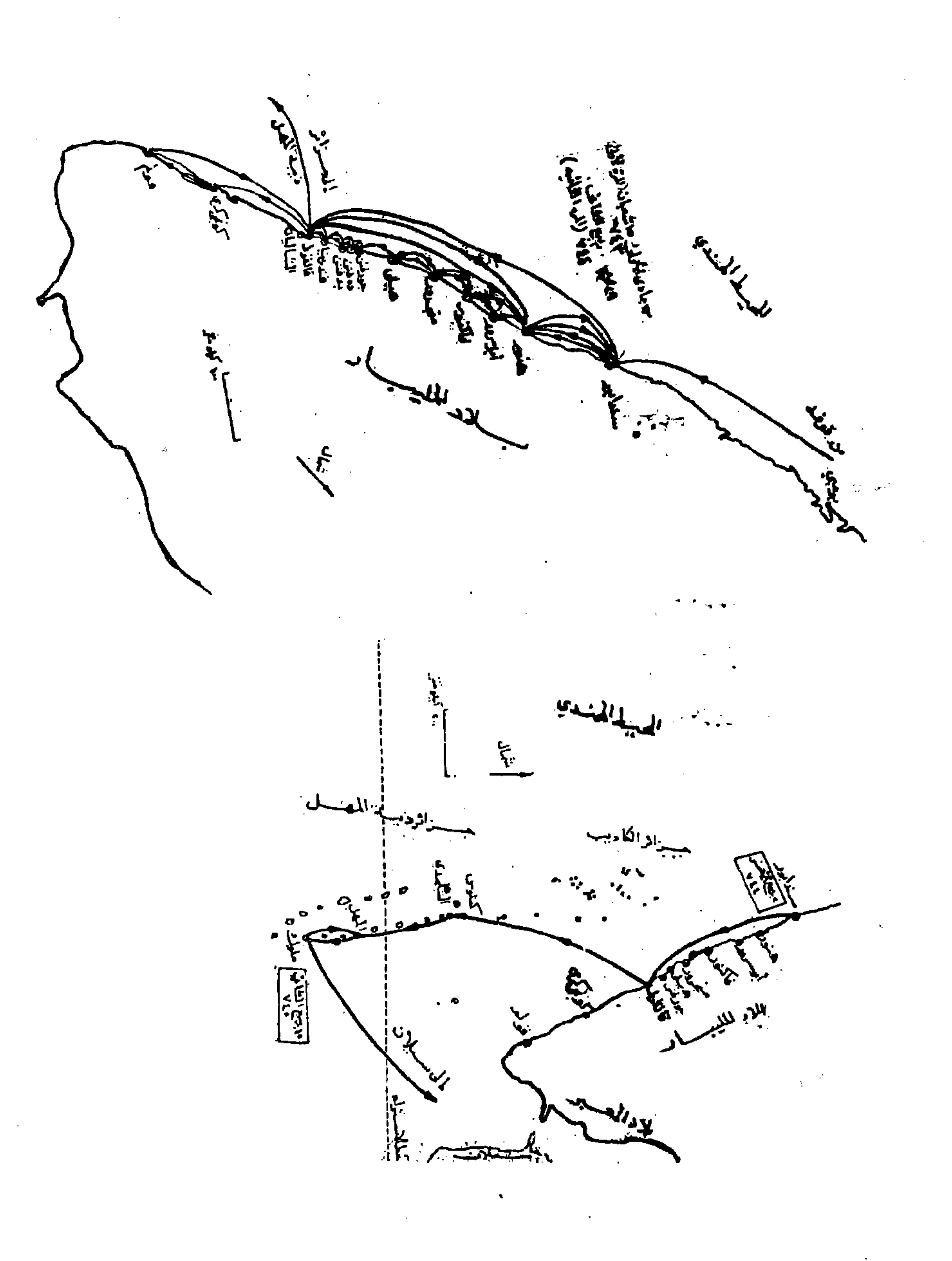
٧ ـ السواحل الشرقية الجنوبية الهندية المواجهة لسيلان ـ ولاية تامل نادو ـ حالياً .





٨ ـ خارطة بحر الهند وبنادره ـ رسم الملاّح العربي احمد بن ماجد .



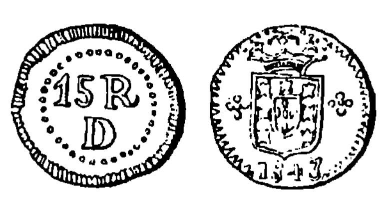


٩ ـ صورتان تمثل رحلة ابن بطوطة الى بلاد المليبار .





ALBUQUERQUE

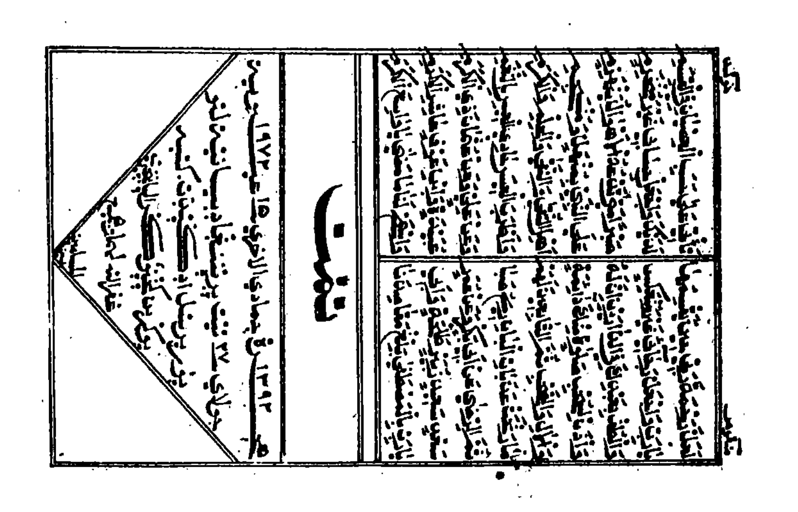


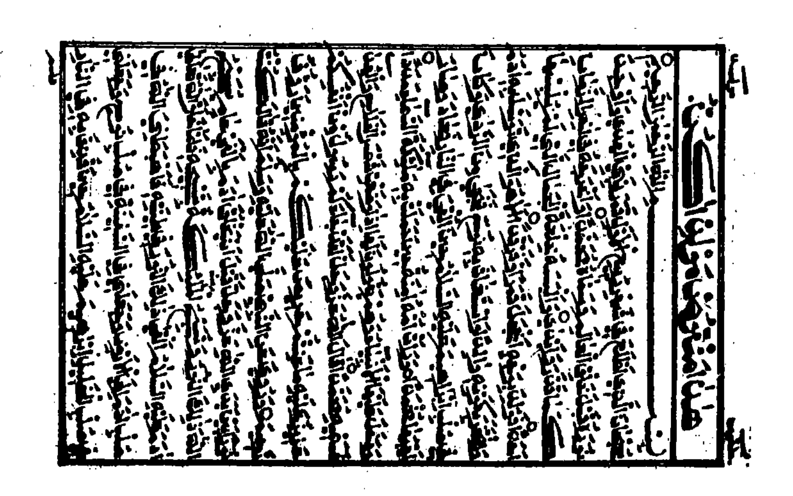
INDO-PORTUGUESE COIN

١١ ـ البوكيرك من اعظم قواد البرتغاليين في الهند .

ـ نموذج من النقود البرتغالية المستعملة في المستعمرات البرتغالية في الهند .







١٢ ـ نموذج من الخط العربي الشائع في بلاد المليبار ـ اول وآخر كتاب عن مولد النبي .





السلطان الغوري

استنجد به الزعماء الهنود ضد الغزاة البرتغاليين فوقف معهم وأمدهم بالأساطيل البحرية وبعث عدة حملات حربية إلى المحيط الهندي

١٣ ـ نموذج من الخط العربي باللغة المليبارية ـ مليالم ـ.

الفهارس

فهرست الأعلام

ـ أ ـ

- ب -

ـ ت ـ

- ث -

- ح -

- خ -

- د -

- ر -

- ز -

- س -

- ش -

- غ -

- ف -

- ق -

ـ ك ـ

- ل -

- م -

- ن -

- هـ -

- و -

- ي -

ثبت بأهم المصطلحات واللغات والأقوام والجماعات

محتويات الكتاب

الموضوع ـــــــ الصفحة

الموضوع ــــــــــــــــــــــــــــــــــ الصفحة